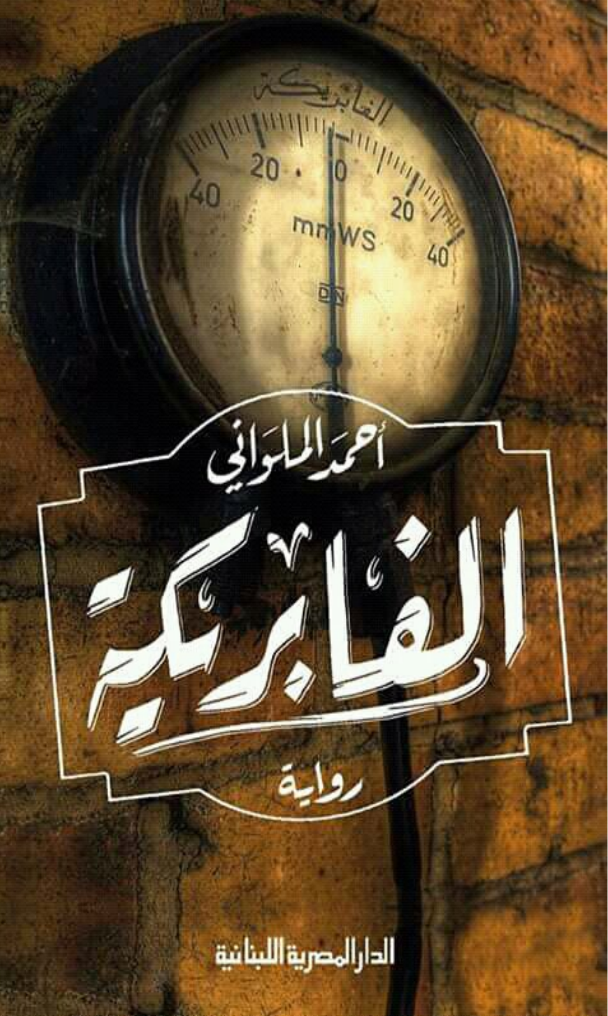

الفابريكة
20
0
40
20
40
mmWS
أحمد الملواني
الفابريكة
رواية
الدار المصرية اللبنانية



الأعمال الكاملة
t.me/kotbhm


الفابريكة
رواية

الملواني، أحمد حلمي إبراهيم فتحي
الفابريكة: رواية/ أحمد حلمي إبراهيم فتحي الملواني .- ط1.-
القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، 2018.
416 ص؛ 20 سم.
تدمك: 3 - 146 - 795 - 977 - 978
1 - القصص العربية.
أ- العنوان. 813
رقم الإيداع: 27788 /2017

الدار المصرية اللبنانية
16 عبد الخالق ثروت القاهرة.
تليفون: 23910250 202 +
فاكس: 23909618 202 + - ص. ب 2022
E-mail:info@almasriah.com
www. almasriah.com

الطبعة الأولى: يناير 2018م



الدار المصرية اللبنانية

يسبق كلامنا...

مَن أنا؟! سؤال ليس في محله. ولماذا يجب أن يكون الاهتمام بالقائل عوضًا عمَّا يقول؟! أنا الشخص الذي يحدثكم الآن، وفي هذا الكفاية. أنا مَن يحمل مفتاح الحكاية، أنا القادر على فض غشاء الأسرار، فأنصتوا إليَّ، أو لا تفعلوا. افتحوا عقولكم، أزيلوا عنها الصدأ، تحرروا مما يثقل أجسادكم نحو الأرض، وحلقوا معي.

من أين أبدأ الحكاية؟ هكذا يكون السؤال. تفاصيل كثيرة، وأحداث متناثرة. أحداث مشتتة عبر أزمان ممتدة، كلها تصلح كمتكأ لانطلاقتي، فمن أين أبدأ؟

ربما من هذا المشهد الواقعة تفاصيله منذ قرابة قرن من الزمان؛ هل ترون؟ عبر الظلام، حقول وأشجار، لن نقدر الآن على تمييز أنواعها؛ ربما إذا فاجأنا شروق الشمس في لحظة قريبة رأيناها بشكل أوضح. دقيقو الملاحظة منكم لن يستسلموا للظلام، سيرون في البعيد نقاط ضوء تتحرك متقاربة، تتلاصق حينًا، وتتشتت حينًا. هل تسمعون؟ ليس حفيف الأشجار، ولا صراخ حشرات الحقول. أنصتوا إلى ما وراء ذلك. هو صوت رجل يلهث، يعلو، يقترب. صوت الخطوات

تدهس المزروعات في الحقول. شخص يقترب، بل شخصان. تشابك الشجيرات يتكسر ويظهر ذلك الرجل. عجوز، هذا واضح رغم الظلام. القمر ينعكس على شعره الأبيض الكثيف الناعم. كل الشيوخ شعرهم أبيض، كل الشيوخ تخنق التجاعيد ملامح وجوههم، كل الشيوخ يلهثون بذات الطريقة حين بذل الجهد. شيخنا فقط يختلف كونه ليس من أهل هذه الحقول، ولا ذلك البلد؛ هو خواجة واسمه رينار، سيمون رينار. وإن كان الاسم غير متداول في القرية. في قريتنا هو "الخواجة" وكفى. لا حاجة لأهل القرية لدلالات أخرى، فلا خواجة هنا سواه. الخواجة كان يهرب، هو وذلك الغلام الراكض مشبوكًا في يده، هذا الضئيل الأسمر، الذي رفع طرف جلبابه كحزام على وسطه، فلا يتعثر فيه، لتبدو للقمر ساقان رفيعتان سمراوان. ربما لا ترون سمارها في الظلام، ولكنني أؤكد وجوده. الغلام اسمه حسونة، وهو ابن الخواجة. لن أسمع لتساؤلات عن كيفية كون حسونة ابنا لسيمون رينار؛ تخرجنا عن مسار الحدث. والآن، هل تسمعون صوت النباح البعيد؟ الخواجة يعرف أن الباشا دفع بكلابه إلى المطاردة، فأي أمل باقٍ له سوى مواصلة الجري على حافة الترعة، سعيًا لإدراك القنطرة الصغيرة قبل أن يلحقوا به. الجسر الرئيسي المفتوح على قلب القرية فاته منذ زمن؛ تجاهله عن عمد. يعرف أن عبيد الباشا ينتظرونه هناك؛ السود الضخام، يعرفهم ويعرف ما تفعله سياطهم في اللحم البشري. برغم العمر المتقدم، والجسد القريب من التهالك، زاد سرعته. جسد حسونة الضئيل، بالحقيبة الثقيلة المشبوكة بكتفه، فشل في مجاراة

سرعة أبيه. مقاومة جسد حسونة تتزايد وتضاعف من جهد العجوز.
صوت النباح يزداد وضوحًا. ينظر خلفه؛ أضواء المشاعل تقترب. أمامه الآن أمل أخير كان يتحاشاه؛ عبور الترعة سباحة. توقف وأنزل الحقيبة القماشية عن كتف الصغير. شعر بثقلها في يديه، كيف يمكن أن يعبرا الماء بها؟ فتحها وأخرج دفتر أعماله، وأيقونة العذراء، وكيسًا قماشيًّا صغيرًا تُجلجل به قطع النقود النحاسية. وضع الأيقونة وصرة النقود في جيب بنطاله، وأمسك الدفتر في يده حتى لا يهلكه الماء. ألقى الحقيبة في الترعة، وشاهدها تغرق، غير آسف على ملابسه وبضعة تذكارات من ترحاله الطويل؛ لا قيمة لها إذا ما وضعت في ميزان واحد مع حياته ذاتها. سحب حسونة من يده، غاصا في الماء. حسونة كان سباحًا بارعًا في ماء الترعة، الأسرع والأقوى كان بين أترابه. الخواجة يعرف هذا، فلم يحمل همه. هو لم يكن سباحًا سيئًا، ولكن كبر السن، وطول البعد عن الماء، وتقززه من ماء الترعة ما أوجف قلبه. صلى للرب ألا يجد الماء غامرًا. كان يتحسس بقدميه الأرض المفككة تحته خشية الانهيار. يده اليمنى مرفوعة بالدفتر بعيدة عن سطح الماء. حسونة بضربات ذراع معدودة كان قد بلغ الشط الآخر، والخواجة ما زال يمارس حذره المثير للشفقة، والماء يبلغ صدره. صوت النباح صار أعلى من المستوى الآمن. التفت فوجد وهج المشاعل يتراقص خلف حزام الأشجار فوق رأسه. ما كان ليسبق المطاردين إلى الشط الآخر إلا بمعجزة، انتظرها لثانيتين، فلم تأتِ. حسونة هو مَن أتى، عاد يضرب الماء بذراعيه، مدركًا أبيه في حيرته، مدَّ له يدًا متعجلة..

ـ أعطني الدفتر.. سآخذه للشط.

الخواجة لم يكن يملك ترف البحث عن منطقية الأفعال. دفع الدفتر في يد حسونة..

ـ انتبه له.

حسونة أمسك الدفتر بفمه، وأطلق ذراعيه تقودانه فوق صفحة الماء. الخواجة تحرَّر من ثقل حمله في ذات اللحظة التي بلغته فيها أصواتهم. التفت فوجد أولهم يظهر من الظلام، بالكاد ميزه فلم يكن من حاملي المشاعل. كان يمسح سطح الترعة بعينيه. كل الاختيارات تبددت، لم يبقَ له سوى الغريزة مُحركًا. ملأ صدره المتهالك قدر المستطاع، وغمر الجسد في الماء إلى منتهاه. لا يعرف أيهما سيبلغه أولًا، الموت، أم عبيد الباشا. بمشقة فتح عينيه تحت الماء. لم يرَ شيئًا في البدء، ثم ظهر الضوء الأحمر يتخلل سطح الماء، فأدرك أن المطاردين الآن فوق رأسه تمامًا. صوت كلابهم يخترق أذنيه. يداه تسللتا إلى جيبه، قبضتا على الأيقونة الصغيرة، مارستا صلاة صامتة. حين أتاه الاختناق سريعًا، جاهد النفس على المواصلة لأطول فترة ممكنة، فما فوق الماء أكثر بشاعة من الموت. الأصوات ابتعدت والإضاءة في عينيه انطفأت. عليه أن ينتظر أطول. يجب أن يبتعدوا عن موضعه مسافة آمنة، فلا يرونه حين خروجه، ولا يسمعون صوت جسده يقطع الماء. صبر، حتى كاد الصدر ينطبق، فخرج من الماء يشهق، يلتهم الهواء. كان بإمكانه أن يراهم في نقطة بعيدة من الشاطئ.

تمالك نفســه وجســده وواصل رحلته إلى الشاطئ المعاكس. لما بلغه انهار راقدًا تحت شجرة أم الشعور. يشعر أن الموت ليس ببعيد، يشعر أن الموت ليس فكرة سيئة، يشـعر أن الموت لن يمنعه عن شيء، فقد عـاش طويلًا جدًّا، وخبر عن الحياة ما يملأ عمرين إضافيين. حسـونة اقترب منه زحفًا. قبل أن يميز الخواجة ما في الوجه من قسمات حزن، بلغته أولًا أصوات البكاء المكتوم، فتوجس..

ـ حسونة.. ما بك؟

ـ الدفتر وقع مني في الماء.. سامحني!

لثوانٍ فقد الخواجة القـدرة على الإدراك. بعدها كان أول ما أدركه هو ذلك الشـعور المباغت بالارتياح. هل يُعقل أن ضياع عمل السنين يمكن ـ ولو بقدر ضئيل ـ أن يبهجه؟! ربَّت كتف حسـونة..

ـ لا تبكِ يا ولدي.. المهم هو سلامتنا.

حـاول الخواجـة أن ينهض فلم يقوَ. قرر أن يستسـلم لتعب البدن، وتشـوش العقل، فأغمـض عينيه دقائق معـدودة. أتـاه الدفتر في حلم خاطف، يمسكه حسونة بين أسنانه، ويقبع في حفرة بلا قرار بادٍ للعيان. لحظتها فتـح الخواجة عينيه مدركًا أن العمر ما زال به احتمال للبعث. عليه أن يخرج بحسـونة إلى الأمان. دارت آلات الحياة المسحورة من جديد. نهض الخواجة، متكئًا على جسـد حسونة. سارا على مهل بين الحقول، ولتكن مشيئة الرب. عند الفجر بلغا البلدة بسلام، حيث نقطة

الشـرطة ومحطـة القطار، حيث حـدود النجـاة. كان أذان الفجر يتردد علـى المـآذن. حسـونة كان يـردد وراء المؤذنين كما علمه الشـيخ في الكُتّاب، الخواجة فُتح في صدره براح للارتياح، ربَّت الكتف السمراء الصغيرة وقال:

- برافو حسونة.. برافو ولدي.

في الصباح أرسـل الخواجة برقية لسـفارة بلده من نقطة الشـرطة، وجلـس ينتظـر الـرد. السـفارة أرسـلت لـه أن مبعوثهـا سـينتظره فـي عاصمة المحافظة حيث سـيأخذه القطار المار بالبلدة. بعد يومين كان الخواجة وحسـونة ينظران عبر شرفات الباخرة إلى بيوت الإسكندرية تبتعـد. الخواجة ألقـى في عمق الماء المتموج تحت السـفينة، أعوامه العشـر الماضيـة، العمـر الـذي أفنـاه فـي قريتنا. حسـونة كان سـعيدًا بالمغامـرة، سـعيدًا باقتـراب المجهول، سـعيدًا بالقميص والسـروال القصير والكاسـكيت، الذين اشـتراهم له الخواجة من محل للملابس الإفرنجية. لكنه كان حزينًا كلما لمس في عيني والده حسرة على دفتره. مـرات قليلة فكر أن يُخرج الدفتر من مخبئه ويعيده لوالده. لكنه بفطرة الطفولة كان يُحمِّل هذا الدفتر تبعات كل ما عانياه في القرية. كان واثقًا بإدراكه البريء، أن في إبعاد الدفتر عن يد وعقل والده، نجاة.

***

حكايتنـا يمكـن أن تبدأ من نقطة أخرى؛ حيـث تلك المرأة تركض بيـن بيوت القرية، رغـم المطر المنهمر وفخاخ الطيـن الزلق. الحدث

قديم، ولكن ليس إلى زمن بعيد، حدث ربما منذ عشرين عامًا أو أكثر قليلًا. المرأة تبلغ باب تلك الدار، فتطرقه. تلمح عبر فراغات الباب الحديدي تلك الطفلة تهرول على السلم، تفتح الباب. تندفع المرأة إلى الداخل، تندفع إلى طريق تحفظه. تسأل البنتَ المهرولة خلفها:

- الناس حضروا؟

تجيبها البنت:

- ليس بعد.

تبلغ الشقة في الطابق الأول. الباب مفتوح، تدخل الحجرة المقصودة، تجد أم سميرة قد أعدت كل شيء، من اللفائف إلى الماء الساخن. تبصرها أم سميرة، مندهشة، تسأل:

- لم تحضر معكِ؟

- آتية ورائي.. مع صابرين.

دقيقتان وعادت سميرة تهرول على السلالم، لتفتح باب البيت لطارق جديد. امرأتان هذه المرة، إحداهما تمسك بطنها المنفوخ وتصرخ، والثانية تسندها. انحشرا في الحجرة الضيقة مع أم سميرة وضيفتها. أعان الثلاثة المرأة الحامل على امتطاء الفراش. لدقائق طويلة قادمة لن تسمعوا سوى أصوات صراخها، ولن تروا سوى رفرفة الملابس السوداء حول أبدان نساء ثلاث يتحركن بتوتر، متلاصقات في اختناق الحجرة. صوت الصراخ سيحطم أعصابكم، خاصة وأنتم

محرومـون من الوقـوف يقينًا علـى تفاصيل ما يدور فـي الحجرة. لن يهـدأ فضولكم إلا بسـماع صرخة الوليد الأولى، وصـوت واحدة من النساء الثلاث:

- ولد.. ولد.

الآن الحركة في الحجرة تهدأ. المرأتان الزائرتان تُخليان الحجرة، تبقـى أم سـميرة وحدها مـع الوالدة. الآن هنـاك براح لنـرى ما يدور. الوالـدة منهكـة، متعرقـة، الصدر يعلـو ويهبط بتلاحق سـريع، فتحت عينيهـا بالـكاد، تتأمل أم سـميرة وهي تمسـح عـن بدن الوليد سـوائل البطن. ابتسـمت وهي تشـاهد حركته الدقيقة وتسـمع صراخه الرفيع. فرحـت، تعـرف أنه لا يجب عليهـا أن تفرح. مدت يديها، كاسـرة كل الحدود، غير عابئة بالمحرمات، قالت للمرأة:

- هاتيه.

أم سـميرة اندهشت. بشكلٍ ما، خافت. الموقف غير مألوف. ليس فقـط لأنـه محرم، وإنمـا لأنه لم يحـدث من قبـل. هو ليـس من تلك المحرمـات التـي يمكـن للمرء رمـي تحريمها تحت قدميـه في لحظة شيطان، هو من تلك المحرمات التي لا يجرؤ أحد حتى على التفكير فيها، ولا حتى إبليس.

- لماذا؟

- أريد أن أرضعه.

أم سـميرة لن ترد الآن، يجب أن تأخذ الوقت الـذي تحتاج لتجد جوابًا استثنائيًا، لوضع استثنائي. يجب أن تمرر الكلمات على عقلها، يجب أن تدع إدراكها ينسـاب ببـطء، ليصل على مهل إلى مرحلة يقين من أنها بالفعل سمعت ما سمعته منذ لحظات. بعد فترة ستقول:

- اخزِ الشيطان يا حبيبتي.

والوالدة ستصرخ:

- قلت لكِ.. هاتيه.

هنا ستدرك أم سـميرة أنها تواجه ما لا قِبَل لها به. ستخرج مسرعة إلى حيث المرأتان تستريحان..

- أدركاني.. مريم تريد أن ترضع الولد!

المرأتان ستقومان معها إلى الحجرة. هنا قد تتعذر الرؤية من جديد بالنسبة لكم. قد يبلغكـم الصوت واضحًا، وأنا سـأصف لكم ما دار. إحدى النسوة، ربما هي صابرين، قالت:

- اعقلي يا مريم.. اعقلي يا أختي.

- هو ابني.. وأنا أريد ابني.

امرأة أخرى قالت:

- لا تكفري.. هو ابننا كلنا.. ولد مقدس!

الوالـدة علـى وجهها شراسـة، محظوظـون أنتم لأنكم لـم تروها، صرخت:

- يسهل عليكِ قولها.. فأنتِ عندكِ الولد.. كلكن عندكن الولد. أنا مَن ستُحرم من الابن الذي طال انتظاره.

صوت، ربما بإمكانكم تمييزه، هو صوت أم سميرة، يقول:

- ليس كلامنا.. ولا أمرنا.. إنها أوامر الشيخ.

لما قالتها انحنت تأخذ الوليد في لفائفه. ناولته لصابرين، وقالت:

- خذيه حالّاً إلى لبيب.

ضمَّت صابرين الطفل الباكي إلى صدرها، وطارت به تحت المطر. مريم صرخت. لولا ضعف البدن لأكلت رقابهن. ثبتنها في الفراش بأقصى عزمهن..

- خطأ يا أختي.. ما تفعلينه خطأ.

انتفاضة مريم لم يهزمها إلا الإغماء. المرأتان حمدتا الله، وانهار جسداهما المنهكان على أطراف الفراش. عندما أفاقت مريم كانت أهدأ. انتظرت عودة صابرين، فتوكأت عليها عائدة إلى بيتها. لم تطالبهن بالوليد مرة أخرى، فقد كانت تعلم ما عليها فعله. مشاعر مريم سرقت عقلها، فلم تتبع ما قيل لها عن خطأ أفكارها. فما فكرت فيه مريم، وما شعرت به مريم، وما ستفعله مريم، ستثبت الأيام لها خطأه، حين لن يسعفها أي ندم.

بعد يومين ذهبت مريم إلى لبيب ليلًا. ماكثًا يحرس البيت القدسي كان كما كل ليلة. وضعت في يده القطعة الحريرية دون أن تنطق.

فتحهـا دون أن ينطق فوجد فيها سـوارًا ذهبيًا. قطعة هي لم تكن تحبها من هدايا زوجها الراحل. لبيب طالع وجهها بتساؤل، فقالت مريم:

- دلني على ابني. الوليد الذي أتاك منذ ليلتين.

ابتسـم لبيب، ودون أن ينطق مد يده إلـى فرجها. انتفضت مبتعدة، وقالت:

- ليس الآن يا وجه الخنزير.. ستحصل على ما تريد إن طاوعتني.. الآن أنا نفساء.

هز رأسـه ونهـض، دفع الباب المتهالك. دخلـت للمرة الأولى في حياتهـا إلى الحرم المقدس، تعرف أنهـا خطيئة، ولكن خطيئة تُرتكب لأجل الابن، هي خطيئة قد يغفرها الله. رغم الظلام واتسـاع المكان، العيـون الصغيـرة المراقبة لمعت فـي عيني مريم، خافـت منهم. ربَّت لبيـب كتفها لكيلا تخاف. تقدمها وهو يزيـح الأطفال بعيدًا، إلى ركن فيـه طفلة يمكن تقديـر عمرها ما بين الثامنة والعاشـرة، تحتضن وليدًا وتلقمـه حلمة كاوتش موصولة بزجاجة مياة غازية، يمتص الوليد منها السـائل الأبيض النقي. بشـيء من خشـونة مد لبيب يده منتزعًا الوليد الـذي صرخ مع انسـكاب بعـض اللبن من فمه لم يجـد وقتًا لابتلاعه. مـدت مريم يدها تخطف الوليـد، وبغير إدراك للأفعال، تربعت بجوار الطفلة على الأرض القذرة تدفع حلمة نهدها في فم الولد، فلما التقمها وبدأ يرشفها ضحكت. الطفلة ضحكت لضحكتها، سألتها:

- أنتِ أمه؟

أعجبت مريم بوقع الكلمة، هزت رأسها، وعلى وجهها الضحكة تتسع. سألتها البنت:

- ما اسمه؟

احتارت مريم أمام مسألة ما فكرت فيها أبدًا. ما تدركه الآن أنها طالما تمنت طفلًا ذكرًا تسميه «صخر»، كاسم بطل القرية، فهل يحل لها أن تسميه أصلًا؟ لقد تورطت بالفعل في المحرمات، فلماذا تتوقف الآن؟ مريم قالت بسرعة لدرء الحيرة:

- اسمه صخر.

قالت البنت:

- اسم جميل.

ثم أراحت رأسها على فخذ مريم وراحت في النوم. لبيب ظل يتأمل الحدث بعينين شغوفتين بالنهد الظاهر. يهش عنها الأطفال الذين يحاولون الاقتراب مترددين حذرين. نام الوليد في حضنها، قبّلته وقامت تحمله. صدها لبيب:

- حرام.. الأبناء المقدسون لا يدخلون بيوتنا.. ولا يغادرون الفابريكة ليلًا.

مريم أدركت حين سمعت صوته الأجش المنفر لماذا لا ينطق كثيرًا. ربّتت جيب جلبابه حيث يسكن سوارها..

- لقد أعطيتك الثمن.

ابتسم لبيب وقال:

- ثمن زيارته هنا.. أما ثمن دخوله بيتك فلم آخذه بعد.

لبيب أبرّ بوعده، فقد كانت مريم الجميلة ثمنًا يسيل له اللعاب. بعد انقضاء الأربعين ليلة حمل صخر إلى أمه في ليل يخفيه عن العيون. كانت تنتظره عند باب الدار الخارجي، خشية أن يشعر بقدومه شقيق زوجها الراحل، أو سلفتها صابرين الساكنين في الشقة أسفل شقتها. لم تخشَ رؤيتهما لرجل يدخل عندها في تلك الساعة فهي من "الشائعات". في قريتنا، "الشائعة" اسم نُطلقه على كل مَن مات زوجها، أو غاب لغير الطلاق. خوف مريم كان من اكتشاف الوليد. لبيب ضاجع مريم مرتين، ثم ترك الولد لديها ورحل. عاش الوليد مع أمه يومين؛ جاهدت لتكتم صوت صراخه عن الجارات الفضوليات، وعن صابرين تحديدًا. صابرين من البداية تعرف أن مريم عنيدة، مريم مثابرة، مريم شيطانة لا تعدم الحيلة. صابرين لم تنخدع باستسلام مريم، ظلت تراقبها في الخفاء متوقعة أن تواصل ارتكاب الخطايا حتى تهلكهم جميعًا، حتى اكتشفت في النهاية وجود الرضيع. عنّفت مريم، فأقسمت أنها ستعيده بعد أيام. صابرين لم تبالِ بوعد مريم؛ حملت الوليد إلى لبيب، وهددته بفضحه عند العمدة إن هو كرر الأمر. كانت تحاول جهدها درء خطرٍ محققٍ، ولكنها لم تعرف أن عناد مريم سيواجه جهدها بتهديد أعظم خطرًا.

مريـم اكتفت بزيارات ليلية للبيت القدسـي. تُرضع صخر وتلاعبه حتى قرب الفجر. مرة تلو الأخرى تطور الأمر. مريم كانت تأخذ معها الأكل والحلويات إلى باقي الأطفال المقدسـين. كانت تدفعهم لحب صخـر وحسـن رعايته. كانـت تحكي لهـم مغامرات "صخـر" الطفل الشجاع الذي حارب أشباح القصر وأنقذ القرية من بطشهم. الحكايات التقليديـة المملة كانت ممتعـة لأطفال ومراهقين لـم يمتلكوا يومًا أمًا أو جـدة تقص عليهم القصص؛ فتعلق بهـا الأطفال. مريم صارت إلى اليوم أسـطورة الأبناء المقدسـين، تجربة وحيـدة وعارضة مع الأمومة حفظوهـا، وتناقلوهـا، وزادوا على تفاصيلها؛ لتصبـح مريم مع الأيام مـلاكًا نزل من السـماء بالليل، مـلاكًا له مئة ثدي، مـلاكًا ينزل فيُرضع الأبناء المقدسين جميعهم في ذات اللحظة، ثم يصعد إلى سمائه.

مريـم الحقيقيـة تاهت عنهـم كينونتها مع مـر الأعـوام. مريم التي فكرت أن تفعل أي شيء لتحتفظ بوليدها، حتى وإن ضاجعت العمدة الشاب الذي تنطق عيناه بالاشتهاء، حتى وإن ضاجعت الشيخ النوراني في خلوته، ليمنحها الرخصة. مريم الجميلة الشـهية طرق بابها طالب زواج. كانـت معجـزة تحدثـت عنهـا القريـة طويـلًا، فلـم يحدث من قبل أن تقدم أحدهم لخطبة "شـائعة". فالشـائعات يبقين شـائعات إلى الممات. فما للعشـق المراوغ يدفع "حكيـم" لارتكاب حماقة كتلك؟ حكيـم يصغر مريم بعـام. حكيم يحب مريم في صمت منذ طفولتهما؛ شـهدها تكبر، شهدها تتزوج، شهد عينيها تنكسـران مع مرور الشهور

والأعوام بلا انتفاخ في البطن، شـهدها تترمل في أوج شـبابها، فتصير من الشائعات. صامتًا ظل؛ والآن أراد أن ينطق أخيرًا. ذهب إلى العمدة طالبًا الإذن بتلك الزيجة. الحدث الاسـتثنائي كان ينبغي له ما هو أكبر مـن إذن العمدة. العمدة ذهب إلى الشـيخ يستشـيره. حكيم حمَّله إلى الشـيخ هدية ثمينة من طرح مناحله، التي بدأ يـروج إنتاجها لينقله إلى مصاف الأعيان. العمدة ذكره ضاحكًا أن الشـيخ في عليائه لا يأكل أو يشرب. فقال حكيم في تلميح بيِّن:

- الهدية لصاحب نصيبها.

العمدة كان يتمنى أن يرفض، فهو لم يقطف بعد من ياسـمين مريم كما اشتهى. هو لم يكن بحاجة لرشوة من العسـل حتى وإن أكد حكيم أنـه من نـوع يُعين علـى اكتمـال الفحولة، فعلاقـة المنفعـة التي تربط العمـدة بحكيم قائمة بالفعل. حكيم يدفع سـنويًّا للعمـدة إيجارًا غاليًا مقابـل اسـتغلال إحـدى حدائق العمـدة لإقامـة مناحله. ربمـا دوران مصالـح العمـل هو ما دفـع العمـدة للموافقة، ليخرج من بيت الشـيخ معلنًـا للجمـع الفضولي، للنـاس الجائعين لنهاية الحكاية، أن الشـيخ قـال: "لا تثريب". لينطلق التكبير والزغاريد. قاطع حكيم أهله وتزوج مـن الأرملة الصغيرة. لتصبح أول شـائعة في تاريخ القرية ترتد مجددًا إلى مصاف السيدات.

مريـم لم تصـارح حكيم بحقيقة ابنها البالـغ عامين. كف لبيب عن إحضاره إلى بيتها، وكفَّت هي عن الزيارات اليومية. الزيارات أصبحت

تخضع للتساهيل، حتى توقفت لما جاءت مريم البشارة بولد جديد. عزمت إن جاء ولد أن تسميه "صخر"، فيكون هو الصخر المنشود. أتذكرون الطفلة الصغيرة التي كانت تُرضع صخر في زيارة مريم الأولى؟ تلك الطفلة التي نامت على فخذ مريم هي أكثر مَن تشرَّب بحنانها وروحها الحرة العنيدة. هي أكثر من افتقد زياراتها، هي أكثر مَن افتقد حلواها، وأكثر مَن افتقد حكاياتها. البنت تحججت ببكاء صخر في الليالي مناديًا أمه، وخرجت لترى مريم. طرقت باب البيت الخارجي. لن تدخل، تعرف أن الدخول مُحرَّم عليها. تمنت فقط أن تفتح لها مريم الباب، لكن مَن فتحته كانت صابرين. لم تعرف البنت ماذا تقول؛ إن سألت عن مريم، ستواجه استجوابًا عن علاقتها بها، استجوابًا لن تقدر على مجاراته. قالت كما تعودت وأترابها أن يقولوا على الأبواب كما علمهم لبيب:

- الأولاد المقدسون جائعون.

غابت صابرين وهي تستغفر الله، وعادت بكيس حلوى، أعطته للبنت وقالت:

- حلوى خالتك مريم.. أنجبت صخر.. ادعي له بالحفظ من العين.. واجعلي باقي الأبناء المقدسين يدعون له.

عادت البنت إلى البيت القدسي، حزينة ربما، غاضبة بالتأكيد. في الليل صفعت صخر عندما نادى "ماما". أنهكه الصراخ حتى نام في

حضن البنت. يومها البنت قررت أن مريم ماتت، مريم ماتت لأجل أن تحيا حكاية الملاك ذي المئة ثدي. مريم لم تعرف - وربما حتى لن تعرف يقينًا حتى يوم مماتها - أن ما زرعته أفعالها في نفوس الأطفال المقدسين لم يحمل لقريتنا سوى الهلاك المحقق.

***

مناطق أخرى لم تزل في جعبتي تصلح كبدايات لحكايتنا. فلماذا لا أبدأها من أولها عوضًا عن الحيرة؟ وأولها مع شاب فرنسي اسمه رينار، منصور رينار. دعونا لا نعتمد تلك البداية التقليدية عن الغريب الذي حلَّ على مكان صغير مثل قريتنا، فأثر فيه وتأثر به. كم قرأنا تلك الحكاية في الروايات؟ كم شاهدناها في الأفلام؟ تلك الحكايات المكررة تغفل دائمًا حقيقة بديهية، فهذا الغريب الذي حلَّ على المكان، سبق وأن غادر مكانًا. لماذا نحكي دائمًا عن تأثيره في المكان الذي حل عليه، ولا نتحدث عن أثر مغادرته لمكانه السابق؟ دعونا لا نبدأ حكايتنا إذن باحتفالية قريتنا بوصول منصور. دعونا نبدأها ببكائية وطنه لمغادرته. هذا إن كان بكاه أصلًا.

انسوا إذن كل ما سمعتموه. امحوه تمامًا. أنا لم أحكِ شيئًا بعد. اصغوا الآن، فالحكاية على وشك أن تبدأ.

الفابريكة

كان يا مكان

واقفًا في وجه الساعة يطرح سؤال الهوية؛ مَن أكون؟ العقارب تجري على غير إرادته نحو العام الرابع والثلاثين. تدق اثنتي عشرة دقة. يرفع كأسه؛ نخب أربعة وثلاثين عامًا مجيدة بخوائها.

بانتهاء الكأس ينتهي احتفال منصور بعيد ميلاده. وضع الكأس في الحوض بجوار كؤوس وأطباق مكومة كمشاريع غسيل مؤجلة منذ أزمان طال أمدها، ودخل لينام. أفسح لجسده مكانًا على الفراش، بين كتبه ومجلاته العلمية، وتمدَّد. وخزه كائن معدني في جانبه. مد اليد يستخرجه من بين تموجات الملاءة؛ كان هاتفه. تذكر المكالمة المحبطة التي أجراها منذ قليل. ألقاه فوق كومة الملابس التي خلعها عن جسده للتو على الأرض. الهواء المنعش يعبر النافذة المفتوحة على ليلة صيف جبلية. وحدها لحظة انتعاش كتلك، وحدها دفقة كتلك من هواء لم يتعرض بعد لانتهاكات البشر، يجد فيها منصور إجابة لسؤال: ماذا أفعل هنا؟

النوم يشاكسه. لديه يوم طويل غدًا من الأبحاث في الفرن الشمسي. عليه أن يرتاح. يكفيه - عذابًا للجسد - سهره حتى منتصف

الليل. ولكن النوم عنيد كرأس آنيت ابنة مسيو بلان الجزار. ينهض إلى النافذة. يملأ صدره بالهواء. يتأمل برج كنيسة سان مارتين الأثري المنتصب في الظلام غير بعيد عنه. الشوارع خالية والقرية هادئة. أهلها ينامون مبكرًا في ليالي منتصف الأسبوع. فندق البومة، الفندق الصغير الشعبي، لا يصدر عن جسده الرابض في الظلام في زاوية شارع الحرية، على مرمى بصره، أي وهج إضاءة. يعرف أن مطعم الفندق أغلق أبوابه الآن، وجمع الطاولات المتناثرة على الطوار أمام بابه. على واحدة من تلك الطاولات تناول عشاءه الليلة مع آنيت.

منصور كان الليلة صامتًا، وآنيت كانت كعادتها ثرثارة. كعادتها كانت جميلة، دقيقة الملامح كأميرات ديزني، كعادتها كانت تنثر حولها ذلك الألق بغير جهد منها أو تكلف. مؤمن هو ببراءتها، وطهر الطفولة في قلبها، وإن تمنى كثيرًا أن يخيب ظنه؛ ربما إن اكتشف أنها مدعية، أنها محض فتاة وصولية خبيثة النوايا، لبات أكثر سعادة واتساقًا مع ذاته. الليلة جلس يستمع إليها، بين إنصات وشرود، بين ضحكات ووجوم، حسبما تقتضيه كلماتها، أو اتباعًا لتعبيرات وجهها. هل يخبرها أن اليوم عيد ميلاده؟ منصور قضى أغلب الوقت الليلة شاردًا وراء جواب لهذا السؤال. الغريب أنه - وبعد أن غادر آنيت أمام منزلها بأكثر من ساعتين - لم يجد الإجابة. هو لم يخبرها بالطبع، ليس لأن هكذا كان قراره، وإنما لأنه انشغل بالتساؤل نفسه، حتى انتهى لقاؤهما وأضاع الفرصة.

ربما منصور لا يستطيع أن يصف بكلمات بسيطة علاقته بآنيت. فتاة جميلة ورقيقة وهذا لا شك فيه. تحبه؟ منصور لم يشك لحظة في تلك الحقيقة، حتى وإن بدت له غريبة. في العاصمة الصاخبة حيث نشأ وعاش حياته، ليس من المعتاد أن تتشكل قصص الحب في أيام. الحب من النظرة الأولى هو في أغلب الظن أسطورة شرقية، لا علم لهم بها في بلاد النور، حيث انجذاب الرجل لجسد المرأة، أو العكس، غير مجبر على التخفي خجلًا في شكل علاقة "محترمة"، كالحب مثلًا. منصور لذلك كان يمكن أن ينفر من فتاة تحدثه عن إعجابها به بعد يومين فقط من تعارفهما. كان يمكن أن ينسج الخيال حكاية عن البنت الريفية، ابنة الجزار المتواضع، التي وجدت في الشاب القادم من باريس، وسيلة مواصلات إلى عالم أكثر براحًا من العالم الضيق، الرتيب، الخانق للأحلام، كعالم تلك القرية النائمة في أحضان جبال البرانس قرب الحدود مع إسبانيا. ولكن منصور كان أكثر نقاءً من أن يفكر بتلك الطريقة. هو يؤمن أن الفتاة - التي تصغره باثنتي عشرة سنة - صادقة. مشاعرها لا تبدو له مصطنعة، والأهم أن مشاعره لا تبدو له جامدة. هناك شيء ما يتحرك متمددًا نحوها، شيء في قلبه تحديدًا، رغم أنه ينكره في ليالي الوحدة مع النفس. أمامها هو يدعي التجاوب، يحدثها عن مبادلة الإعجاب بمثله، يمكن أن ينجرف معها في الحديث عن أحلامها المرسومة باقترانهما غالبًا. يمكن أن يداعب خيالاتها، يؤججها، يشعلها حد الاحتراق، بأحلام الحياة في مدينة النور؛ وهي تحلق في أعقاب كلماته. منصور بدأ الأمر كلعبة؛ عندما

تقابلا للمرة الأولى في نفس المكان القريب من بيتيهما "مطعم البومة" لـم يكن الأمر في نظره أكثر من تسـلية. الوقت لا يمـر في هذه القرية، والبنـت الجميلة شـقراء الجدائل، التي رآها مرتيـن مصادفة عند مدام كوليتا صاحبة البيت الذي يسكنه وهي توصل لها احتياجات الساكنين من اللحوم. البنت التي سـلطت على قسـماته عينين في زرقة السـماء واتساعها، كانت تصلح كحجر يموج الماء الراكد حوله؛ فلماذا يهرب من الفرصة؟! أول كلماته لها كانت دعوة على العشـاء. وأول كلماتها له كانت بالقبول المزدان ببسمة طفلة نزقة. الأزمة التي يعيشها منصور الآن تتمثـل في فقدان قلبه لليقين الصادق بزيف الحالة. الآن هو يبذل جهدًا ليقنع نفسـه بأن آنيت ليسـت أكثر من لعبة لقضـاء الوقت؛ فقلبه بات يفاجئه بدقات زائدة حين اللقاء، حين رنين الهاتف باسـمها. مرة، دعا الله أن تكون الدقات الزائدة دلالة لمرض وليست لما يخشاه!

آنيـت ذكية، تعرف أن مشـاعر منصور تجاههـا - إن وجدت حقًا- فهي على حرف. آنيت عنيدة، تعرف أن عليها بذل الجهد لأسر حبيبها، تعرف أن تحاشيه بلوغ ذروة العلاقة معها يحمل دواعي القلق. ولكنها لـن تيأس. هي جميلـة، وتعرف ذلك. شـهية، وتعرف ذلـك. وتعرف أنـه يعـرف ذلك! يـوم تبـادلا القبـلات، يوم تحسـس جسـدها الفتي المنحوت تحت انعكاس القمر على المرايا الضخمة المصفوفة بطول المنحـدر المـؤدي إلـى الفرن الشمسـي؛ كانـت تحس بشـغفه حقيقة لا تمثيلًا، سخونة جسده حقيقية، تهدج صوته حقيقي. لم تقنعها حجج

الإحجام التي صاغها؛ خوفه من التعجل، الاضطراب النفسي الذي لم يزل يعانيه من تلك النقلة الطارئة في حياته. أي تعجل وقد مضى قرابة الشهر على عشائهما الأول؟! وأي اضطراب وقد مضى قرابة الثلاثة أشهر على وجوده في القرية؟! هي لا تؤمن، ولن تصدق أن ابن المدينة الماجنة خجولٌ، أو يخشى أباها وتقاليده الجنوبية الصارمة. لم تخبره، ولن تخبره، أن أمها في صفها، أن أمها تشجعها على المضي قدمًا في العلاقة، عساها تظفر في النهاية بباريس ذاتها. آنيت تعرف أن سبب الصد ببساطة أن حبها لم يتمكن بعد من قلبه بالدرجة التي يدعيها. ربما لأن العالِم القادم من المدينة، لن يقبل بسهولة ابنة جزار ريفية، بلا عمل حقيقي، وبلا تعليم يذكر. ربما بسبب اختلاف الأديان؛ هي لم تعرف أن منصور مسلم إلا عندما أخبرها بشكل عارض في أحد لقاءاتهما. ولكنه احتمال لم يقوَ على الرسوخ في عقلها كسبب قائم، فمنصور لم يَبدُ لها من النوع الذي يمكن أن يدع الدين يفسد حياته. لكنها تعلم جيدًا أنها مستعدة للقفز فوق أسباب الصد أيًّا كانت. مستعدة للوصول إلى نهاية الكون لتفوز به. مستعدة حتى أن تتحول إلى الإسلام. مستعدة لمشاركته هموم عمله؛ رغم أنها كلما طلبت منه أن يحدثها عن عمله لا تفهم شيئًا، سوى أنه يقوم بأبحاث شديدة الأهمية والتعقيد في الفرن الشمسي. آنيت عنيدة ومنصور يعرف. آنيت لن تستسلم ومنصور يعرف. فإلى متى يتوقع أن يستمر مسلسل منتصف العصا الذي يلعبه؟ إما أن يسير معها إلى منتهى الوصال، أو يبعدها عنه.

أزمة منصور الحقيقية تكمن في منطقة بعيدة بأعماقه، في منطقة ما بين العقل والهوى، ما بين حاضره كشاب باريسي، يملك العلم والتفتُّح على الحياة، بفرص اللهو التي تمنحها له المدينة الصاخبة؛ وماضٍ مختفٍ في سير أجداده. هناك حاجز غير مفهوم يفصله عن الوطن. كثيرًا ما يشعر أن هذه ليست أرضه، أن هذه ليست حياته. أسئلة الهوية لم تفارقه منذ الطفولة. منذ إصرار أبيه على تعليمه اللغة العربية، لا لشيء سوى لأنها إرث عائلي، ورثها الآباء عن الأجداد. هو لم يفهم أبدًا ذلك اللغز، إذا كان فرنسيًّا ابن فرنسي ابن فرنسي، فلماذا الهوس بثقافة وبدين لا ينتمي إليه حقيقة إلا بالجد الرابع حسونة رينار، الذي تذكره شجرة العائلة، كطفل مصري تبناه جدهم الأكبر سيمون رينار. حسونة الذي عاش وحيدًا في بلد غريب عنه، فكان الطبيعي أن يلتصق بأصحاب لغته وديانته. كان الطبيعي أن يحيا وسط المهاجرين العرب، وهم لم يكونوا كثرًا وقتها كما هم الآن. كان الطبيعي أن يتزوج منهم. ولكن من غير الطبيعي أن يلتزم أبناؤه بالحفاظ على ذات الثقافة وذات الدين وكأنما هما قدر لا مهرب منه. ابن من ظهر ابن تزوجوا من فتيات من أصول عربية. والد منصور، الحاج إبراهيم رينار (هكذا كان يحب أن يُنادى في أواخر أيامه)، هو من خالف تقاليد العائلة وتزوج فرنسية شقراء، ولكنه لم يخالف تقاليدهم في تنشئة ابنه الوحيد. ملامح منصور شرقية كملامح أبيه، ولكن هذه مشيئة الله ليس لأبيه فيها اختيار. لوجهه سمرة خفيفة، تضيئها عين صافية الزرقة، كنتاج للتزاوج بالجينات الفرنسية الشقراء. واجب على منصور الآن أن

يحمد الله كلما رأى صورة لجده الأكبر حسونة، بسماره المحروق، ونحافته، ووجهه الممصوص. ربما إن أراد منصور أن يحاسب والده على خطيئة ارتكبها في حقه، فليحاسبه على الاسم العربي الذي سماه به، رغم معارضة أمه إلى حد هجر البيت والتلويح بالطلاق. لكن هذه لم تكن تحديدًا أزمته. لا اللون، ولا الاسم، ولا الدين، وإنما إحساسه منذ الطفولة بأنه كمن يتم إعداده لمهمة كبرى. حتى انتابه في صغره يقين لم يزل يصاحبه بأنه يمتلك قدر الأنبياء؛ في يوم ما سيحمل الرسالة، وسيفهم لماذا الاسم العربي؟ ولماذا اللغة العربية؟ سيفهم الحكمة المخفية في هوس أبيه، والذي مات ومنصور لم يزل على عتبة المراهقة، دونما أن يخبره بجواب يشفي حيرته. والليلة وهو يحتفل بعيد ميلاده، وبعد كل تلك الأعوام، يكتشف أن القدر المنتظر لم يتحقق. وأوان الرسالة المنتظرة لم يحن بعد. فقط ازداد انفصالًا، وازداد سؤال الهوية إلحاحًا. أضواء باريس باتت تؤلم عينيه. روائح باريس باتت تقززه. نساء باريس عجزن عن ملء الهوة في قلبه. الوحدة باتت كقيد من نار يشده إلى عالمه الداخلي المسكون بالحيرة، منذ وفاة والده أولًا، ثم اشتداد المرض على أمه. عندما سمع في المركز العلمي حيث يعمل عن برنامج تطوير معادن للفضاء تحتمل درجات حرارة فائقة، كنواة لتحقيق حلم اقتراب الإنسان من الشمس، مشروع "إيكاروس" كما أطلقوا عليه. الأمر كان قادرًا على إسالة لعاب مهندس المعادن الشاب. ليس فقط لأهمية البرنامج. ليس لطموحاته الساعية إلى كتابة التاريخ فحسب، وإنما لمنحه فرصة الخروج من

باريس، الانتقال لمدة قد تبلغ أعوامًا إلى قرية جبلية في الجنوب، ربما كانـت هـي الفرصة التي عاش منصور من أجلهـا. ربما هناك في ثلوج جبال البرانس الفرصة لإطفاء وهج التساؤلات.

"فونت - روميو - أوديلو - فيا" هكذا يكتب اسم القرية. الاسم طويـل ومجـزأ لكـون القريـة تتكون مـن اتحاد ثـلاث قـرى صغيرة، "فونت روميو" و"أوديلو" و"فيا". في أوديلو تحديدًا يسكن منصور. علـى حـدود القرية ينتصـب فرن أوديلو الشمسـي، أكبر فرن شمسـي في العالم. بناء على شـكل مرآة مقعرة ضخمة، تعكس أشـعة الشمس وتركزها على الفرن الذي يخزن الحرارة، مسهلًا الوصول إلى درجات حرارة عالية تصل إلى 3800 درجة مئوية، وهي البيئة المطلوبة لإجراء الأبحـاث والتجـارب اللازمة للمشـروع. منصور لـم يتخيل أن شـغفه بهـواء القرية النقـي، ومناظر الجبال المخضـرة، والبيوت المتناثرة بلا تكدس أو تزاحم، في شوارع متدرجة فوق بعضها، لم يتخيل أن شغفه هذا سيتهي بعد أسبوع بمحاولة تصور ما سيحدث إن كان بمقدوره إعادة توجيه مرآة الفرن الشمسي الضخمة نحو القرية، لتحرق البيوت والناس، كما كان يحرق بيوت النمل في طفولته بالعدسة المكبرة!

منصور تمشّى قليلًا مع آنيت بعد العشـاء. آنيت تعلّقت في ذراعه كمـا اعتـادت. تبادلا قبلة تحت جـدار مظلم. ثم تركها أمـام بيتها عند زاوية شارع الخليج، وواصل سيره إلى شارع الجمهورية حيث يسكن. كوليتا العجوز كانت تنشـر الملاءات المغسـولة علـى الحبال الممتدة

في فناء البيت الخلفي. دائمًا كوليتا تفعل شيئًا ما؛ لا يدري متى تنام. أشغال كثيرة تقضيها للساكنين. تقدم لهم خدمة فندقية متواضعة، ولكنها أكثر من المطلوب من أرملة وحيدة تقارب السبعين. منصور ألقى عليها التحية في طريقه. كوليتا عنفته كالمعتاد. طالبته محتدة بترك مفتاح شقته لها في الصباح لكي تتمكن من تنظيف "الحظيرة" التي يحيا بها. هي لم تدخل شقته منذ أن استأجرها، فكيف خمنت أنه حولها إلى حظيرة؟! ربما لأنه يرفض السماح لها بتنظيف الشقة، وغسل ملابسه، وملاءات السرير؟ الأمر فقط أنه لا يريد أن يتعبها. وعدها بأن يفعل، وصعد إلى شقته في الطابق الثالث والأخير. ندم لأنه لم يخبر حتى كوليتا الطيبة بأن اليوم عيد ميلاده. منصور اشتاق لحظتها إلى مَن يتمنى له عامًا سعيدًا. داهمته خفقات القلب الزائدة وهو يفكر في آنيت؛ ليته أخبرها، ليته حملها معه إلى هنا. تخيلها في ضوء الصباح البكر واقفة أمام الحوض، تغسل الأطباق التي أهملها منذ أسابيع. ترتدي واحدًا من قمصانه، بلا شيء تحته سوى الساقين البيضاوين اللذين طالما أثارا خيالاته، والخدين اللذين لا يزالان متوردين منذ ليلة العشق. منصور كان كمَن يغتال روحه بالتدريج، يرفض أن يربط نفسه بهذه الأرض، ولا حتى بقصة حب، مهما كانت المغريات. لم يزل يجري وراء القدر البعيد. إما أن يتحقق ظنه، ويأتيه أوان حمل الرسالة التي ولد لحملها، أو لتبقى الدوامات تراوغه؛ فلا فارق. منصور لم يُعطِ نفسه فرصة لتدبُّر الفعل قبل أن يُجري اتصالًا بمركز رعاية مرضى ألزهايمر، حيث تقيم أمه منذ عامين. يعرف أنه

سيبذل جهدًا ليُذكِّرها بنفسه، ولكن سيهون عليه الجهد إن سمع أمنية بعام سعيدٍ من صوتها الطيب قبل أن ينام. الرد أتاه من صوت بارد لموظفة نصف نائمة. قالت:

- مسيو رينار.. أتدري كم الساعة الآن؟! نزلاؤنا الآن نيام إن لم تكن تُدرك هذا.

أربكته حدتها. قال:

- آسف.. إنه فقط يوم ميلادي.

لا يعرف لماذا انتظر منها شيئًا؛ أي شيء؛ كفرصة أخيرة ربما. ولكنها قالت ببرود:

- جميل.. أنا سعيدة من أجلك.. سلام.

***

في الصباح التالي، وبمجرد وصوله لمقر عمله، عثر منصور على ظرف محشور في الباب المغلق لخزانة ملابسه وأدواته. تلك اللحظة، أجزاء الثانية، وأطراف أصابعه تقبض على الظرف وتسحبه للخارج. لحظة تستحق أن يتم إيقافها وتأملها. بمجرد أن وضعت أصابع منصور بصماتها على هذا الظرف، بمجرد أن جرت عيناه على المكتوب لتقرأه، تغيرت حياة منصور إلى الأبد. طوال حياته ينتظر لحظة حمل الرسالة؛ دون أن يُدرك أن تلك اللحظة ستأتيه وهو يحمل رسالة بالمعنى الحرفي للقول!

على ظهر الظرف قرأ بلغة فرنسية مكتوبة بخط دقيق وجميل؛ اسمه وعنوان المركز الوطني للأبحاث العلمية في باريس حيث مقر عمله الأصلي. قلب الظرف في يده، فكان على واجهته كلمات باللغة العربية، فهم منها منصور أنها عنوان لقريةٍ ما في مصر؛ هو في الغالب عنوان الراسل. الظرف مُغلق بختم محفور في قطرات الشمع الأحمر، على شكل عين واسعة محدقة. منصور لم يكن ليتخيل أن في عصرنا هذا، هناك مَن لم يزل يستخدم مثل تلك الأختام. يمكن أن نتخيل إذن كم كان حجم دهشة منصور وفضوله، وهو يقطع طرف الظرف مستخرجًا من أحشائه ورقة مطوية! فضَّ الورقة ليقرأ بصعوبة كلمات مكتوبة بالعربية:

الابن العزيز: منصور

لك في قلوبنا ودٌّ صادقٌ، رغم أننا لم نلتقِ من قبل. هو إرث من الحب والتقدير والتقديس حملناه لك عن جدك الأكبر الخواجة رينار رحمة الله عليه. ولك كذلك بيننا إرث. في قريتنا شيء تركه الخواجة أمانة، وقد حان الوقت لتسليمها. بحثنا طويلًا في أثره، فعلمنا أنك الوريث الوحيد. فلتتفضل بزيارة قريتنا المتواضعة لاستلام ميراثك.

لك ما تستحق من الاحترام والتبجيل

إمضاء:

أهل القرية

بضع كلمـات لـم يتمكن من فهمها، ولكنها لـم تعُقه عن تكوين فهم عام لمضمون الرسـالة. منصور عـاد يتأمل العنـوان المكتوب بالعربية على الظـرف. ما علاقة جده بهـذه القرية؟ منصور لـم يكن يعرف عن جـده الأكبـر الكثيـر؛ ما يتناقلونـه في العائلـة، عن الجد سـيمون رينار تغلُـب عليه الألغاز، وشـطحات الخيـال، كما يعتقد منصور. سيمون كان شابًا جميلًا عندما غادر فرنسا، تاركًا معشوقاته الباكيات يتصارعن على شـرف وداعـه على رصيف الميناء، وركب السـفن الحربية، كفرد من جيش كبير خرج قاصدًا مصر. وكأي شـاب يعشـق المغامرة، كانت دقات قلبه تتزايد مع اقتراب المجهول، فتغمره نشـوة تُنسـيه الخليلات وليالي العشـق في سنا القمر. سيمون الشاب كان أكثر من ذلك الشاب العابـث الـذي قـد تظنـه. كان شـابًا حالمًـا بالمغامرة، حالمًـا بخوض غمار أسـرار العالم، مصر تحديدًا كانـت على قمة قائمة أولوياته. رغم صغـر سـنه درس الرياضيات، وشـيئًا من الكيميـاء. تعلم منـذ طفولته اللغـة الإغريقيـة القديمـة حتى أجادها. سـيمون المراهـق عرف مصر للمـرة الأولى من خرافات تلاها سـكير عجوز فـي حانة قذرة، عن بلد بـه صروح تبلغ السـماء، عن نهـر كبير على ضفافـه عمالقة من الصخر يتوعدون المارين. برغم سـخرية السامعين من تلك الحكايات، إلا أن سـيمون عرف أن وراءها حقيقة سـاكنة. بدأ أولى رحلاته لاسـتكشـاف مصـر، وكانت رحلة على الورق. لـم يترك كتابًا يتحدث عن مصر دون أن يقـرأه، وحتـى كتابات هيرودوت بالإغريقية. أسـره السـر المصري الأعظـم، الهيروغليفيـة، الكتابة التي كانـت تُعد وقتها فـي أوروبا أهم

ألغاز الكون. سيمون وهو يركب البحر إلى مصر كان يشعر أنها رحلة قد تستغرق عمره كله. هو لم يخُض رحلته لأجل الحرب، أو لأحلام توسعية، وما كان الصراع الفرنسي الإنجليزي على البحر الأبيض يعني له أي شيء، إنما رحلته كانت لأجل أن يُدشن مغامرته الخاصة، ولتحقيق حلمه بالسطو على علوم المصريين القدماء، لتحقيق حلمه ببناء مجده على أطلال صروحهم، ولتحقيق حلم صغير آخر – على هامش الحلم الأكبر – بفتيات الليالي العربية. الحظ خدمه بوجود عدد من علماء الحملة على السفينة التي ركبها، من بينهم علماء مصريات بالطبع. سرعان ما عرفوه، وأحبوا شغفه بالعلم واتقاد ذكائه، فعلموه المزيد عن هذه الحضارة اللغز. تسليته الرئيسية على السفينة كانت في تعلُّم اللغة العربية على يد مترجم خاص بعلماء المصريات، اصطحبوه معهم لتسهيل مهمة التفاهم مع السكان المحليين. سيمون نجح في أيام معدودة في تعلُّم الكثير من الكلمات العربية والجُمل الحوارية البسيطة، بالإضافة للكثير من الجمل التي دوَّنها في دفتر خاص بحروف فرنسية، ليسهل عليه نطقها حين الحاجة. اللقاء التاريخي، الذي طالما حلم به مع الحضارة العظيمة، حدث في الصحراء قرب النهر، وهو واقف مع الجنود المبهورين يتأملون هذا الرأس الصخري العظيم البارز فوق الرمال. قائدهم قصير القامة كان يرتجف انفعالًا مثلهم، وإن حاول أن يُظهر قدرًا من الغطرسة واللا مبالاة. سيمون الشاب خرَّ ساجدًا أمام الرأس. لحظتها عرف أن حياته ستتغير إلى الأبد. وحين دوَّت المدافع تأكل من الوجه الصخري، صرخ سيمون، وخرَّ مغشيًا عليه.

منصور يعرف فقط أن جده شارك في حملة بونابارت لغزو مصر، ولكنَّ كثيرًا من التفاصيل غابت عن علمه. هو مثلًا لا يعرف شيئًا عن هوس جده الأكبر بميراث الكهنة الذين حكموا تلك الأراضي البعيدة، ولا عن الحجر الذي عثر عليه الجد مصادفة، وهو يشارك زملاءه ترميم وتنظيف القلعة الصغيرة القائمة على شاطئ رشيد. حجر يحوي ثلاثة نصوص بثلاث لغات، آخرها كانت اللغة الإغريقية التي يجيدها، وأولها كانت الهيروغليفية. سيمون أدرك أهمية هذا الحجر بمجرد أن وقعت عليه عيناه. إن صحَّ تخمينه بأن النصوص الثلاثة هي تدوينات بثلاث لغات لنفس النص، فهذا يعني أنه أمام مفتاح هام لفك لغز الهيروغليفية. المغامر والمستكشف تحرَّك لحظتها في أعماق سيمون، تمنَّى لو استطاع إخفاء الحجر عن العيون، ليكون له وحده. ولكن الوقت لم يُسعفه. الضباط أخذوا الحجر وسلموه لعلماء البعثة. ضابطه المباشر فرانسوا بوشار منحه برتقالة إضافية على العشاء كمكافأة، في حين استولى هو على الاكتشاف لينسب إليه كواحدٍ من أهم الاكتشافات في تاريخ الإنسانية! منصور قرأ بالطبع عن شامبليون، وعن جهده في فك طلاسم الكتابة الهيروغليفية، ولكنه لا يعرف، ولا أحد يعرف، أن سيمون رينار سبق شامبليون بأعوام. سيمون قرأ الهيروغليفية وقت أن كان شامبليون طفلًا يلهو في أزقة فيجاك!

الشغف قاد الجندي الشاب للمكوث لساعات متقطعة مسروقة أمام الحجر ينقل آلاف النقوش إلى أوراقه. علماء الحملة عرفوا

وعرفوا حماسه للعلم، فتركوه يفعل ما يشاء. بعد أيام وجهد لا يُطاق، صار يمتلك نسخة من المنقوش على الحجر. منصور لا يعرف أن جده هرب من الجيش في الصعيد، أثناء مطاردته لمراد بك، المملوك الهارب. سيمون خلع زيه العسكري إلى الأبد، وراح في زي المغامر والمستكشف، يبحث عن مفاتيح فك طلاسم الكتابة. النص الإغريقي سهل عليه قراءته. وعبر تسكعه في أديرة الصعيد وجد تفسيرًا للنص الثاني المكتوب بقبطية قديمة. بعد شهور كانت مقارنات النصوص الثلاثة ببعض قد بدأت تُسفر عن فهم بعض المكتوب بالهيروغليفية. وقبل انقضاء عام كانت حصيلة سيمون رينار من الأبجدية الهيروغليفية تكفيه لقراءة المنقوش على الجدران وفي البرديات. سيمون يعلم أن ما فعله هو إنجاز تحلم به البشرية، ولكنه إنجاز لم يُرد مشاركته مع أحد. كان يشعر وقتها بأنه أقوى رجل في العالم، إنه في قوة إله؛ وهو يطوف الصروح، ويُطالع البرديات المكدسة في الأديرة، وفي مقتنيات أهل الصعيد. لم يترك تدوينة أو مخطوطًا إلا وفك أسرارها. لا يعرف منصور شيئًا عن العلوم التي حصلها جده، ولا عن الأسرار التي كشفها، ولا عن تعداد البرديات التي أحرقها، والنقوش التي طمسها، ليبقى ما تعلمه حكرًا عليه. حتى يومنا هذا لم نزل نتساءل عن أسرار كهنة الفراعنة، ليس لأنهم أهملوا تدوينها كما نعتقد، وإنما لأن سيمون طمس آثار علومهم، حتى لا يبلغ أحد مقدار ما بلغه من قوة وسعة علم.

منصور يعرف أن جده عاد إلى فرنسا بعد أعوام طويلة من عودة الجيش من مصر، وقد اعتُبر مفقودًا. عاد سيمون وقد ازداد سنًّا وحكمة، وتبدلت طبيعته المنطلقة النزقة. يمكن أن نتخيل مقدار السخرية التي فاضت منه، وهو يراقب شغف العالم بإعلان شامبليون عن اكتشافه النظري لطريقة قراءة الهيروغليفية. في صمتٍ ترك سيمون مجد الكشف يذهب إلى سواه، فقد سبق وحصل على مبتغاه، وهو يفوق الشهرة والمجد العلمي بما لا يتخيله بشر. يعرف منصور أن جده عاش أعوامًا منعزلًا في بيته، لم يتزوج، ولم يُعرف عنه حتى أنه أقام علاقة في تلك الفترة. يعرف منصور أن جده كان يمارس نوعًا من العلوم لا يدري كنهه، ولكن الآباء تناقلوا أن الجد كان عالمًا ومخترعًا. الأهم في سيرته أنه اختفى مرة ثانية. أشقاؤه وأبناء عمومته فشلوا في إيجاده لسنوات، حتى مات كل مَن يعرفه، وانقطعت سيرته. الحكاية التي يعرفها منصور تقول إن سيمون رينار عاد إلى فرنسا مرة أخرى في العقد الثاني من القرن العشرين. بمعجزةٍ ما كان لم يزل حيًّا، عمره كما يُفترض قد تجاوز وقتها ثلاثين عامًا بعد المئة! عاد ومعه ابن بالتبني، هو حسونة رينار. بعد عامين توفي سيمون، فلم يحضر جنازته أحد سوى حسونة، وبعض الأصدقاء الجدد من عرب باريس. هكذا نفهم لماذا اعتبر منصور أن الرسالة في يده أقرب لوثيقة تاريخية. بعد قرن من الزمان، تكشف له واقعة كتلك، مساحة من الأعوام المجهولة في سيرة سيمون رينار. الجد الأكبر تواجد في تلك القرية في مصر، بل

وترك فيها كذلك إرثًا، وأجيالًا من أهل القرية لم تشـهده ولكن تُبجله وتُقدسه كما تقول الرسالة.

يمكـن أن نتخيـل كم الحماسـة والشـغف اللذين ولـدا في أعماق منصور. لم يبدل ملابسـه، ولم يُجر الاستعدادات اليومية لبدء العمل. ذهب إلى السـكرتارية يسأل عن الخطاب؛ أبلغته الموظفة الجميلة أن الرسـالة وصلت بالأمـس بعد انصرافـه قادمة من باريـس. وكانت قد وصلت منذ يومين إلى المقر الرئيسـي للمركز، وهم أرسلوها إلى مقر انتدابه هنا في الفرن الشمسي.

منصـور لم يبذل تركيزه المعتاد في العمل. ربما شـخص غيره كان يمكن أن يتجاهل رسالة كتلك، وربما احتاج وقتًا للتفكير في فحواها، أو فيمـا يفترض أن يفعل بها، فالأمر متعلق بسـفر إلـى بلد بعيد، وإلى مكان مجهول، من أجل أمرٍ مجهول. ربما من النادر أن تجد مَن يملك في هذا العالم براحًا ليخوض رحلة كتلك من أجل كلمات من مصدر مجهـول؛ ولكـن منصـور كان مختلفًا. منصـور كان كمَـن ينتظر تلك الرسـالة منذ الميـلاد. منصور الباحـث عن هوية مفقـودة، ربما كانت تلك هي فرصته. منصور الباحث عن الخلاص من حياته الراكدة، ربما كانـت تلك هي مغامرته المنتظرة. بلا ثانية تفكير، قام بتوزيع عمله في البحث على زملائه. أرسل بريدًا إلكترونيًا إلى المركز يطلب فيه إجازة لمدة شـهر، ولم ينتظر الرد، طلب من السـكرتيرة أن تبلغه بالرد هاتفيًا بمجرد وصوله، ثم بدل ملابسـه ورحل. بلا ثانية تفكير، جمع أشـياءه

في حقيبته. لم يفكر في كوليتا ولا في آنيت، ولا في أي ذكريات تربطه بالمكان، فلم يكن مستعدًّا للسماح لاعتبارات عاطفية تافهة بتعطيله وهو على أعتاب الكشف الأعظم. ولكيلا نظلمه، لن نغفل عن ذكر وخز الذنب الذي شعر به وهو على عتبة الرحيل، فعاد ليدون كلمات في ورقة، طواها وكتب عليها من الخارج "إلى مودموزيل آنيت بلان". عندما غادر كانت كوليتا تكنس الدرج. دسَّ في يدها الورقة المطوية والمفتاح وحفنة نقود. قبَّل خدها. قال همسًا:

- تمنَّي لي الحظ السعيد.

ثم غادر شبه راكض، قبل أن تستوعب هي أنه رحل.

منصور عند المساء هبط من القطار في باريس. نور المدينة العظيمة غشَّى عينيه. في لحظة كلحظته تلك، كان يكره المدينة كما لم يفعل من قبل، حتى إنه أغمض عينيه بمجرد أن دسَّ جسده في سيارة الأجرة. أغمض عينيه عن الأضواء والزحام. دخل شقته المغلقة منذ أشهر. لم يُبالِ بفتح النوافذ؛ فقط جمع كل ما يلزمه في رحلة طويلة إلى بلدٍ بعيد. نام في النهاية فوق حقائبه وقد نال منه تعب السفر الطويل بالقطار. في اليوم التالي، أنهى منصور كل إجراءات سفره. عند الليل، كانت في يده تذكرة تحمل تاريخًا يحين بعد يومين. يومان في باريس كانا أكثر من قدرته على الاحتمال، ربما إن استطاع أن يقضيهما في جحر بعيد عن المدينة والناس، ربما إن استطاع أن يعتصم بشقته، ولكن كان أمامه واجب لا بد من أدائه. في نهار اليوم التالي، ذهب

لزيارة أمه. جلس معها لساعة في حديقة المركز، بذل الجهد المعتاد ليُذكِّرها بنفسه. أشرقت سعادةً في النهاية وهمست:

- مسيو.. صغيري.

منصور منذ طفولته وأمه تناديه "مسيو"؛ ليس مبالغة في احترام أم لصغيرها. فقط هي - كما قلنا - لم تكن تحب اسم منصور، واخترعت له اسم التدليل ذاك من خلال التشابه في الهجاء الفرنسي لكلمتي "منصور" و"مسيو". ربما هي أول أم في التاريخ تنادي طفلها بلقب احترام، وهو الأمر الذي كثيرًا ما كان مثار سخرية ونكات الآخرين. ولكن الأم كانت تحب الاسم، ومنصور كان يحبه لأن أمه تحبه. ألقى رأسه على صدرها، مسحت على شعره الناعم، وسألته عن دراسته، وعن أحوال خطيبته. أجابها بأن كل شيء على ما يرام. منصور لم يكن مستعدًا للتخلي عن حميمية تلك اللحظة، لكي يذكرها بأنه تخرج في الجامعة منذ زمن، وأنه لم - وربما لن - يحظَ بخطيبة في أي يوم.

عاد منصور إلى شقته ليحتمي بها طوال يوم كامل، وفي النهار التالي غادر باريس.

الآن وقد غادر منصور وطنه، يمكن أن نتحدث عن الأثر الذي أحدثه رحيله. ربما هي مهمة شاقة، فحتى إن اجتهدنا في البحث، فلن نجد ما يمكن أن يُحكى في هذا الشأن. منصور غادر وطنه وترك أمًّا نسيته بمجرد أن أولاها ظهره. ترك عملًا هامًّا لم يُنهه، ولكن هناك ربما في فرنسا مئات العلماء ومهندسو المعادن القادرين على إنهائه.

كوليتـا الطيبة ربما تذكره بخير أحيانًا؛ ولكنها قضية غير محسـومة في النهاية. كوليتا لم يزل عندها ساكنون آخرون تخدمهم، وتهتم بشئونهم. حتى الشـقة التي غادرها منصور، دون أن يُبلغها إن كان سـيعود أم لا، اسـتأجرها فـي نفس الأسـبوع شـاب من أهـل القرية، ليتخذهـا منزلًا للزوجية. آنيت قد تكون أكثر المتأثرين برحيل منصور. يمكن أن نراها تبكي وهي تقرأ كلماته المدونة في الرسالة:

الجميلة آنيت

إن بقيت في فرنسا لم أكن لأجد أفضل منكِ حبيبة وزوجة.. ولكن فرنسا ليست مكاني.. لذا يجب أن أرحل.. الوداع يا جميلتي..

منصور

آنيـت انهارت ليومين تقريبًا. خدشـت باطن رسـغها مرتين بقطعة زجـاج غير حادة مدعيـة أنها تحـاول الانتحار. وبقيـت ليومين تاليين سـعيدة بالنـدوب التـي تكونـت كتـذكار عاطفي. فـي النهايـة هدأت مشاعرها، ويمكن بسهولة أن نتخيل أنها ستنساه قريبًا، وربما صادفت حبًا جديدًا بأسرع مما نتوقع.

***

منصـور وصـل مطـار القاهـرة فـي ليلـة حـارة. نـزل فـي «فنـدق الأهرامـات الثلاثة» لمدة ليلتين. مدة كانت كافية على حسـب تقدير لزيـارة أهرام الجيزة، فمن غير المعقول - كما يرى - أن يصل القاهرة ثم يغادرها دون رؤية تلك المعجزة الإنسانية. عندما قال لسائق سيارة

الأجـرة بلغـة عربية - كان يظنهـا جيدة ثم تبيـن الآن علاتها - أن يدله علـى أقرب فنـدق لأهرام الجيـزة، كان لـم يزل في ذهنـه ذلك التصور الغربي؛ حيث الأهرام مختفية في عمق الصحراء، لا يمكن بلوغها إلا بعد رحلة طويلة وشاقة على ظهر جمل. في الطائرة، كان يتخيل لحظة انشـقاق التلال الرملية أمام البصر عـن تلك الصروح العملاقة، أو عن وجه أبي الهول المخيف. منصور صدم عندما اكتشف أن الأهرام تكاد تكون في قلب المدينة، بل ويمكن رؤيتها بوضوح من عمق الشـوارع المزدحمة الخانقة. لكن الإحباط تبدد لحظة أن وقف أمام أبي الهول؛ كاد أن يسمع في أذنيه دوي مدافع نابليون، انتابته رؤية خاطفة لجندي فرنسـي يبكـي قهـرًا، ربما كان جده سيمون. بعدهـا غادر عائـدًا إلى الفندق، واعتصم بغرفته إلى نهاية اليومين.

فـي صباح اليوم الثالـث، حمل حقائبـه وطلب من الفندق سـيارة خاصة توصله إلى العنوان المدون على الظرف. سائق السيارة السياحية الفاخرة اسـتنكف أن يخوض بسيارته في أدغال ريفية لا يعرف كنهها، ولا إلى أين يمكن أن تفضي به. سـاوم منصور على توصيله إلى أقرب مدينة، وهناك سيجد سـيارات أجرة تُقله إلى القرية المطلوبة. منصور وافـق متبعًـا الحل الوحيد المتـاح أمامه. قبيل ظهيرة هـذا اليوم انطلق منصور مبتدئًا رحلته التاريخية.

بـرد التكييف في النهار السـاخن، وطـول الطريق، وثرثرة السـائق أغـروه بالنـوم، فغـاب بيـن نـوم حقيقـي وبيـن ادعـاء، حتـى هزته يد السائق..

- وصلنا يا بك.

المكان حيث توقفت السيارة ما كان يُشبه أيًا مما شاهده منصور في القاهرة. لم يعرف كيف غطى الطين الأرض بلا أمطار؛ والحقيقة أنه خشي أن يسأل! في الساحة الواسعة، تكدست سيارات ميكروباص متهالكة، وسيارات بيجو فرنسية، ربما يعود تاريخها إلى عهد نابليون ذاته! نظر إلى السائق نظرة تساؤل، فابتسم:

- هنا موقف سيارات الأجرة.. ستجد مَن يوصلك إلى القرية.

غادر السائق سيارته، تبادل الحديث مع رجل واقف على مقربة منهما، متكئ على ميكروباص، يدخن سيجارة. منصور شاهد الرجل يشير بيده إلى اتجاه ما. سائقه عاد ليخبره عبر شباك السيارة:

- الميكروباص الذي هناك يذهب إلى قريتك.

وأشار إلى شيء بدا لمنصور كتابوت ضخم له أربع عجلات. منصور لم يكن ليعترض أو حتى يسمح للتأفف بالطفو على ملامحه، فهو لم يأتِ إلى هذا البلد، الذي يعرف قبلًا أنه بلد فقير، لكي يجرح مشاعر أهله. حاول ألا يظهر التقزز على وجهه عندما غاص حذاؤه في طين له رائحة نتنة. السائق كان ذكيًا، خبر كثيرًا عن الأجانب لطول تعامله معهم. حتى هذا الأجنبي - الذي لم يُصدق أنه فرنسي إلا بعد أن أقسم له موظف الفندق - كونه يتحدث عربية كسيحة لا يعني اعتياده على مثل هذه الأجواء. لذلك ربما لم يُرد أن يثقل عليه بما هو

أكثر من مغامرة السير في هذا الوحل، فحمل عنه الحقيبتين، وسبقه إلى الميكروباص الرابض في ركن منعزل. السائق وضع الحقائب على الشبكة العلوية، ووقف يتحدث مع شخص ما جالس في المقعد الثلاثي خلف مقعد القيادة. لما اقترب منصور، فتح له السائق الباب الأمامي، وربَّت المقعد المجاور لمقعد القيادة..

- حضرتك تتفضل هنا.

صعد منصور جالسًا. سائقه أشار إلى الجالس خلفه في المقعد الثلاثي:

- الأسطى سائق السيارة.. هو فقط يرتاح قليلًا.

ثم التفت لسائق الميكروباص:

- انتبه للبك يا أسطى.

هز الأسطى رأسه وهو يتثاءب. سائق السيارة السياحية انسحب عائدًا إلى سيارته. منصور لحظتها شعر بشيء كالخواء. ربما هو توتر الاقتراب أكثر من المجهول، وإن بدا كخواء فقد شخص عزيز. منصور تابع السيارة السياحية وهي تبتعد، فلما غابت عن نظره، التفت إلى سائق الميكروباص فوجده مدد الجسد بطول المقعد وأغمض عينيه. رغم هذا سأله:

- متى ستتحرك؟

أجابه دون أن يفتح عينيه:

- حين يأذن الله بامتلاء السيارة.

منصور أراد أن يستفسر عن الفترة الزمنية التقريبية التي قد يستغرقها حدوث هذا، ولكن غطيط السائق كان أسرع من لسانه. عاد يعتدل في جلسته، أخرج الكمبيوتر من حقيبة يده، وصله بشريحة الإنترنت محاولًا تمضية الوقت في متابعة سير الأبحاث عبر الرسائل التي يُرسلها له أحد الزملاء تحمل آخر المستجدات. عثر على رسالة من القرن الشمسي، فيها نص الموافقة على الإجازة، حولته السكرتيرة على بريده الشخصي، كما طلب منها بالأمس. بطء الشبكة صدَّر له مللًا فاق ملل الانتظار، رغم أن البائع أكد له أكثر من مرة أنها أسرع شبكة إنترنت في مصر! في النهاية أغلق منصور صندوق رسائله متأففًا. ساعة الكمبيوتر تشير إلى مرور أكثر من ساعة، ولم يقترب أحد من السيارة. فتح الباب وهبط. تمطى ممددًا عضلاته القريبة من التيبس. تمنى لو استطاع السير قليلًا لتمرين ساقيه المثقلتين من طول الجلوس، ولكن الوحل وأجزاء من روث كائنات مجهولة منعاه. نصف ساعة أخرى مرت. الشمس هدأ حموها، ورياح ريفية هبَّت متلاعبة بغصون الأشجار القريبة. صعد إلى السيارة مرة أخرى، أغلق بابها بعنفٍ متعمَّد، عساه يقطع غطيط السائق. بعد نصف ساعة أخرى فاض به، التفت إلى السائق مناديًا:

- لو سمحت..

السائق بذل وقتًا وجهدًا حتى فتح عينيه أخيرًا. تأمله وكأنما لا يتذكره. منصور ربما قرأ في نظرات السائق أنه على وشك طرده من السيارة، ولكن في النهاية قال:

- خير يا بك؟

- متى نتحرك؟ بالتأكيد لن ننتظر إلى الأبد.

دعك السائق عينيه:

- قلت لك: عندما تمتلئ السيارة.

منصور صاح غير متفهم لأبعاد ذلك الإصرار العجيب:

- ولكنها لن تمتلئ، لو استمر هكذا الحال.

السائق قال:

- والله يا بك القرية التي تقصدها منذ يومين تعيش أزمة صعبة.. هناك جريمة قتل وقعت بها، والناس خائفون.. ويُقال إن الشرطة منعت أحدًا من مغادرة القرية.. ولهذا كما ترى.. الحركة منها وإليها ميتة.

مرثية السائق تلك لم تلوح أمام منصور بأي حل للموقف. لذا كان يجب أن يقول:

- لا بد من حل.

قال السائق وهو ينهض أخيرًا من رقدته:

- هناك حل بالطبع.. تدفع لي أجرة السيارة بالكامل.

منصور كاد رأسه ينفجر. صرخ:

- ولماذا لم تطلب مني ذلك من البداية؟!

قال السائق وهو يفتح الباب الخلفي هابطًا:

- كنت سأضيع على نفسي فرصة النوم لبعض الوقت!

لم يصدق منصور ما سمعه، ولم يصدق الاعتيادية والاستهتار اللذين قيل بهما. لم يجد ردًا يُعبر عن غضبه وتقززه من الرجل، تحديدًا وهو لا يمتلك حصيلة من السباب باللغة العربية، فماذا إن علم أن السائق حاسبه بأجر زائد ثلاثة أضعاف؟

يا سادة يا كرام...

عند الجسر الطيني، توقف الميكروباص. السائق أشار إلى البيوت التي تبدو قممها عبر كثافة الأشجار المنتصبة في قلب الحقول. منصور ترجَّل وهو يشكر السائق على مضض، وقف قليلًا بجوار العربة متوقعًا أن يساعده السائق في إنزال حقائبه، لكنه - السائق - لم يُحرك إصبعًا. منصور اضطر في النهاية إلى الاعتماد على نفسه. التدخل الوحيد من السائق كان بالتفاتة وجه لا يحوي أي تعبير، وقول:

- على أقل من مهلك.

منصور لم يفهم تحديدًا معنى القول، ولكنه قدر أنها صيحة تشجيعية. لما استوت الحقيبتان بجواره على الأرض، تقافزت العربة مبتعدة، مخلفة وراءها ترابًا ثائرًا اقتحم منخرَي منصور، فسعل. عدل وضع حقيبة اليد على كتفه، ورفع إحدى الحقيبتين على الكتف الأخرى، وجر وراءه الحقيبة الكبيرة على عجلاتها، في مهمة شبه مستحيلة، نظرًا للطبيعة البدائية للأرض غير المستوية. بعد عناء، عبر منصور الجسر الممتد فوق ترعة عريضة، ماؤها لم يزل على قدر من الصفاء. على شاطئها ماكينة رفع مياه، تُحدث ضجة لفتت انتباه

منصـور، فوقف ليتأملها، وهي تضخ الماء المسـحوب من الترعة، في قنـاة صغيـرة، تحمله، وتركض بـه في تفريعات عدة، عبر المسـاحات المزروعـة. وقفـة منصـور طالـت، حتـى لاحـظ وجهًـا شـابًا يتأمله مندهشًا.

اسـمه محمد، ونصف ذكور القرية تقريبًا اسـمهم محمد. للتحديد نقول إنه محمد بن عبد الرحيم الفلاح، القائم على زراعة أرض الحاج سـليم. محمد بن عبد الرحيم الفلاح كاد أن يدخل تاريخ القرية. ليوم أو ليومين سـتبقى سيرته في القرية تسري كأول مَن نال شرف استقبال سليل الخواجة؛ لولا أن العمدة سيسرق الشرف الحقيقي بتصريحه أن الشـيخ أتاه في المنام، وأنبأه بنبأ الزيارة. محمد بن عبد الرحيم الفلاح كان فـي (قعدته المفضلة) على غصن شـجرة الكافور التي تظلل بقعة قريبة من ماكينة رفع المياه. محمد في هذه الساعة كان راغبًا في الابتعاد عـن أجواء الحزن المسـيطر على القرية، وحتـى بيته. أمه لم تكف عن اللطم والعويل مجاملة للسـت مريم الأميرة بنـت الأمراء في مصابها. الحقيقـة أن الحزن الضـارب بيوت قريتنا يومها كان كثيـر منه حقيقيًا، بعيـدًا عن واجبات المجاملة التقليديـة، فالطريقة التي مات بها الحاج حكيم ألقت الحزن المشـوب بالرعب في قلـوب حتى أعتى الرجال؛ وربمـا حتى العمدة ذاته، وإن بدا متماسـكًا؛ فما شـهده لم يشـهده أي من أسـلافه في فترات حكمهم. الجريمة على بشـاعتها، وما استدعته من وجود للشرطة، ورجال البحث الجنائي، والنيابة في شوارع قريتنا،

أشياء لا يجيد أي من أهالي قريتنـا - ولا أعيانها، ولا حتى عمدتها - التعامل معها.

منصـور ألقى التحيـة على محمد. منذ أن جاء مصر وهو يستخدم تحية أهلها:

- السلام عليكم.

محمـد بطيء الإدراك والاستيعاب بشـكلٍ ما، وهو أمـر لا يهمنا، لأن دوره في حكايتنا سـينتهي بعد بدايته بدقائق. ما يهمنا أنه في البدء لم يتنبه إلى اللكنة الغريبة للزائر المفاجئ. لم ينتبه إلى "آليكم" الواردة فـي التحيـة بدلًا من "عليكم". لـذا، حين نزل عن الغصـن، وقفز فوق المصـرف الفاصل بينه وبين الغريب، كان في ذهنه احتمال واحد لكُنه الغريب:

- وعليكم السـلام يا أفندي.. حضرتك تبع المباحث؟ لقد رحلوا من العصرية.

منصـور لم يفهم بعضًـا من الكلمـات. كلمة "المباحـث" تحديدًا جديدة على أذنيه..

- أنا لست تبع المباحث.

هنا انتبه محمد إلى "المباهث" التي قيلت كبديل لكلمة "المباحث" فأصابه شيء من التوجس محل الدهشة. ربما لأن محمد لم يسمع من قبل أحدًا يتكلم هكذا سوى في مسلسلات الجاسوسية..

- مَن حضرتك إذن؟

منصور أشار بيده بمعنى: انتظر. من حقيبة يده أخرج الرسالة من ظرفها، فضَّها وأعطاها للشاب. أسقط الظرف الفارغ بإهمال في الحقيبة، وهو يقول:

- أنا هنا لأجل هذه الرسالة.

محمد بن عبد الرحيم الفلاح تأمل الرسالة قليلًا، ثم أعادها إلى منصور، وقال:

- لا مؤاخذة.. أنا لا أعرف القراءة.

منصور طوى الرسالة ودسَّها في جيب قميصه لتكون أقرب لمتناول يده. قال محاولًا شرح الأمر:

- أنا منصور حفيد سيمون رينار.

محمد اقشعرت أوصاله على ذكر الاسم. قال مستوثقًا:

- رينار؟! الخواجة صاحب المصنع القديم؟

منصور كان عليه أن يسأل ليضمن استمرار التواصل بنجاح، تلك الكلمة "الخواجة" مذكورة في الخطاب، فربما حان الوقت ليقف على معناها..

- ماذا تعني "خواجة"؟

ضحك محمد على طريقة نطق منصور لحرف "الخاء"..

- يعني رجل أجنبي.

قال منصور:

- أنا لا أعرف شيئًا عن مصنع.. ما أعرفه أن جدي كان خواجة. وربما عاش في هذه القرية منذ زمن.

تهلل وجه الشاب. بدت نبرة صوته مرحة وهو يقول:

- نحن لا نعرف خواجة هنا غيره.

منصور لم يستوعب نشوة الفرح التي ضربت الشاب، وهو يتقافز أمامه مرددًا عبارات، فهم منصور أنها تعني أقصى درجات الترحاب. لم يفهم كذلك الطقس الغريب الذي مارسه الشاب بمسح كفيه في ذراع منصور، ثم مسح صدره بهما وهو يصيح:

- بركاتك.. بركاتك يا غالي يا حفيد الغالي.

ربما انتشى منصور بقدرٍ ما بالتبجيل الذي مازج فرحة الشاب؛ وربما لم يفعل. ربما خاف قليلًا؛ وربما لا. منصور لم يعتد أن يكون تحت الإضاءة، هو كائن ملتصق بالأركان المظلمة، ويحب هذا. لكننا لن نعرف يقينًا ما شعر به لحظتها، في النهاية يتوقف علمنا ببعض الحوادث عند حدود ما يقع أمام البصر. أحيانًا - مهما اجتهدنا - تبقى العقول والنفوس مغلقة أمام بصرنا وبصيرتنا، فلا نملك سبيلًا للإحاطة بما تحويه. ما نراه، لا يمكن أن نستخلص منه غير أن منصور انجرف مع الأحداث؛ منذ لحظة انقضاض الشاب بغير استئذان على

حقائبه يجرده منها، ليحملها هو، ومنصور لا يواجهه سوى بإذعان المندهش الغائب عن الفهم، والشاب يجري أمامه قافزًا فوق طين الحقول ويصيح:

- تفضل.. تفضل يا حفيد الغالي.

منصور لم يكن يملك أية معارف أو تصورات عن شكل القرية المصرية. هو رغم إجادته للعربية، لم يكن مهتمًّا بمتابعة التلفزيون المصري مثلًا؛ السينما المصرية لم يكن يعرف عنها سوى فيلم شاهده منذ سنوات على إحدى القنوات الفرنسية. رغم أن العربية التي تحدثها أبطال الفيلم كانت مغايرة لتلك التي كان يستخدمها والده، أو تلك التي كان يتبادل كلماتها أحيانًا مع أصدقاء دراسته من أصحاب الأصول المغربية أو الجزائرية، ولكنه فهم قدرًا لا بأس به منها، هي أقرب لعربية القرآن الذي كان يردد بعض آياته وراء أبيه في طفولته؛ العربية الفصيحة كما فهم من والده. وما غمض عليه من حوار الفيلم، استعاض عنه بالترجمة الفرنسية أسفل الشاشة. يُذكر أنه أحب الفيلم، ولكن لم يكن ليعول عليه في تكوين صورة ذهنية عن القرية المصرية، فالقرية في الفيلم لم تكن سوى قبيلة بدائية سكنت الجبل منذ أكثر من قرن وعاشت على سرقة كنوز المومياوات. منصور رغم هذا يعرف أن القرية المصرية لن تشابه بالتأكيد قرى الريف الفرنسي الجميلة، ولكنه كذلك لم يكن يملك أدنى فكرة عن مدى اتساع الهوة بينهما، لذلك لم يكن لديه الوعي بالتطور الواقع للقرية المصرية. هو لا

يعـرف كيف تحولت بيوت القرى الطينية إلى عمائر من طوب وحديد واسـمنت كعمـارة الحضر، لا يعـرف أن القرى تواصلـت مع أحدث وسـائل التكنولوجيا، وعرف أهلها مقاهي الإنترنت، وملاعب البلاي ستيشـين، وصالات البلياردو. لو كان يملك المعرفة اللازمة بالشـكل الـذي كانـت عليه القريـة المصرية حتـى وقت ليس ببعيد، لاستشـعر الانبهـار لتبدل حالها، لتوقف طويلًا أمام لافتات المحال المغلقة التي مر بها؛ "صخر لخدمات الحاسـب الآلي والإنترنت"، "السفير إنترنت كافيه"، "نور الإسلام لخدمات الأقمار الصناعية"، "معرض الأحمدي للأجهـزة الكهربائيـة"، "الرحمة بيوتي سـنتر"، "عفيفي فون لخدمات الهواتـف المحمولة"، "بوتيك مينا وكريسـتين لملابس المحجبات".

ولكن منصور للأسـف لـم يواجه علامات التطور تلك سوى بلا مبالاة الجاهـل؛ ربمـا لم يلحظها حتى! لم يلحظ سـوى روث المواشـي في الطرقـات، لـم يلحـظ سـوى أكـوام القمامة بجـوار باب المستشـفى المغلـق. أمـا لافتـات المحـال الحديثة، فلـم يجذبه فيها سـوى لافتة "السـفير إنترنـت كافيه"، تحديـدًا الكلمة المكتوبـة بأحرف إنجليزية زرقاء أسفل اللافتة "feacbook" ! لهذا، حتى وإن اعتبرنا الأمر ينطوي علـى تصيُّـد للأخطاء من جانبـه، أو اعتبرنا أن روحـه الميالة للانطواء هي ما أغلق عقله إلا عن ملاحظة السـلبيات، أو اعتبرنا أنه ببسـاطة لم يقدر علـى تخطي النظرة الغربية المتعالية تجاه ريفنا الجميل، فهذا لن يغير للأسـف من حقيقة أن الانطباع الأول لمنصور عن قريتنا لم يكن مشجعًا.

محمد كان يرمح متقدمًا المسيرة في الطرقات الخالية. خواء القرية لفت أنظار منصور. فكر بسذاجة أنه ربما وقت ينام فيه الأهالي. ولكن بعد منعطف قطعاه، لمح منصور على البعد تكتلات سوداء لم يفهمها في البدء، ولم يفهم ديناميكية الحركة الرتيبة المتوترة الصادرة عنها. عندما اقتربا، اكتشف أنه أمام جمع من النساء يُقدَّر - ربما - بالمئات، كلهن يلفهن اللون الأسود، كلهن تلفهن قسمات الغم، كلهن ينشجن ويتمايلن على إيقاع جنائزي ربما يتردد فقط في رؤوسهن. كن يفترشن الأرض الترابية، أمام بوابة حديدية مشغولة بزخارف كأوراق الأشجار، مفتوحة لتكشف عن حديقة تغلف بيتًا من ثلاثة طوابق، تكوينه يُشبه قصرًا مزخرفًا ببذخ، في حين عمارته الأساسية بدت في عيني منصور لا تختلف كثيرًا عن عمارة البيوت الواطئة المتناثرة في القرية، والعمارات التي لا تتخطى أطولها خمسة طوابق. منصور ارتج للمشهد الكئيب، فتباطأت خطواته. محمد التفت إليه وقال همسًا:

- لا تقلق يا سيدنا.. فقط اتبعني.

منصور لم يستطع الصبر على جوع فضوله، فسأل:

- ما الأمر؟

محمد تهدج صوته فجأة بحزن ضروري:

- جنازة الحاج حكيم رحمه الله.

***

الواقعة صارت منذ يومين. حكيم اعتاد في ليالي الحر الخانق على النوم في حديقته؛ جنة صغيرة من أشجار الموالح المتلاحمة، تنتصب في ركن منها تكعيبة تتسلقها أغصان رفيعة مورقة. على الأرض الخشبية للتكعيبة، فرش يتخذه حكيم منامة صيفية، بجواره صينية تحوي قُلّتي ماء مثلج دائمًا، إحداهما منكهة بالنعناع، والثانية منكهة بماء الورد. ليلة الحادث، حكيم غادر فراشه بعد منتصف الليل. الجو كان حارًّا، وهو لم يكن يرتاح لهواء المروحة المركز الساخن. مريم طالبته أكثر من مرة بتركيب مكيف هواء في حجرتهما، كالذي وضعه في حجرة وحيدهما صخر، ولكنه رفض. هو لا يحب الطراوة المصطنعة، يحب كل شيء ربانيًا؛ كما كان يقول. حتى المكيف في حجرة صخر لم ينل موافقته بسهولة. يمكن هنا أن أتوقف قليلًا لأحدثكم عن صخر المراهق المدلل، عن الدلع الزائد الذي تسكبه أمه عليه برضا وأريحية، عن الدلع الذي يسكبه عليه أبوه مغلفًا بادعاءات السخط وعدم الرضا، ولكن دعونا لا نفسد إثارة الموقف، ولنبقَ في تلك الليلة، حيث حكيم قام قاصدًا تكعيبته الأثيرة؛ ربما هروبه لم يكن من الحر كما يدعي، ربما كان هربًا من عجز الجسد والروح عن تلقي دفقات الأنوثة، التي لم يزل يطلقها جسد مريم الشهي، المحافظ على عهوده وقد بلغ منتصف الأربعينيات من العمر. أيًا كانت أسبابه، فكأنما كان يسرع للحاق بموعد قدري لا مفر من إتمامه. الخفير يسهر ليلًا أمام باب الجنينة المغلق، والباب بقي كما كل ليلة مغلقًا، والخفير - كما يقضي روتينه - يشرب شايه حينًا، ويسحب أنفاس جوزته حينًا،

وينعس حينًا. ينتظر أذان الفجر ليوقظ سيده النائم بالداخل، ليصلي وراء العمدة في الجامع الكبير. الخفير هبَّ متيقظًا مع انطلاق الأذان، ليكتشف أن السيجارة تآكلت وبلغت شعلتها أطراف أصابعه لتلسعها. رمى السيجارة من يده، ونهض مسرعًا وهو يردد كلمات الأذان وراء الصوت الجهوري لشحتة، شيخ الخفر ومؤذن الجامع الكبير.

دفع باب الحديقة. الكشف الأول أتى مع أول خطوة يخطوها إلى الداخل، حين تعثر في جسم خفيف. حينما ضربته قدمه، تدحرج أمامه لمسافة المتر، ربما. الخفير أخرج هاتفه المحمول مشعلًا كشافه الصغير، سلَّطه على الجسم الغريب، ليجد عيني سيده تطالعانه بذهول. الخفير تمتم بآلية غير مقصودة: "لا مؤاخذة يا حاج"، فهو لم يدرك في البدء سوى أنه ضرب رأس سيده بقدمه – وهي جريمة لا تُغتفر – قبل أن يدرك لاحقًا أن الرأس كان بلا جسد!

لجزء من الثانية، تجاوز عقل الخفير البسيط إدراك الكارثة بفعل الصدمة، وفكر أن يبحث عن جسد سيده ليوقظه! ولكن لما استقر الفهم وعاد الوعي، ارتجف الخفير. لم يحتج سوى لجولة في الظلام بضوء الكشاف الصغير، ليعثر على باقي أجزاء الحاج مدلاة من فوق الأشجار. لاحقًا سيعثر رجال البحث الجنائي على القلب داخل واحد من بيوت النحل الخشبية. متى تمكن القاتل من ارتكاب تلك المذبحة؟ كيف لم يصرخ حكيم أو يستغيث؟ بالتأكيد كان الخفير سيسمعه إن فعل. ربما لهذا تم وضع الخفير – وبعد يومين من التحريات – على

رأس قائمة من المشتبه بهم، لم تضم غيره حتى الآن. ربما لأن حكيم كان من أعيان قريتنا المحبوبين، وربما لأن قريتنا تخلصت منذ زمن من الأحقاد والكراهية وأي نزاع قد يؤدي بشخص لقتل آخر بتلك البشاعة.

الليلة انتهت الأزمة بشكل مؤقت؛ الشرطة غادرت القرية ومعهم الخفير، على أمل أن يقدم اعترافًا قريبًا يغلق ملف القضية، التي وضعت اسم قريتنا لأول مرة على صفحات الجرائد. حكيم رحمه الله تم التصريح بدفنه، أو بدفن ما بقي منه. العمدة أمر بأن تجمع أجزاء الفقيد في نعش خشبي، حتى لا يؤذي مشاعر أهله إن هم ساروا في جنازته وراء صرة بيضاء منتفخة. واجهتهم مشكلة الغسل في البدء، فأفتى العمدة أن حكيم شهيد، ويجوز دفنه دون غسل.

***

منصور، حين دخل القرية، كانت الاستعدادات تجري لدفن حكيم بعد صلاة المغرب. ربما كان في هذا فأل سيئ، وربما كان فيه - كما ظن محمد بن عبد الرحيم الفلاح - تعويضًا، وفرصة لفرحة قادرة على كسر شوكة الحزن الصلبة؛ لهذا كان مقصده أن يسرع إلى العمدة بالبشارة.

دار العمدة هي قلب القرية، هي مركز الأحداث، الفرح والحزن، كل شيء يبدأ من هنا وينتهي إلى هنا، فناء الدار هو فعليًا دار مناسبات القرية، وقاعة مؤتمراتها، ومحكمتها العرفية. فيه يتجمع الرجال لتلقي

العـزاء والخروج في الجنازات، ولهذا قصده محمد مصطحبًا الضيف العزيز.

لما بلغا مجلس النسـاء خارج سور الدار، تمهل محمد قليلًا، وجّه كلماتـه للجالسـة في صدارة النسـاء، وعلـى وجهها ذهـول ومجاري دموع جفت:

- البقاء لله يا ست مريم.

منصـور لـم يعِ ممًّا يحدث سـوى انقبـاض في قلبـه، وحيرة حول سـبب إحضـاره إلى هـذا المكان. لوهلة شـك فـي القـدرات العقلية لدليله، وتمنى لو لم يتبعه من البدء.

جمـود أصاب المشـهد للحظة، وقد انتقل ثقـل الحدث من جنازة الرجل الراحل إلى وجه الغريـب. حتى مريم لم تسـتطع منع نفسها من تأمله والتسـاؤل الصامت عمَّن يكون. محمد انتشى لمَّا أحسَّ بالاهتمام الموجه للغريب، وتمنى لو أعلن للحاضرات هويته. لكنه فضَّل انتظار أمـر العمدة. منصور، القادم من عالـم لا يأبه الناس فيه ببعضهم، عالم يحرص ناسـه على المسـافات الفاصلة بينهم، ارتبك، فـازداد التصاقًا بدليلـه. تبعـه عبـر البوابـة الحديديـة للـدار. عبر السـور، وسـياج من شـجيرات تتناثر بينها أشجار موز وبرتقال، وشجرة تين وحيدة. كانت مساحة من حشائش تقود إلى باب الدار الداخلي، عبر طريق مرصوف يقسـم الفناء إلى قسمين، وينتهي بدرجات قليلة صاعدة إلى باب الدار الخشـبي، يحرسـها - كما يُفترض - أسـدان من الجص الملون بلون

ذهبي، يغطان في النوم! عن الحشائش كان الخدم يرفعون أكواب شاي فارغة وبقايا سجائر وعلب معسل خاوية ونارجيلا تعكر ماؤها. محمد سأل خادمة مرت بجوارهما عن الرجال، فأخبرته وعيناها تخترقان وجه منصور:

- الرجال في الجامع الكبير لصلاة الجنازة.

محمد ناول الحقائب للخادمة، وأمرها - وكانت نشوته بالضيف تُنسيه أن الفارق الاجتماعي بينه وبين خادمة العمدة، قد يكون في صالحها - أن تضعها في مضيفة الدار حتى يرجع العمدة. الخادمة لم تعترض، لا على شكل الأمر، ولا على محتواه؛ كانت مشدوهة بالوجه الغريب. تناولت الحقائب، ملقية تعليقًا عن ثقلها، فتمتم منصور بما يشبه الاعتذار، ومحمد يجذبه من ذراعه برفق، معلنًا أن أوان المغرب قد اقترب.

منصور لم يدخل مسجدًا منذ أن كان في التاسعة من عمره، منذ دخل والده دوامات المرض، وكفَّ عن ممارسة تسلُّطه الديني على وحيده. الدين بالنسبة لمنصور لم يكن أكثر من إرث شكلي، مثل أي صفة وراثية حملها عن الآباء على كراهة منه، كاللون الأسمر، أو الشفاه الرفيعة، أو الاسم السخيف. أمور لم يُردها يومًا، لكن والده لم يكن كذلك، والده كان يحب دينه، وكذلك والدته؛ ومن هنا كان التمزق، كطفل لا يعرف إن كان عليه أن يصلي في أيام الجمعة مع والده، أم في أيام الأحد مع أمه. والده لم يحب تلك النشأة لابنه، ومرة صرح بها

في وجه أمه، نادمًا على الخروج عن تقاليد العائلة والزواج من فرنسية مسيحية. منصور اعتبر هذا التصريح يطاله بسوء، فهو ما كان يتخيل أن يوجد في الحياة من أب وأم آخرين؛ لذا فندمُ أبيه على الزيجة بمثابة ندمٍ على وجوده! لهذا اختار – ولو بدون وعي – نوعًا من الحياد، أن يقف في مسافة مضادة لكلا الاتجاهين، فلا يتبع غير عقله. ولكن لا يستطيع أن ينكر – برغم هذا – أنه طالما استمتع بولائم لحم الضأن مع والده في بيوت أقاربهم المسلمين، في أعياد الأضحى، وبولائم الديوك الرومية في بيت جده لأمه في أعياد الميلاد. ربما كانت هذه هي الفائدة الوحيدة التي لمسها من النزاع الديني الذي عاش فيه طفولته.
الآن منصور لا يعرف إن كان بإمكانه حقًّا الدخول إلى المسجد، بل والصلاة فيه كذلك، وهو الذي لا يعرف عن الصلاة سوى حركات كان يؤديها في طفولته محاكيًا أباه. السؤال الأهم الذي لم يستطع حبسه، فأطلقه نحو محمد وهو يهرول وراءه في الطرقات الخالية:

– كيف عرفت أنني مسلم؟

ضحك محمد، ربما لسخافة السؤال. ضرب كفًّا بكفٍّ لتأكيد شعوره الهازئ..

– ألست حفيد الخواجة؟! والخواجة كان مسلمًا موحدًا بالله.

ما يعرفه منصور عن جده الأكبر سيمون رينار أنه كان مسيحيًّا كاثوليكيًّا، هكذا ولد، وهكذا مات، ولكن منصور لم يشأ أن يجادله

فالثقة التي تحدث بها الشاب كفيلة بدحض أية حجة بالمزيد من الضحك وضرب الكف بالكف!

منصور لم يحب الإحساس الخانق كفريسة في فخ صيد، ولكنه لم يدرِ كيف يتخلص منه. ربما عليه صراحة أن يخبر الشاب برفضه دخول المسجد. يمكن أن يقول بوضوح إنه ليس واثقًا من دقة تصنيفه كمسلم. ما عطل تفكيره، تخوفه من ترك أثرٍ سيئ في نفوس أهل القرية عند التعارف الأول. أو هكذا أقنع نفسه لموراراة ميراث عمر من تحاشي الناس، يجعله يرتجف في موقف مواجهة، كتلك التي يخشاها إن هو صدم تطلعات هؤلاء الناس - المبالغ فيها كما يبدو - إليه.

عندما انحرفا يمينًا، لاح له الجامع الكبير في قلب ساحة واسعة. كان لم يزل يبحث عن القرار السليم، حين لمح بطرف عينه شبحًا يتحرك. عندما التفت، رأى شابًا واقفًا عند مدخل حارة ضيقة يتأمله. منصور لا يعرف لماذا أوجفته النظرة. لفترة، لم يستطع قطع تلاقي الأعين. الشاب كان في بداية العشرينيات ربما - هكذا قدَّر منصور - نحيفًا، له ذات الوجه الأسمر الممصوص، كالذي كان لجده حسونة. وجهه كأنما خُلق لحمل تعابير الكآبة. ولكن شعره الناعم الطويل، البالغ كتفيه، جعله أقرب إلى الهنود الحمر في أفلام الغرب الأمريكي. لم يكن يرتدي جلبابًا فضفاضًا كالذي يرتديه محمد؛ كان يرتدي بنطلونًا قماشيًا واسعًا، وكأنما بذل جهدًا ليجعله مناسبًا لقياسه، وفانلة متسخة أصغر من قياسه بكثير، فأطل جزءٌ من لحم بطنه عبر المسافة بين أدنى الفانلة، وحافة البنطلون. منصور أُجبر على قطع تركيز النظر

لحظة أن أعلن محمد عن وصولهما. منصور التفت إلى محدثه، ليجد في عينيه مسوح الكراهية، ونظرات تسعى كذلك نحو مكمن الشاب الغامض. لحظتها فكر في أن يسأل مرشده عن هذا الشاب، ولكن محمد تبرع بعلمه:

- إنه صخر.. كبير الأولاد المقدسين.. مخاوي إبليس.. احترس منه.

منصور لم يفهم ما عناه محمد بالأولاد المقدسين. ولم يفهم كيف يمكن لشخص أن يتحدث عن شيء مقدس بصوت مشحون بكل هذه الكراهية. ناهيك عن أنه لم يفهم أصلًا المعنى الحرفي لكلمة "مخاوي"، لذا فاته إقامة رابطٍ سليم بين التقديس وإبليس. مرة أخرى أدار محمد دفة التركيز وهو يقول:

- تفضل.

كان يخلع خُفيه تهيئًا لدخول الجامع. منصور الواقف على حافة ما يكرهه لم يجد سوى القول الحاد والموجز تعبيرًا عن رفضه، وقطعًا لتردده:

- لا.

محمد ترقبه مندهشًا؛ منصور كان يتأمل ازدحام الرجال داخل الجامع، يتحسس شيئًا كالتوجس، أو الاضطراب البسيط، وربما لن نبالغ إن سميناه رعبًا..

- أنا فقط لا أعرف إلى أين تأخذني.

محمد بدا له الاعتراض سخيفًا، ولولا وقوفه على حافة الجامع لأطلق ضحكة، ولضرب كفًا بكف. منصور كذلك كان يعرف أن حجته سخيفة، ولكنه نطق بأول ما أجراه عقله على لسانه..

- سندخل الجامع.

منصور تشبث بحقه في الفهم:

- لماذا؟

- لتقابل العمدة.

- ولماذا في الجامع؟ يمكن أن أنتظره في بيته.

عدم تمكن محمد من التقاط المنطق الذي يتحدث به منصور حوَّل حيرته لتوجس؛ وكأنها موجة خفية تتناقل بينهما. أدرك أن الموقف يتحرك نحو مناطق اللا معقول، سد خفي وُضِع عنوة بينهما. محمد، عند هذا الحد، كان يجب أن يلقي الحمل على كاهل مَن هو كفء له. حسمًا للأمر قال:

- انتظر هنا.

ثم انطلق إلى قلب الجامع.

منصور تراجع خطوتين أمام نظرات وهمسات طالته من داخل الجامع. تراجع، حتى غادر حدود الأبصار الممتدة عبر البوابة

الخشبية المفتوحة على مصراعيها. رغمًا عنه التفت إلى حيث كان الشاب الغامض طويل الشعر يقف، فلم يجده. أعاد نظراته نحو باب الجامع، حيث كان العمدة يجتازه..

العمدة - رغم وقوفه في منتصف الخمسينيات - يحمل وجهًا طفوليًا، مع قامة قصيرة، وقوام ممتلئ بغير بدانة أو ترهل. وجهه الأبيض المشرب بالحمرة، وعباءته الحريرية السكرية، يُكسبانه مظهرًا فخمًا ناعمًا. السبحة الكهرمان المتخللة أصابعه، وزبيبة الصلاة المضيئة على هامته يكسبانه جلالًا وورعًا. باختصار، كان تكوينه أقرب إلى جد طيب تحب أن يُجلسك على فخذيه ويقص عليك القصص. اسمه بالكامل كما جاء في شهادة النسب التي استصدرها من دار الوثائق القومية ـ والتي يعلقها مؤطرة بإطار مذهب في صدر الجامع ـ هو رضوان بن توفيق بن حسنين بن جابر بن عبد القوي بن عاشور بن الناجي بن زين العابدين بن المرسي بن علي بن الزيبق بن أبو زيد بن الهلالي بن سميقع بن أسامة بن حاتم بن عنترة بن شداد بن مسيلمة بن ليث بن سعد بن إيساف بن بنيامين بن سليمان الحكيم. يمكن اختصار اسمه - كما هو شائع في القرية - إلى: رضوان الحكيم، وأحيانًا: رضوان الهلالي، اتباعًا للقب الذي كان يفضله أبوه العمدة السابق، الحاج توفيق الهلالي، والذي ورث رضوان العمدية عنه منذ ثلاثين عامًا تقريبًا، حين كان لم يزل شابًا في منتصف العشرينيات. العمدة رضوان الحكيم يحمل ألقابًا أخرى بالطبع، منها: الحاج. هو لم يحج أو يعتمر بعد، ولكنه لقب لازم لأعيان وحكام القرية. من

ألقابـه كذلك: العـارف بالله؛ وهو لقـب لم يحمله عمدة قبلـه. أحيانًا يسبق اسمه "سيدي"؛ ولكن هذا بالنسبة للأطفال وصغار الشأن. في قريتنـا، العمدة له أدوار عـدة؛ هو حكم في النزاعـات، وقاضٍ عرفي؛ وممثل للحكومة بالطبع. قريتنا ليست بها نقطة للشرطة، تعاملنا يكون مع قسـم الشـرطة في البندر، وهي مسـألة شـاقة، ولا ننال مـن ورائها سوى الأغراب ينتهكون خصوصياتنا. لذا، فكل الجرائم - وهي أمور صغيرة لا تذكر غالبًا - وكل النزاعات، تنتهي في مضيفة العمدة، أو في فناء داره، لحظة أن يُطلق حكمه البات. العمدة كذلك هو رأس السلطة الدينيـة في قريتنا؛ فهـو مَن ورث عن أبيه الحـاج توفيق الهلالي العهد الـذي قطعه عليه شـيخنا قبل دخوله في خلوته الأبديـة، بأن يكون هو - العمدة - وسـلالته من بعده. الوسـطاء الحصريون بين أهالي القرية وبين شيخها في أمور الدين.

العمدة مد يده بحرارة ليُصافح منصور، على وجهه ابتسامة مشرقة. كـرر عليه تقريبًا ذات مفتتح اللقاء الذي قابله به محمد بن عبد الرحيم الفلاح:

- أهلًا بالغالي حفيد الغالي.

محمـد كان يقـف في ظهـر العمدة مبتسـمًا، مترقبًـا. منصور أدرك لحظتهـا، وهـو ينقل البصـر بين الوجهيـن، أن حفاوة الشـاب لم تكن عن عتـه منه، أو ميل للمبالغة كما ظن؛ فالواضح أنه يمثل بالفعل قيمة هامـة لأهالـي القرية. حفـاوة العمدة لم تُثر في نفس منصور دهشـة أو

توجسًا، وإنما نوعًا من الراحة، كخطوة أخرى تؤكد له أنه غير واهم، وأنه بالفعل قريب من اكتشاف الهدف من حياته.

- سامحنا، كنا نتمنى أن نراك في ظرف أفضل لنعطيك حقك في الاستقبال.

العمدة قالها، فأجاب منصور:

- لا تهتم.. بارك الله روح المتوفى.

ابتسم العمدة محاولًا ابتلاع صيغة التعزية غير المعتادة، ثم قال:

- وهل من بركة خير من أن يحضر دفنته حفيد الخواجة؟

منصور شعر لحظتها أنه بشكلٍ ما قد عاد إلى نقطة الصفر..

- سيدي العمدة.. هناك الـ...

قاطعه العمدة:

- سيدي؟! عيب.. أنت سيدي وابن أسيادي. قل لي: يا حاج رضوان.

منصور ابتسم خجلًا..

- حسنًا يا حاج رضوان.. هناك حديث طويل يجب أن نتبادله قبل أي شيء.. دعنا نؤجله لوقتٍ أفضل.. واعفني الآن من دخول المسجد. أنا فقط أريد مكانًا أرتاح فيه.. دلني على الفندق هنا.

العمدة ابتسم، ازداد اقترابًا من منصور، مال على أذنه وقال:

- صدقني، ما يجب عليك فعله الآن أن تترك انطباعًا مريحًا عند أهالي القرية. هذا سيجعل إقامتك هنا أجمل. الناس في الجامع يهينهم أن تتواجد في قريتهم ولا تشاركهم حزنهم وطقوسهم.

منصور تلقى كلمات العمدة شاردًا في محاولة تلمس الخط الذائب فيها بين النصيحة والتهديد، فلما فشل سعيه، قرر ترك الأمر مفتوحًا على الاحتمالين. العمدة لم يمنحه حتى الوقت للتأمل فيما وراء الكلمات، التفت إلى محمد صائحًا:

- ألم تزل واقفًا كالصنم يا بن الكلاب. ادخل إلى الجامع.. وقل لشحتة يؤذن للمغرب.

محمد طار من أمامهما، فكاد يتعثر في عتبة الجامع وينكفئ على وجهه، ليغيب عبر الباب المفتوح، ويخرج نهائيًا من حكايتنا. العمدة وضع يده على كتف منصور، وبود قاده قائلًا:

- تعالَ معي.

العمدة أدخل منصور عبر باب الميضأة. أراه كيف يتوضأ، فكما توقع، وجد منصور لا يُحسن الوضوء. قاده بإرشادات وإشارات حتى أتم مهمته ووقف يقطر ماء. العمدة أخرج من جيب جلبابه منديلًا قماشيًا مكويًا ومطويًا بعناية، ناوله لمنصور. فلما لمح نظرة اشمئزاز طفت على عيني الخواجة الشاب، قال بابتسامة:

- لا تخف.. المنديل نظيف.. للتو أخذته من الدولاب.

منصور مجددًا أطاع العمدة. فرد المنديل متعجبًا من كبر حجمه. جفّف وجهه ورأسه وساعديه بعناية، ثم أعاد طي المنديل. تحرج في البدء من إعادته لصاحبه على هذه الحال، لو لا أن مد العمدة كفه، فدس منصور فيها المنديل. هذه المرة جاهد لكي يبعد الاشمئزاز عن نظراته، والعمدة يعيد المنديل إلى جيب جلبابه. منصور قرر لحظتها أن بعض الحسم بات ضرورة. بلهجة عصبية قال:

- أنا لا أفهم.. ماذا تتوقع مني؟

قال العمدة:

- وأنا لا أفهم.. لماذا أنت غاضب؟

- أنا غاضب لأنك تقودني كطفل صغير.

مسرعًا صاح العمدة:

- حاشا لله.. أستغفر الله العظيم.. أنا فقط أرشدك لعادات قوم، أنت بالتأكيد لا تعرف عنها شيئًا.

- ما أعرفه أنني لا أصلي.. أنت رأيت بنفسك أنني لا أعرف الوضوء.

ابتسم العمدة بتسامح وكأنما هو المسيح على صليبه..

- ألست مسلمًا؟

تضاعف غضب منصور..

- لماذا تهتمون بهذا الشيء أصلًا؟

هز العمدة رأسًا للأسف، استغفر مرتين، ثم قال:

- لأن من عادتنا أن هذا الذي تسميه شيئًا، هو أهم ما نملك.

منصور بطبيعته البسيطة أدرك أنه تخطى خطوطه الحمراء، وارتكب خطيئة بازدراء معتقدات قوم هو ضيف في بلدهم، لذا تمتم باعتذار أعاد إلى وجه العمدة ابتسامة التسامح..

- أنا فقط أريد أن أرشدك لطريقة التعامل الأفيد لك.. في قريتنا جدك له مكانة عظيمة.. والناس إذا علموا بوجودك فسيلقون عليك قدسيته.. وأنت لا يرضيك أن تصيبهم بهذه الدرجة من الإحباط، إذا علموا أن حفيد الخواجة لا يصلي، ولا يساند في المصائب.. خاصة وأن إحباطهم قد ينعكس عليك بمشاعر كراهية قد لا تطيقها.

منصور قرر هذه المرة أن يتشجع ويعبر عن أفكاره بكلمات..

- حاج رضوان.. هل هذا تهديد؟

حافظ العمدة على ابتسامته..

- معاذ الله. لنقل إنني في هذه المرحلة أعرف ما هو خير لك.. أنت لن تخسر شيئًا إن جاريتني.

منصور خطر على باله سؤال لحظتها..

- هل تعلم بسبب قدومي إلى هنا؟

قال العمدة:

- فقط جارني الآن.. وبعد الجنازة، والعزاء، سيكون لنا حديث طويل.

تركه العمدة يقاتل تردده، وعبر الباب المفضي إلى صحن المسجد. منصور لم يجد بُدًّا من اتباعه. المسجد كان مزدحمًا بشكلٍ لا يُطاق. يمكن بلا مبالغة أن نقول إن رجال القرية كلهم هنا الآن؛ بين واقف لا يجد مكانًا للجلوس، وبين منهمك في خشوع ركعتي ما بعد الأذان. منصور بعبوره باب الميضأة سحب أنظار الجميع، حتى أولئك الذين لم ينهوا صلاتهم بعد؛ خاصة وهو كان يتبع ذيل العمدة متخطيًا الرقاب نحو المنبر الخشبي العالي. منصور الغاضب من الاقتحام المستمر من نظرات القرويين لحدوده تساءل عمّا كان سيصبح عليه الحال إن لم يكن يشبههم؟ هو أسمر البشرة أسود الشعر مثلهم، ورغم هذا يرمقونه ككائن فضائي. فماذا إن كان أشقر الشعر، محمر الوجه كأمه؟ منصور حافظ على التصاقه بالعمدة كملاذ آمن، فلما شرع الأخير في صعود المنبر، انتبه إلى أنه قد يكون من غير اللائق اتباعه، فتسمَّر في مكانه، موليًا ظهره للحشد.

العمدة استقر فوق منبره؛ هو منبره بالطبع بلا أية مبالغة، فهنا يخطب في رعيته في صلوات الجمعة، وفي صلاتي العيدين، وفي تراويح شهر رمضان. بشكلٍ قاطع المنبر كان محرمًا على سواه. العمدة من فوق المنبر مد يده للعجوز البدين الواقف في حضن المحراب، فأسرع

يضع في يد العمدة الميكروفون. العمـدة تحدث، وصوته يرتد صداه عبر عشرات السماعات القوية:

- يا أهل الضلال، يا أنجاس.. قلت لكم مرارًا: لا تقنطوا من رحمة الله.. فهـو قـادر أن يطهركم من وسـاختكم.. ويرد لكـم بصيرتكم.. ويجيركـم من عمى القلـوب. وها هو الله يسـتجيب لدعائي.. وببركة المرحـوم الطاهـر، سـيدكم حكيم، أرسـل لكـم مَن ينقـذ رقابكم من النار.. يا أحفاد البقر والجاموس.

العمدة أشار نحو منصور:

- سـيدكم منصور.. حفيد سـيدكم الخواجة.. أتاكم من آخر الدنيا ليهديكم.

المسـجد ارتـجَّ لحظتها بالتكبيـر. العجوز البدين المجـاور للمنبر هتف في وجدٍ:

- بركاتك يا سيدي حكيم.. بركاتك يا سيدي الخواجة.

هديـر الرجال أخاف منصور بقدرٍ ما، فهـو لم يتوقع أن يبلغ جنون الموقـف هـذا الحـد. أراد أن يصـرخ فيهـم ليتوقفـوا، أراد أن يقتحـم تلاصقهم ليفر من المسـجد، ولكن عشـرات الأيادي طالته بالتمسـح طلبًا للبركة. استطاع عندها أن يفلت صرخة:

- توقفوا..!

ازداد الهتاف ضجة، فانتبه إلى أنه نطقها بالفرنسية، فلما صحح الوضع، وصرخها بالعربية، كانت ضجة الجموع أكبر من أن ينفذ صوته عبرها. النجدة أتته في صوت العمدة الصارخ:

- تراجعوا يا حيوانات يا أولاد الحيوانات.

هدأت الحشود، وبدأ تماسكها يتخلخل حول جسد منصور، فاستعاد القدرة على التقاط الأنفاس.

- ساووا صفوفكم.. ساووا صفوفكم، ربنا يأخذكم!

العمدة كان يصرخ غاضبًا، والجميع يهرولون متبعين أمره. في ثوانٍ كانت الصفوف تراصت، والأكتاف والأقدام تلاصقت. العمدة أعاد الميكروفون للعجوز البدين..

- أقم الصلاة يا شحتة.

بصوت متهدج مشروخ، أقام شحتة الصلاة. العمدة هبط عن منبره، استدار مواجهًا القبلة، ومولّيًا ظهره العريض للحشود. رفع كفيه مكبرًا لبدء الصلاة. منصور وقف حائرًا لثوانٍ، قبل أن تجذب ذراعه يد قوية من خلفه، إلى فرجة بين الأجساد الراسمة للصف الأول.

في قريتنا، يطعم العمدة الناس الحكايات، ومنصور كان بذرة لحكاية طازجة. حكاية تهمس في أذن العمدة بأعوام قادمة من إخضاع

العقول والقلوب. حكاية بكر، عطشى للكثير من الأنباء والأخبار والأكاذيب لاقتحام بكارتها، والعمدة - كجراح ماهر - قادر على إضافة طبقات من البكارة، الواحدة فوق الأخرى، فلا يعلم المقتحم متى يخرج من دوامتها منتشيًا.

في قريتنا الحكايات هي السلطة الأكبر، ومنصور مفتاح لحكايات، وخرافات، وأساطير قادرة على توليد ذاتها إلى ما لا نهاية. هكذا رآه العمدة في تلك اللحظة الحرجة من تاريخ قريتنا، لحظة يعرف أنها قد تهدد سطوة الأعوام، لحظة قد تهدم البناء الاجتماعي للقرية، الذي بناه - وآباؤه من قبله - قطعة قطعة بحرص وتأنٍّ، كطفل نبيهٍ يبني من أوراق اللعب هرمًا. مقتل أحد أعيان القرية بتلك الطريقة، حادثة تخفي في المستقبل احتمالات لانقلاب النظام الطبقي، وتفتت الأعمدة الراسخة التي تحمل التراتب البشري لقريتنا. لذلك رأى العمدة في منصور طوق نجاة، لا يعرف بأية معجزة أتاه في تلك اللحظة تحديدًا، ليكون هو الدعامة التي ستسند بناء سلطته فلا تنهار.

العمدة انتهى من صلاة المغرب ليدعو الجمع إلى صلاة الجنازة. تنفيذ الدعوة استغرق وقتًا طويلًا بسبب بلبلة وقعت في الصف الأمامي. منصور تابع الموقف بنصف قدرة على الفهم، فقط فهم أن ذلك العجوز ذا الشال الأبيض المنسدل على رأسه والنظارة السميكة، وذلك الشاب النحيل أبيض الوجه مرتدي الجينز؛ كل منهما يطالب

العمدة بأحقيته في قيادة الصلاة. منصور لا يعرف أن الأول هو الحاج عبد الغني، الشقيق الأكبر للحاج حكيم، رحمة الله عليه. والشاب هو صخر، ابن المرحوم. الحاج عبد الغني يعتقد أنه الأحق بإمامة صلاة الجنازة على أخيه، ولكن صخر كان معبأ بأوامر صارمة من أمه ألا يؤم صلاة والده أحد سواه. مريم لا تعترف بالحاج عبد الغني شقيقًا لزوجها، أو عمًا لولدها، وهو الذي اختار منذ زمن مقاطعتهم اعتراضًا على زواج أخيه من شائعة؛ فلا يحق له - كما ترى مريم - أن يرتدي الآن عباءة الكبير، ويتصدر المشهد في جنازة أخيه الأصغر، متمسحًا في كبراء البلد وأعيانها. العمدة كانت لديه دوافع كافية للميل باتجاه صخر؛ ربما لأنه يعلم أن رغبة صخر ليست سوى امتداد لرغبة مريم، وربما لأن صخر الآن هو الأكثر ثراءً من عمه، الذي لا يعتبر من الأعيان إلا إكرامًا لشقيقه الراحل، في حين أنه حقيقة لا يملك سوى قطعة أرض صغيرة، يزرعها خضراوات، ويستحوذ الحاج سليم على طرحها بالكامل لمصنعه الصغير لتعبئة وتجميد الخضراوات. كما يمتلك مقهى بلديًا عاديًا جدًا، حتى وإن أصر على وضع مسمى "كافيه" على اللافتة المضيئة! دون أن نغفل أن علاقة الشراكة في بعض الأعمال قد تكاثرت، وتشعبت في الأعوام الماضية بين العمدة وبين حكيم رحمه الله. لذا - وبرغم واحد أو اثنين من الأعيان تدخلوا في النقاش، مذكرين العمدة بصغر سن صخر، الذي لم يبلغ بعد عامه العشرين - كان القرار النهائي للعمدة في صالح صخر.

انتهى الموقف على كراهة من الحاج عبد الغني، ووقف صخر منتشيًا، آمرًا الجمع بالاستواء. بعد جهد، وبعد رد أكثر من مرة من الصف الأمامي - خاصة عندما أخطأ صخر مرتين وركع في صلاته - انتهت صلاة الجنازة، وارتفع النعش الخشبي على الأكتاف، وتحركت موجة بشرية بطيئة، تنساب بثقة عبر بوابات الجامع، لتملأ الشوارع صخبًا وتهليلًا. منصور وجد نفسه مدفوعًا بين الأجساد، لم تزل الأيدي تطاله كل حين بالتمسح، حتى أدركه العمدة، ليحيط بيمينه، وشحتة شيخ الخفر يحيط بشماله، فيما يشبه سياج حماية بشري مرتجل. مع الخروج من شوارع القرية الضيقة تخلخل التلاحم، وتفتت الأجساد في البراح، فسهل على منصور السير والتنفس. في بقعة مكشوفة خارج القرية كانت المقابر؛ القبور المحدبة المبنية فوق الأرض، بدت لمنصور كئيبة أضعاف ما اعتاده من مقابر. المساحة الواسعة والشواهد الكثيرة المتراصة، أتاحت له فسحة للوقوف على بعد من الحشد المتحلق حول المقبرة المفتوحة. هواء الغروب في تلك البقعة الفسيحة أنعشه، فالتقط أنفاسه مستعيدًا الكثير من هدوئه وصفاء ذهنه. تجول بعينيه؛ وراءه كانت بيوت القرية منتصبة في تكدسها، تغلفها رمادية الغروب بشجن محبب. إلى الشرق كانت بقعة مرتفعة بانحدار شديد أشبه بتل صغير لا يزيد ارتفاعه ربما على مئة متر، من مكانه كان يلمح الطريق الترابي المؤدي إلى قمة المرتفع، حيث ينتصب قصر فخم، واضح للعيان أنه مهجور. باقي الاتجاهات لم يكن بها سوى المساحات المزروعة. نظره في النهاية توقف عند

نقطة غير بعيدة عنه، في قلب المقابر، حيث وقف نفس الشاب طويل الشعر، الذي رآه من قبل يراقبه وهو في الطريق إلى الجامع. منصور حاول أن يتذكر اسمه دون جدوى. تحديقه في الشاب ربما طال، وهو يحاول أن يتذكر ما قاله محمد عن أولاد مقدسين، أو شيء كهذا، حتى التفت الشاب إليه، فتلاقت الأعين لفترة، قبل أن يبعد منصور نظراته محرجًا. لحظتها بلغه هدير كلمة "آمين" فعاد إلى تأمل طقوس الدفن. كان الأمر - كما بدا له - قد انتهى، والقبر انغلق. العمدة الآن يطلق الأدعية للراحل، والحشد يؤمِّن وراءه. عندما انتهوا، انفصلت تلك المجموعة الصغيرة عنهم، بضعة رجال اصطفوا عند طريق الخروج من المقابر، العمدة يتصدرهم، بجواره صخر ابن الحاج حكيم، ثم الحاج عبد الغني. الحشد تفكك، وواحد في عقب الآخر، بدأ الرجال يتقدمون في طريق خروجهم، لتعزية أقارب المرحوم. منصور لم يفهم ما يحدث، شحتة أتاه مهرولًا لحظتها، لاهثًا بفعل العمر وارتجاج الجسد البدين المترهل. دعا منصور:

- تعالَ لتعزي.

منصور لم يفهم المطلوب منه. شحتة لاحظ حيرته، فمد يده برفق يسحبه من ذراعه. منصور الذي لم يعتد طوال حياته على اللمسات الزائدة لجسده، بات يعتقد الآن - وبعد قرابة الساعة فقط في القرية - أن ذراعه خلقت ليسحب منها! شحتة قال له شارحًا:

- مد يدك وصافحهم...

أشار إلى صف الرجال..

- وقل أي كلمة تواسيهم بها.

- ماذا أقول؟

- قل: البقية في حياتك.

منصور لم يفهم معنى هذا القول؛ عن أية بقية يتحدث؟ ولأنه لم يعتد حفظ ما لا يفهمه، فقد تبخرت الجملة من رأسه بمجرد أن صافح أول كف. أمسك بالكف لفترة مرتبكًا، يبحث عما يقوله. في النهاية هداه عقله ليقول:

- في الجنة..

مضى بنفس الكلمة يعزي باقي المصطفين، فلما بلغ صخر فوجئ به يعانقه بحرارة ويقبل خديه. منصور أسكتته المفاجأة، وصخر يقول:

- ادعي له بالرحمة.. ادعي له بالله عليك يا سيدنا.

منصور لم يجد قولا ينجيه من الموقف سوى:

- سأفعل.

ثم هرول مبتعدًا، دون أن ينتبه إلى أن كل من تلاه من معزين استخدموا ذات الكلمة..

- في الجنة!

كاد يبلغ حدود المقابر عندما وجد شحتة - مهرولًا وراءه - يناديه. توقف شفقة بالعجوز الذي ينبئ شكله وهو يهرول باحتمال سقوطه ميتًا في أية لحظة. بلغه شحتة..

- انتظر العمدة.

منصور سأله:

- هل انتهت كل الطقوس؟

شحتة احتاج وقتًا لفهم المقصود من مصطلح "الطقوس"، فلما فهم قال:

- باقي فقط العزاء في دار العمدة.

منصور كاد يجاهر بفيضان الكيل، لولا تلك الكف التي وجدها مبسوطة نحوه؛ كانت لرجل ستيني، يرتدي ذات الجلباب والعباءة الحريرية كاللتين يرتديهما العمدة، لما مد منصور يده مصافحًا، فوجئ بالرجل يجذبه نحوه ويقبل خديه..

- نورت يا سيدنا..

منصور كان جسده يرتجف لإحساس البلل في خديه، لا يريد سوى أن يبتعد الرجل، ليخرج منديلا مطهرًا يمسح به وجهه، ولكن ما فعله الرجل كان كإشارة جذبت المزيد، وفي الدقائق التالية سيتلقى منصور على خديه عددًا من القبلات يساوي ربما كل ما منحه لعشيقاته من

قبل، حتى إن نفسه حدثته بأن استمرار هذا الوضع لفترة أكبر، سيحوله بالتأكيد إلى شاذ جنسيًّا! الموقف انتهى - لحسن حظه - لحظة أن تعالت صيحات عراك وسباب. أجفل الجميع، إلى حيث كان صخر ابن الحاج حكيم ثائرًا، يرمي بقاموس السباب القذر على رأس الشاب طويل الشعر. المفهوم من الصياح أن صخر يرفض بكثير من الاستعلاء أن يعزيه هذا الشاب، وبمنتهى التحقير يطرده من المقابر ذاتها، وكأنه يملكها. الشاب طويل الشعر لم يكن يجيب سوى بصمت وبنظرة نارية، لم يعرف منصور كيف لم تصب صخر بشلل الخوف. صخر تمادى وانحنى يلتقط حجرًا من الأرض مهددًا الشاب طويل الشعر بتهشيم الرأس. الرجال حولهما توتروا، منهم من جذب صخر إلى الوراء، ومنهم من دفع الشاب طويل الشعر ليبعده. وفي هذا الشاب تحديدًا كانت صرخة العمدة:

- امشِ يا ولد من هنا. هو لا يريدك أن تعزيه.

الشاب اتجه لمغادرة المقابر، لم تزل عيناه تطلقان النار، وفي لحظة تلاقت مع نظرات منصور، ارتسم على وجهه شبح ابتسامة. شحتة ضرب كفًّا بكف وحوقل كثيرًا. منصور سأله، منشطًا ذاكرته:

- من هذا الشاب؟

قال شحتة:

- اسمه صخر.. عيل متشرد.

- ولكن ماذا عن الأولاد المقدسين.. من هم الأولاد المقدسون؟

شحتة تعجب..

- من أخبرك عنهم؟

- الشاب الذي أخذني إلى العمدة.

شحتة تمتم بلعنات على رأس الشاب الغبي منفلت اللسان، وبحكمة قال:

- دع أمرهم للعمدة.. هو من له حق إعطائك التفسيرات.

ولكن في فضول منصور مزيد من الظمأ لم يروَ بعد. أشار إلى القصر فوق المرتفع..

- وهذا القصر.. لمن؟

شحتة أجابه:

- هو قصر نعمان باشا.. رجل إقطاعي قديم.. كانت كل أراضي القرية ملكه في يوم من الأيام. والآن قصره مهجور.. ويقال إن وزارة الآثار تريده. ولكن أشباحه تمنعهم.

- أشباح؟!

- معروف في القرية، وفي المحافظة كلها، أن القصر مسكون.. يقال إنهم أشباح الفلاحين الذين كان يعذبهم الباشا في قصره.

تقلصت أمعاء منصور. كاد يسأله عن المزيد، لولا أن أدركهما العمدة لحظتها آمرًا:

- هيا بنا.

***

منصور تحمل الجلوس على الحصير الخشن حوالي الساعتين في فناء دار العمدة، ينصت مجبرًا لتلاوة قرآن لا يفقه منه الكثير، من صوت شحتة الأجش اللاهث. كادوا يجبرونه على شرب سائل أسود شبه لزج، شنيع المذاق، مدعين أنه قهوة، لولا أن رفض بعد أول رشفة، مدعيًا علة تمنعه عن تناول الكافيين. ربما ما منع أهالي قريتنا عن الإلحاح حينها، أنهم لم يفهموا ما هو هذا الكافيين. منصور تحمل جولة أخرى من الصلاة، ثم جولة أخرى من التلاوة، في النهاية، فرشت الحصر بالأطباق وبدأت طقوس سفك الطعام على روح المرحوم. منصور كان يتضور بالتأكيد، ورائحة الطعام كانت مغرية، الأزمة كانت في اضطراره لمواجهة موجات الكرم من العمدة والأعيان المحيطين به، والتي بلغت حد دس الطعام في فمه؛ خاصة أنه لم يكن يعلم أن الملاعق يمكنها أن تحمل كل هذا الثقل من الطعام! في النهاية وجد نفسه في حمام الضيوف يتقيأ ما أكله. برغم هذا كانت لحظة سحرية؛ مساحة من الخصوصية كاد أن ينساها، حتى إن عقله بدأ يحسب عاقبة إن هو بقي في الحمام إلى نهاية الكون. ولكن طبيعة الحياة تحتم أن يغادر الحمام مهما طالت إقامته، فلما خرج وجد العمدة بنفسه في

انتظـاره، قاده إلى قاعة واسـعة مفروشـة بأرائك مريحـة. طلب منه أن يجلس على راحته، وخرج على وعد بعودة بعد دقيقة.

كانـت كلحظـة سـحرية ثانيـة. من ناحيـة، بـات واثقًـا أن طقوس العـزاء انتهـت أخيرًا، وأن الجمع سـيتفرق بعد الإجهـاز على الطعام. ومـن ناحية أخرى، الأريكـة كانت مريحة بحق، أو ربمـا إجهاد البدن مـا جعلهـا في هذه اللحظـة أكثر من كافية، حتى إنه نـام بعد ثوان قليلة من اسـتواء جلسـته. أفـاق بعد وقت لـم يقدره، على صـوت اصطدام معدنـي. كانت صينيـة ضخمة مترعة بأنواع الفاكهـة توضع أمامه على السـطح النحاسـي للطاولة المتوسـطة الحجرة. الصينية اسـتقرت في مكانها الجديد، لتفارق الكفين الدقيقتين البيضاوين لفتاة جميلة كانت تحملهـا. منصـور لم يكـن ليصدق أن العيـون الزرقاء متوفـرة في هذا المكان، لولا أن رآها بعينيه. اللون الأسود الذي يلف كامل البدن عدا الوجه، جعلها كمنارة تتوهج شـعلتها البيضاء جاذبة الشـارد المنهك. ملامحهـا المحـددة باحمرار الخديـن - منصور لم يـدرك أنه احمرار خجـل من طول تطلعه إلـى وجهها - دقيقة حالمة كملامح آنيت، وإن لونتها فتنة بنات ألف ليلة، اللواتي طالما حلم بهن. شفتاها المكتنزتان وحدهمـا، تصلحان كأيقونة للغوايـة. منصور لـم يخرج من تصوفه في ملامحها سوى على يدها ممدودة أمام وجهه بثمرة موز. هنا كان يجب أن يعود لواقعه..

- ما هذا؟

ابتسمت خجلى، فتوهجت جمرتا الخدين..

- تفضل.. حلي..

هو لم يفهم كيف يمكن لإنسان بعد أن أكل، أن يأكل ثانية من باب التسلية. ولكنه قبل الطعام من أيد متشققة، منتفخة، مسودة الأظافر، فكيف يرفضه من يد مرمرية كتلك. منصور تناول ثمرة الموز، وأكلها مبتسمًا. بادلته الفتاة ابتسامة، ثم دارت برشاقة، مغادرةً.

منصور لم ينتظر بعدها طويلًا، حتى فتح باب القاعة ودخل منه العمدة، وبضعة رجال، هم أكبر أعيان القرية. الوجوه كانت مشرقة بابتسامات عريضة، والأصوات كانت تتعالى بالترحيب الحار. تراصوا حول منصور على الأرائك، وكل الأعين تتلاقى على وجهه. سعداء كانوا بأن واتتهم فرصة الاستحواذ على الضيف الهام، بعيدًا عن رعاع القرية. العمدة يعرف، والأعيان يعرفون، أن ضيفًا بهذه الأهمية يجب ألا يغادر دائرتهم الصغيرة. منصور تجاوز عن كل تلك المبالغات التي اعتادها اليوم، وهيأ عقله لبدء حوار جاد ومباشر أخيرًا، عساه الآن وقتًا لفهم كل ما غمض عليه، منذ لحظة فض الرسالة، وحتى هذه اللحظة.

- والآن يا حاج رضوان.. يمكن أن نتحدث كما وعدتني.

ابتسم العمدة..

- التعارف أولًا..

ثم بـدأ يعـرف بالحاضرين. منصـور كان يعـرف وجوههم، كلهم مـروا أمامه، كلهـم صافحوه وقبلوا خديه، كلهم تمسـحوا في جسده متباركين، ينقصه أن يعرف الأسماء والصفات..

- الحـاج سـليم.. مـن أكبـر أصحـاب الأراضـي الزراعيـة، في المحافظـة كلهـا ربمـا، ويملـك مصنعًا هنا في القرية لتجميـد وتعبئة الخضراوات.. إنتاجه الآن، باسـم الله ما شـاء الله، يباع في محافظتنا ومحافظتين مجاورتين.

الحاج سليم كان يهز رأسه في تواضع، وعند نهاية النبذة التعريفية، قـام مادًا يـده لمصافحة منصـور للمرة الألـف تقريبًا، فقـط ليقول بلا كلمات، إنه المقصود بهذا الثناء.

- الحاج عبـاس الأحمدي.. تاجر أجهزة كهربائية. كذلك يملك علـى حـدود القرية أرضًا مـن أجود أنـواع الأراضـي الزراعية، لكنه أجرهـا منذ زمـن لمصنع الحديـد والصلب القريـب، لإقامة مخازنه عليها.

الحاج عباس فتح فمه ليقول شيئًا، لكن العمدة التفت سريعًا لمن يليه..

- الحـاج محمـد الحديدي.. هـو صاحب أكبر سـوبر ماركت في البلد.. له فضل عظيم على قريتنا.. يكفي أنه أول من أدخل البسطرمة واللانشون والجبن الشيدر للقرية.

ضحك العمدة وضحك الرجال، عدا الحاج محمد الحديدي، كان جادًا وهو يضيف على كلمات العمدة:

- أنا رجل بنيت نفسي.. بدأت حلاقًا، ثم بقال مواد تموينية، وما زلت. ثم فتحت السوبر ماركت، وفتحت لابنتي الوحيدة رحمة دكان كوافير لتسلي وقتها.. فالبنت نبيهة، وماهرة.. والله يا سيدنا.. بنت ممتازة.. والحمد لله أنها لا تشبهني.. تشبه جدتها لأمها.. مثل القمر.

منصور ربما لم يفهم جدوى تطرق الحديث بهذا التركيز ناحية ابنته، ولكن باقي الحضور فهموا، وتغامزوا سرًّا.

- الحاج محمد أبو اليزيد.. عائلة أبو اليزيد من أكبر العائلات في القرية، يملكون نصيبًا هائلا من الأراضي الزراعية..

الحاج أبو اليزيد قاطع العمدة، راغبًا في تقديم نفسه بنفسه..

- كل التطور الحادث في القرية لا يعنيني.. أنا فلاح.. وسأموت فلاحًا. لذلك لم أعرف عملا سوى الإشراف على زراعة أرضي. أزرعها كل شيء تقريبًا.. قطن.. غلة.. خضار.. فاكهة.. أولادي الذكور ربنا يحميهم هم من أدركوا التطور. أحمد الكبير فتحت له أكبر مقهى في البلد.. وحسن الأوسط مدرس ثانوي في البندر.. وعفيفي آخر العنقود، فتحت له محل موبايلات.

العمدة استعاد دوره سريعًا..

- الحاج عبد النعيم.. رجل عصامي حقيقي.. من عائلة متواضعة. أبـوه، رحمة الله عليـه، كان أجيرًا في أرض جدي. ولكن بفضل ذكائه ومثابرتـه.. الآن هو واحـد من أكبر المقاولين فـي المحافظة.. يمتلك شركة مقاولات في البندر، لها معاملات مع الحكومة.

تدخل الحاج محمد الحديدي..

- والأهم أنه عريس جديد.

انفجـروا جميعًـا ضـاحكيـن، بينمـا احمر وجـه الحاج عبـد النعيم خجـلًا. منصور لم يفهم موضـع الفكاهة في هذا القول، فلم يضحك. العمدة حاول التفسير:

- عبـد النعيم أكبرنا سـنًّا.. تجاوز السـتين بزمـان.. ولـم يتزوج إلا العام الماضي.. من فتاة عشرينية.

ثم ضحك، فلم يضحك كذلك منصور. الحاج عبد النعيم وجدها فرصة لالتقاط الحديث، في شبه دفاع عن نفسه..

- سنوات الشقاء طالت بي.. منذ العمل في المعمار في ليبيا لقرابة العشـرين عامًا.. ليس من السـهل أن تتحول من الفقر إلى الثراء.. لابد أن تضحي بأشياء عدة. ولكن لكل وقت أذان.. الآن أنا كبرت.. ولابد مـن وجـود أحد بجواري، يرعانـي ويهتم بي. ليس كمـا يفعل الخدم، وإنما بمحبة وعطف.

لم يبقَ من الحاضرين سوى شخص، قال عنه العمدة:

- المقدس ديب عبد الملاك.. قبطي صحيح لكنه بمئة رجل. أفندي قديم.. كان يعمل موظفًا في مديرية الإسكان في المحافظة. عقلية اقتصادية من الدرجة الأولى، مثل جميع المسيحيين.. فأصبح مع الزمن يمتلك أكثر من تجارة رابحة في القرية.. مكتبة، وسوبر ماركت، وبوتيك لملابس الأطفال، وآخر لملابس المحجبات.. وكل محلاته سماها على أسماء ولديه، مينا وكريستين، حفظهما الرب.

التقط ديب الحديث..

- كذلك أنا سمسار شقق وعقارات في المدينة.. لو أردت امتلاك شقة فاخرة على النيل في المدينة لا تتردد.. فقط أخبرني.

العمدة ضحك..

- كما قلت لك.. عقلية مالية في المقام الأول.

منصور - مع انتهاء التعارف- كان قد نسي تقريبًا كل الأسماء والأوصاف التي سمعها. في نظره ليسوا أكثر من مجموعة من الرجال المتشابهين في كل شيء، لا سمة واحدة يمكن التقاطها لتمييز أحدهم عن الآخر، عدا سمات شكلية تافهة، لا تدخل في أصول الحالة الإنسانية؛ مثل من له شارب ومن حليق الوجه، أو أيهم أبيض الشعر، وأيهم مصبوغ الشعر. ولكن في عموم السمات، وجدهم كلهم في عمر متقارب. كلهم يرتدون ذات الزي، الجلباب والعباءة، وبألوان متقاربة. كلهم يقبض على مسبحة، يداعب حباتها كلما تذكر وجودها

في يده، وحتى الرجل المسيحي بينهم. حتى الملامح والأصوات بدت لحواس منصور متشابهة؛ وكأنهم كتلة واحدة، مثل جوقة على مسرح إغريقي.

- تفضل يا حفيد الغالي.. أرى في عينيك أسئلة كثيرة.

كانت تلك كلمات العمدة. منصور لم يفهم سبب المقولة المحملة بالحكمة "أرى في عينيك أسئلة كثيرة"، فهو كما يذكر، سبق وأخبر العمدة من قبل أن لديه أسئلة كثيرة! منصور أخرج من جيب قميصه الخطاب المطوي، أطرافه قد تبللت من عرق الجهد والتزاحم طيلة الليل. منصور تحرج أن يمسك أحدهم بالخطاب على هذا الحال المقزز، فضه بحرص حتى لا يهترئ، يعتزم قراءته بنفسه. على سبيل المفتتح قال:

- هذه الرسالة وصلتني في فرنسا.. مرسلة من قريتكم...

أقرب الرجال إليه خطف منه الورقة، لم يبالِ باحتمالات تمزقها، وضع الكلمات أمام عينيه معلقًا:

- فعلا.. الرسالة مكتوبة باللغة العربية.

العمدة سأل الرجل متهكمًا:

- أتعرف القراءة يا نعيم؟

- لا يا حاج.. أنا فقط أتأكد من أمر الرسالة.

العمدة مد يده، فوضع الرجل فيها الخطاب. قرأ العمدة المكتوب بسرعة، ثم ناول الخطاب ليد أخرى ممدودة تطلبه..

- ومن المرسل؟

سأل العمدة، فكانت الدهشة من نصيب منصور..

- كما قرأت.. التوقيع "أهالي القرية"..

ابتسم العمدة..

- أهالي القرية لا يجيدون الكتابة إلا قليلًا.. وأغلب هؤلاء "القليل" جالسون معك الآن.

- أنا عن نفسي لا أعرف شيئًا عن هذه الرسالة.

كانت هذه من الرجل الممسك بالرسالة. رجل آخر قال نافد الصبر:

- اقرأ لنا المكتوب.. دعنا نفهم.

الرجل الممسك بالرسالة قرأها ببطء، ضاغطًا على الحروف، موضحًا معاني الكلمات. أعقب قراءته سؤال طرحه العمدة..

- من منكم يعرف شيئًا عن تلك الرسالة؟

الجميع أجابوا بالنفي، ما بين كلمات قاطعة، وهزات رأس كسولة. منصور تطور توجسه إلى غضب صريح، وقد بات الوضع ينذر بلا

جدوى كل ما مر به منذ أن قرر مغادرة بلده، سعيًا وراء هواجس حمقاء من طفولته..

- ماذا تعنون؟! أنني كنت ضحية خدعة؟! مقلب أحمق ما؟!

منصور صرخ بتلك الكلمات، وقد قرر أنه الأوان المناسب للانفجار..

- اهدأ يا سيدنا.

قالها أحدهم. العمدة تدخل بلهجة هادئة، وابتسامة مريحة..

- ربما كانت خدعة.. وربما لا. ففي النهاية ما ورد في الرسالة به الكثير من الصحة.

منصور علق بصره على العمدة..

- بمعنى؟!

باب القاعة فتح، بعد طرقتين خجولتين وأمر من العمدة بالدخول، ليعبره شحتة، وفي أعقابه بضعة خدم يحملون النارجيل والأكواب وزجاجات مياه غازية كبيرة، وصينية شاي، ومنقد للفحم المتقد. وضعت الأحمال بترتيب مدروس أمام الجالسين. شحتة أمر الخدم بالانصراف، وتربع على الأرض بجسده الضخم المرتج، كتجربة تليق بفقرات السيرك. الصمت حل على الحاضرين، فاحترمه منصور برغم جهله بما يفعله شحتة، فهو لم يطلع من قبل على خطوات تجهيز

قطعة من الحشيش لرصها بأنصبة متساوية على النارجيل المنتصبة بعدد الجالسين. منصور لم يجد فيما يحدث داعيًا للمراقبة الشغوفة، فحاول العودة بالحديث إلى مساره المنطقي..

- ماذا كنت تقصد بكلامك يا حاج رضوان؟

العمدة استمر فيما بدا لمنصور كألاعيب كلامية، ربما لأن منصور لا يعرف شيئًا عن كرم الضيافة الريفية، وأصولها..

- تأخذ واجبك أولًا.

وكأنها إشارة لشحتة، وجد منصور طرف خرطوم النارجيلة يمتد إلى شفتيه، يكاد يقتحمهما. بعصبية حاسمة قال:

- أنا لا أدخن.. ولا أنوي أن أفعل قريبًا.

شحتة هز رأسه بحكمة العمر المديد..

- لا تقلق.. كيفك عندي.

أحد الحضور تبرع بمناولة منصور كوب الشاي الساخن..

- اشرب الشاي إذن كبداية.

- لماذا تعتقدون أن الشرب والتدخين أكثر أهمية من أزمة أعيشها؟!

العمدة قال:

- حسنًا.. دعنا أولًا ننهي إشباع فضولك.

- أتمنى هذا.

العمدة تناول خرطوم نارجيلته من يد شحتة الممدودة إليه، سحب نفسًا ثم حرر الدخان الأزرق من محبسه..

- ربمـا لا يعرف أحدنا بأمر هذه الرسـالة، ولكن، وهذا غريب، ما ورد فيهـا لا يمكن وصفـه بالكذب. فلجدك بالفعـل مكانة عظيمة في قلوبنـا.. رغـم أننا لـم نحضـره، ولكن حكايات الأجـداد عن معجزاته وكراماته، هي ما نشأنا على سماعه. وبالفعل له بيننا ما يمكن أن نعتبره إرثًا.. ولكن يستحيل أن تتسلمه.

- عن أي إرث نتحدث هنا؟

- الفابريكة.

قالها العمـدة مكتفيًا بصدى نطقها المحلق فوق رؤوسـهم. النطق كان غريبًـا على أذن منصور، ولكنه التقط بسـهولة التشـابه مع الكلمة الفرنسـية fabrique، وتذكـر أن الشـاب الذي لاقاه عنـد مدخل القرية ذكر شيئًا عن مصنع قديم..

- تقصد مصنع جدي؟

هز العمدة رأسه..

- هـو مصنـع قديم.. مغلـق منذ قرابـة القرن.. تحديـدًا منذ رحيل الخواجة عن القرية.

- هذا هو الإرث؟! مصنع مهجور؟!

- إن كنت فعلًا الوريث الوحيد للخواجة فالمصنع ملكك الآن.. هذا حقك.. ولا يمكننا إنكاره. ولكنه إرث يصعب عليك أخذه.. أولًا لأنه مجرد مكان خرب لا نفع له.. ثانيًا لأنه مكان يحمل قدسية لنا في القرية، ولا نستطيع التنازل عنه ببساطة.

كلمات العمدة لم تشبع فضول منصور بقدر ما أثارت المزيد من الثغرات في جدار الفهم. واحد من جوقة الأعيان خرج عنهم بنغمة منفردة، قائلًا:

- إن شئت يمكننا منحك ثمن الأرض المقام عليها المصنع.

منصور هز رأسه..

- المسألة لا علاقة لها بالمال.. أنا ما أتيت إلى هنا لهذا؟

صمت بحثًا عن أفكار أكثر ترتيبًا، وكلمات أفضل وقعًا، ثم قال:

- حدثوني عن جدي.. عن مصنعه.. أنا مشتاق للمعرفة أكثر من المادة.

قبل أن يجيبه أحد، امتدت إلى وجهه مرة ثانية يد شحتة، تحمل هذه المرة كوبًا مملوءًا بسائل أحمر قانٍ..

- قبل أي كلام تذوق نبيذي.

شحتة قالها بفخر لم يدرِ منصور سببًا له، لولا أن العمدة فسره..

- شحتة يصنع أجود نبيذ في مصر.

شحتة أمن على كلمات العمدة..

- تذوقه يا سيدنا.. والله ستجده أفضل من نبيذكم الفرنساوي.

منصـور أدرك أنه لن يحقق شيئًا مما يصبو إليـه إن لـم يجارهم في طقوس ضيافتهم المبالغ فيها، ولو بنذر يسير. مد يده يرفع الكوب إلى فمه، وشحتة لم يزل يتحدث:

- السر في التقليب الهادئ المستمر.. يجب أن يمتـزج العنب والسكر والخميرة بشكل تام.. حتى وإن أصاب الشلل ذراعيّ.

الرشـفة الأولى تركت في فم منصور - بصحبة طعم النبيذ - نكهة لاذعة، شابها شيء من مرارة. برغم هذا قال كاذبًا:

- رائع!

- بالله عليك.. أليس أفضل من النبيذ الخواجاتي؟

- أفضل بمراحل.

قالها وأخذ رشـفة أخـرى تأييدًا لرأيه، فعلت وجه شـحتة تعبيرات سعادة طفولية، وأخذ يملأ الأكـواب لباقي الحضور مـن الزجاجات التي ظنها منصور في البدء مياهًا غازية. العمدة مع أول رشفة تحدث، عائدًا إلى نقطة التوقف:

- منـذ أكثر مـن قرن كانت تلـك القرية، والأراضـي المحيطة بها، وحتى أجزاء مما وراء حدود المدينة، مملوكة لإقطاعي من نسل عائلة

تركية عريقة، يقال إنهم من أصهار السلطان العثماني. نعمان باشا كان هو اسمه.. عاش في قصره على حدود القرية.. لا أحد يعرف لماذا ترك المدن بسحرها وعاش هنا مقطوعًا عن العالم.. يقال إنه عاش وحيدًا بلا زوجة، وإنه اتخذ من نساء وبنات القرية كلهن محظيات (هنا العمدة غمز بعينه اليمنى).. ويقال أيضًا إنه تزوج أكثر من مرة ولكنه كان عقيمًا، ولهذا ضاع إرثه بوفاته، ولم يبق من ذكراه سوى ذلك القصر المهجور، المسكون بأشباح متعطشة للدم، لا تعرف الرحمة.. يقال إنها أشباح الفلاحين الذين كان يحتجزهم في القصر بحجة ارتكاب الجرائم مهما بلغت تفاهتها.. كان يأمر عبيده الأفارقة بتعذيبهم، بينما يتفرج مستمتعًا.. يحكى عن أشخاص ماتوا لكثرة التعذيب، والتهمة ما زادت على سرقة رغيف خبز، أو ثمرة فاكهة.. التعذيب كان متعته وسلواه.. يقال إنه ما كان يغلبه النوم إلا على صوت صرخات المعذبين.. ويحكي آخرون أن أشباح القصر ليسوا سوى أرواح زوجاته اللاتي عذبهن وأذاقهن ما لا يحتمله بشر، انتقامًا منهن لعجزهن عن منحه الولد.. حكايات تتباين، ولكن تبقى أشباح القصر حقيقة طالما ذاق الفلاحون من ويلاتها.. كما ذاق أجدادهم من ويلات على يدي الباشا في حياته. حتى جاءهم ملاك منقذ.. هو جدك الخواجة رحمة الله عليه.

في تناغم مدروس هتفت جوقة الحاضرين تأييدًا لدعاء العمدة:

- رحمة الله عليه.

العمدة أكمل:

- يقـال إن الخواجة حل بقريتنا مصادفة أثناء ترحاله مع ابنه، وقت أن كادت الكوليـرا تقضـي علـى أهلها. الخواجـة كان عالمًا، صاحب كرامـات ومعجزات.. فـي دقيقة صنع الدواء، ورماه فـي الترعة، وأمر الناس بالاسـتحمام فيها والشـرب منها، فبرءوا جميعًـا.. الناس كانوا سـذج بسـطاء، لا يعرفون عن الحياة سوى الزرع وسـوط الباشا.. لما قصـوا علـى الخواجة قصصهم، أشـفق عليهم، وقـرر أن يطيل المقام بالقريـة، وكأنمـا وجد فيها ضالتـه. بنى على أرضهـا الفابريكة.. بيديه وبأيـدي الفلاحيـن صنـع ماكينة المعجـزات.. يقـال إن ماكينته كانت تأتمـر بأمـره، كالجن في الحواديـت، لا يطلب منها شـيئًا إلا وفعلته.. بارك الزرع، فكان الثمر يتهاوى عن الأشجار يوميًا بغزارة المطر، حتى تعـب الفلاحون من جمعه، وترجـوا الخواجة أن يتمهل عليهم.. بارك البهائـم، فكان اللحم واللبن يفيضـان على القرية، فـلا يمنع عن بيت متعتهما...

إغـراء اللحظة أفقد الحاضرين القدرة علـى ضبط النفس، فتوالت مشاركتهم. أولهم قاطع العمدة..

- يقال إنه كان يشفي المرضى ويحيي الموتى.

- يقـال إن الدميمـة كانت تعبر بابًا في المـاكينـة، فتخرج من الجهة الأخرى بدرًا.

- يقال إنه كان ينزل المطر ويفيض النهر.

- جدي أقسم لي إنه رآه بعينيه ينفخ في الأرض فتنبت منها بيوت من طوب لسكن الفلاحين.

العمدة ضجر بسلسلة المقاطعات، فقال رافعًا صوته لاستعادة السيطرة:

- كلها أقاويل.. والكثير غيرها لم يزل يروى في قريتنا.. كلها تحكي عن سيدنا الخواجة وكراماته.. ما يهمنا أن الباشا استخسره في الفلاحين.. حاول جهده أن يستأثر وحده بمعجزات الخواجة.. أغراه بالأرض والذهب، ولكن الخواجة قال له: هؤلاء البسطاء عندي يساوون أكثر من كل ذهب الأرض.

أحدهم قاطع العمدة من جديد:

- بل قال: لو منحتني وزن كل أهالي القرية ذهبًا، فو الله هم عندي أغلى وأعلى.

الحضور كبروا وهللوا في صوت واحد تأثرًا، فعاد العمدة يرفع صوته أكثر فأكثر:

- حتى إن الباشا هدد الخواجة بذبح ابنه إن لم يخضع له، ولكن الخواجة بقي على عهده. فلما اشتد عليه الصراع، حمل متاعه وولده وغادر القرية هاربًا، تاركًا بها مصنعه وماكيته تذكارًا مقدسًا.

الصمت التام هذه المرة دل على انتهاء الحكي. الحاضرون دفنوا نظراتهم بين أرجلهم؛ يهزون الرؤوس استساغة لعمق المواعظ العالقة في الحكاية. يتعالى صوت كركرة الماء في النارجيل، ويشبع الدخان المخدر أجواء الحجرة. منصور يرجو الشجاعة اللازمة لسبهم وسب آبائهم، قبل أن يتذكر أنه بالفعل يملك الطريقة..

- تبًا لجهلكم.. يا أغبياء يا شلة المخنثين!

نطقها بالفرنسية، فلا يعلم لماذا كبّر أحدهم منتشيًا! منصور ساءل نفسه عن كم الحماقة اللازمة ليصدق أي شخص مثل تلك الخرافات. الأزمة أنهم ينتظرون منه تعليقًا، وهو لا يملك أي تصور عن الفعل الأنسب؛ هل يصارحهم برأيه؟ أم يجاريهم؟ تلقائيا، مد يده بالكوب الفارغ يطلب المزيد. شحتة المنتشي بهذا الطلب، سارع بملء الكوب إلى آخره. منصور جرع ما زاد على نصفه، ثم قال:

- ما حكيتموه أمور يصعب تصديقها.. آسف جدًّا.

أحدهم استغفر الله، وآخر قال:

- معقول؟! حفيد الخواجة لا يؤمن بكراماته!!

- لا تنسَ أن هناك أزمة في الزمن.. الفترة التي تحكي عنها في عمر جدي، يفترض أنه تجاوز المئة وثلاثين عامًا وقتها..

الأعيان قاطعوه بالتهليل، والتكبير لسبب لم يعلمه. في حين قال العمدة:

- معقول؟! نحن لا علم لنا بأمر كهذا.. حكايات الأجداد لم تحدثنا بعمر الخواجة.

منصور قال:

- بالضبط.. لأنها حكايات كاذبة.. أنا أعرف أن جدي كان عالمًا ومخترعًا، وربما يأتي بأعمال تعتبر بالنسبة لبعض البسطاء من قبيل المعجزات.. كما أعرف أنه كان معمرًا، وعاش حتى تجاوز المئة عام بكثير.. ولكن لا أظن أن سنه المتقدمة هذه كانت تسمح له بعمل أي شيء مما تتحدثون به.

العمدة قال:

- يبدو من كلامك أنك لا تعرف الكثير عن جدك.. فكيف تنفي وقائع حكاياتنا بهذه الثقة؟!

الجوقة رددت كلمات لتأييد عمدتهم، بأصوات عالية حماسية، فقرر منصور الاستسلام، بل وزاد عليه الندم على قوله السابق..

- هذا صحيح.. جدي لم يترك في فرنسا أي أثر له سوى بعض الحكايات.

العمدة سأله:

- وماذا عن علمه؟ يقولون إنه لما غادر القرية منذ مئة عام، كان معه دفتر دون فيه أسرار اختراعاته ومعجزاته.

- لا أعرف شيئًا عن هذا الدفتر.

منصور أفرغ ما بقي في الكوب..

- ولكن ما حال الفابريك الآن؟

تبادل العمدة النظرات مع أعيانه، ثم قال وكأنما قرأ في أعينهم الرغبة في المصارحة:

- الفابريكة بقيت لعشرات الأعوام بناءً مقدسًا يتبارك به أهل قريتنا. حتى صارت منذ زمن بيتًا قدسيًا لأولاد القرية المقدسين.

منصور انتبه لحظتها إلى الأثر القوي لما شربه؛ كوبان من نبيذ شحتة أدارا رأسه وكأنما شرب زجاجة من نظيره الفرنسي. كان يجاهد ليبقى متمسكًا بأطراف الأفكار..

- أنا سمعت الليلة عن هؤلاء الأولاد المقدسين أكثر من مرة.. فمن هم؟

ابتسم العمدة، وبلهجة أكثر حسمًا قال:

- بعض حكايات قريتنا يفضل أن تبقى داخل قريتنا. ربما إن اخترت أن تصبح واحدًا منا، فتحنا لك قلوبنا بكل الحكايات.

منصور غالب فضوله وهز الرأس مبديًا تفهمًا كاذبًا:

- خياري الآن هو النوم.. أنا لم أنم منذ زمن.

قالها بلهجة حزينة، وكأنما يحكي عن أمنيات مستحيلة. الحزن في الحقيقة كان ينبع من النبيذ، وليس مما يقوله. الحزن هو ما استدعى ضحكات العمدة..

- أمر بسيط.. حقائبك سبقتك يا سيدنا إلى حجرتك.

ثم وجه لشحتة أمرًا باصطحاب الضيف الغالي إلى مستقره. منصور، ضاعف من تعبه مراقبته لمحاولة شحتة النهوض من الأرض. وربما بسبب النبيذ، تصوره كسلحفاة مقلوبة على ظهرها تجاهد للاعتدال.

بعد دقائق، كان منصور متهاوي الجسد بملابسه على الفراش. حتى إنه لم ينتبه أنه أجاب تحية شحتة اللاهثة..

- تصبح على خير.

بعبارة فرنسية..

- إلى الجحيم أيها الخنزير العجوز.

***

منصور بدأ يومه الثاني في قريتنا، باستيقاظ إجباري على ضوء قوي للشمس، متسلل من فتحات النافذة المغلقة، يملأ الحجرة الصغيرة بما لا يطيقه سلطان النوم؛ فكان عليه أن يهرب سريعًا عن العينين الأسيرتين.

لم يكن استدعاء النوم في مكان غريب بالأمر الهين على عقل منصور؛ وحتى بعد يوم شاق كيوم أمس، ناهيك عن الحر، والملابس

المعجونـة في عرقه. المروحة الكهربائية المنتصبة قريبًا من فراشه لم تفعل سـوى إضافة متاعب جسـدية لمتاعب نومه النفسية. لكل هذا، كان عليـه أن يرضـى بالغفوات المتقطعة حتى ولـو امتلأت برؤى عن جده والعمدة وآنيت، وبغل يلتهم أسدًا. هو يعلم أن الغفوات القصيرة ستسـتدعي بعضهـا، سـتتقارب، سـتتلاصق حتـى تصيـر نومًـا ممتدًا هادئًا. لكن الشـمس لم تسـعفه. منصور فكر في أن ينبش حقائبه بحثًا عـن قناع النـوم الواقي من الضـوء، ولكن إن حل القنـاع أزمة الضوء، فماذا عن الصوت؟ منصور سـحب ساعته من فوق الكومود. عقاربها تقف علـى حدود الثامنة صباحًا. هو لا يفهـم كيف يمكن للصباحات أن تكـون على هذا الصخب؛ وشـيش، ونباح، وخرير، وأزيز، وصياح ديوك تدعي النشـاط. كل أنـواع الجلبة الصناعيـة والحيوانية الممكن اجتماعهـا في مكان واحد، وفي لحظة واحدة، مقرونة بأصوات لبشر بيـن حديث وضحـكات ونداءات، وكأنما نائم هـو على رصيف يمتد عبر سـوق شـعبي مزدحم، لا في حجـرة فخمة في قصـر يحيطه فناؤه الخاص.

الاستسـلام؛ هكذا فكر منصور وهـو ينهض ليفتح النافـذة، متيحًا للشمس فرصة العبور الحر، بدلًا من عمليات التسلل المرهق. النافذة كانـت تطل علـى ما بدا له فنـاءً خلفيًا للـدار. من مكانه، كان يكشـف جـزءًا مـن الزريبـة، بجوار بابهـا الفرن الطيني المشـتعل قلبـه. حظائر الطيـور المفتوحة أمـام البط والدجاج للتمتع بشـمس الفناء. عاملات

يسعين بين كل هذا يتوسطهن شحتة بالإشراف. وجهه العجوز هادئٌ، وجسده البدين متزنٌ، وكأنما لم يقضِ سهرة حتى بدايات الصباح، بين نبيذ وحشيش. شحتة لحظتها رفع رأسه، فرأى منصور يتأمله من النافذة، فتبسم ملوحًا بيده..

- صباح الفل يا سيدنا.

منصور اكتفى بالتلويح الصامت، وابتسامة مبتورة لم تفلح في شق إجهاد قسمات وجهه. الآن عليه أن يبحث عن قهوته، هي الملاذ الباقي له، مرفأه الآمن. من حقيبته أخرج منشفة، ودخل إلى الحمام الصغير الملحق بالغرفة. سعيدًا كان كطفل وهو يتخلص من ملابسه التي ارتداها طوال يوم كامل، وحتى أثناء نومه، ليقف عاريًا تحت انهمار الماء الفاتر من الدش. الإحساس المنعش صفّى ذهنه، وعزلة الحمام نشطت أفكاره. في تلك الدقائق تمكن من رؤية واقع حاله مجردًا. تمكن من ربط ما كان بما هو كائن. الآن يفهم أنه أضاع وقتًا ثمينًا، وبذل جهدًا مقابل خرافات. اعتقد لحظتها أن لا فعل أكثر ملاءمة من مغادرة قرية المجانين تلك بلا رجعة، ليهرع عائدًا إلى عمله، عائدًا إلى أوديلو، عائدًا إلى أحضان آنيت. ربما الآن، وقد انهارت ضلالات طفولته عن الرسالة والنبوة المزعومة، ما عاد يجد فكرة الزواج من آنيت بذات السوء.

لحظة خروجه عاريًا من الحمام كان قد استقر على قرار بعدم المغادرة دون أن يزور مصنع جده. لن يدع خرافاتهم تحول دون إلقاء

نظرة أولى وأخيرة على الأثر الذي تركه جده الأكبر في هذا العالم.

عندما طرق الباب، كان منصور لم يزل عاريًا يصفف شعره أمام المرآة الطويلة في باب الدولاب. سريعًا أخرج من حقيبته بنطلونًا نظيفًا. لم يكن يستسيغ ارتداء الجينز دون لباس داخلي، ولكنها مقتضيات الضرورة. أغلق السوستة بحرص، ليفتح الباب بعد ثالث مجموعة من الطرقات اللحوحة. كانت الخادمة - أو هكذا ظنها منصور - ذات العينين الزرقاوين..

- صباح الخير.

قالتها بصوت الفيولين، يجاهد احمرار الخجل على الخدين، ليتصاعد حرًا مسموعًا.

لم يسبق لمنصور أن انقطعت أنفاسه بهذا الشكل بمجرد النظر إلى وجه فتاة. كان يروقه فيها الحالة. تركيبة الجمال الشهواني والبراءة والخجل. ربما كانت تذكره - بقدر ما - بآنيت، ولكنه يخشى الاعتراف بهذا. عيناها كانتا تطالعان الأرض، فلم تكن معتادة على الوقوف أمام رجل نصف عار.

- صباح الخير.

أجابها منصور..

- أبي ينتظرك لتناول الفطور.

قالت الفتاة. فكان لا بد وأن يسأل:

- أبوكِ! ومَن أبوكِ؟

رفعت الفتاة إلى وجهه عينين مكحلتين بالدهشة..

- أبي.. العمدة.

دار رأس منصور بقدر طفيف، ذكره فقط بحاجته إلى قهوة الصباح..

- لحظة.. أأنت ابنة العمدة؟!

- أجل.

- آسف.. كنت أظنك خادمة هنا.

قالها مصارحًا، فضحكت البنت..

- آسف.. أنا لا أقصد إساءة، أنا فقط...

صمت قليلًا يبحث عن كلمات. دواء ارتباكه وجده في لغته الأم. بكلمات فرنسية صارحها:

- أنت حقًّا جميلة كضحكات الأطفال.

اتسعت ابتسامتها برغم عدم الفهم..

- حجرة السفرة في الطابق الأرضي.. على يمين السلم.

قالتها وانسحبت مسرعة. منصور أغلق باب حجرته، وعاد ليكمل مراحل ارتداء ملابسه. شغلته قليلًا سيدة الدار الصغيرة، تلك التي تخلعه بنفسها، رغم الوفرة المبالغ فيها - كما لاحظ - في تعداد

الخدم بالمنزل. ولكنه يعرف أن الجميع هنا يعاملونه كأعجوبة تصلح مزارًا سياحيًا، لذا لم تسكنه الدهشة لأكثر من لحظات.

عندما فتح باب حجرته، رأى شحتة قادمًا باتجاهه يلهث. لما رآه تهلل..

- كنت آتيا لآخذك إلى العمدة.

- لا داعي.. لقد...

منصور أمسك لسانه فجأة. لم يجد أي داعٍ ليخبره عن قدوم ابنة العمدة إلى حجرته، فهو لا يعلم شيئًا عن حدود علم العمدة بأمر كهذا. التزم الصمت وهو يهبط الدرجات نحو الطابق الأرضي بصحبة شحتة. الدرجات كانت قليلة، ولكن هبوطها مع شحتة يعني أنها في طول رحلة إلى القمر. قبل بلوغ نهاية الدرج، منصور سأل:

- أليس للعمدة زوجة وأولاد؟

ابتسم شحتة:

- طبعًا.. زوجته في جناحها، لا تخرج منه أبدًا. عن نفسي.. وبرغم قربي من العمدة.. لم أرها سوى مرتين منذ تزوجا. وله منها بنت واحدة.

تقافز قلب منصور..

- ما اسمها؟

سـأل منصـور بقدر مـن التهـور، فكانـت إجابـة شـحتة بكثير من الحسم:

- وفقًا لتقاليدنا، فأمور كهذه لا تهم الغرباء.

منصور ابتلع الحرج وصمت، حتى بلغا مجلس العمدة..

القاعة الرحيبة توسطها العمدة على طاولة طعام كبيرة. منصور كان مأخوذًا بمشهد طاولة الطعام، فلم يتنبه لحفاوة استقبال العمدة. مشهد الطعام يمكن أن يصفه منصور - إن سـألناه - بالمشـهد الأكثر بشـاعة من بين كل ما شهده في حياته! كل هذه الأطباق والأصناف التي تفيض عن الطاولة الضخمة، والتي من المفترض أن ينتهي مسـارها في معدة شـخصين فقـط، كان أمرًا يفوق احتمال عصارتـه المعدية، فكادت أن تنفجر عبر فمه، خاصة وآثار ملحمة العشاء لم تغادر أمعاءه بعد بشكل كامل. منصور قد يظن أهالي قريتنا كائنات مفترسة، فهو لا يعلم أن ما يـراه أمامه ليس سـوى واجبات ضيافة، فبالتأكيـد ليس هذا هو الفطور اليومي المعتاد للعمدة. منصور كان حاسمًا حين قال بالفرنسية:

- أنتم تأكلون كالأبقار بكل تأكيد.

ثم أضاف بالعربية:

- أنا لا أفطر.. أرجوك أنا أحتاج للقهوة.

قالها وجسـده يستقر على مقعد يمكنه من مواجهة نظرات الصدمة في عيني العمدة..

- لا يصح.. كُل أي شيء.

- أرجوك.. لن أقدر.. قهوة فقط.

مستسلمًا، التفت العمدة إلى شحتة، أشار له برأسه بمعنى التصديق على الطلب. شحتة استدار قاصدًا المطبخ، فأوقفه منصور مستعيدًا ذكرى سيئة..

- أنا لا أريد قهوة كمثل التي شربتها الليلة الماضية في العزاء.

شحتة ابتسم..

- اطمئن.. طلبك عندي.

شحتة أكمل طريقه. العمدة وضع في فمه قطعة ملء أصابعه من الفطيرة أمامه، غمسها في العسل أولًا، ثم أخذ يمتص ما علق منه بأصابعه.
منصور انتظر حتى فرغ العمدة من أداء مجازفته، قبل أن يقول:

- والآن؟

العمدة تأمله لفترة، غير مدرك أن كلمته في صيغة تساؤل، قبل أن يقول، حين أدرك أن عليه الكلام:

- ماذا تنوي أن تفعل؟

- سأرحل اليوم.. ما أريده منك فقط أن تسمح لي بزيارة مصنع جدي. وأن تساعدني على تأجير سيارة تأخذني إلى القاهرة.
العمدة رسم بوسع عينيه دهشة..

- معقول؟! ترحل هكذا فجأة؟!

- لا جدوى من بقائي.

هز العمدة رأسه نفيًا..

- مستحيل.. وأهالي القرية؟

منصور لم يفهم..

- ما لهم؟!

العمدة تعجب من التساؤل، فظهر في كلماته الاندهاش:

- لقد تعلقوا بك.. أنت، كشخص مقدس عندهم، لن يتقبلوا منك رحيلًا مفاجئًا هكذا.

منصور رسم ابتسامة سمجة..

- سيدي العمدة.. أنا لست مسئولًا عن خرافاتكم.

مصدومًا وضع العمدة بيضة مسلوقة في فمه، استغرقت وقتا لمضغها. كان متعجلًا لإفراغ فمه لمتابعة الحديث، فشرب كوب الماء أمامه. الماء جرف البيضة نصف الممضوغة في طريقه. العمدة ساهم في عملية البلع بضرب منتصف صدره بقبضته المضمومة ثم تجشأ، فقال:

- الله يسامحك.

- خنزير.

قالها منصور بالفرنسية. العمدة هذه المرة لم يسكت؛ منذ أن حضر منصور وهو يحشر تلك الكلمات في منتصف حديثه، والعمدة بات يشتبه..

- ماذا قلت؟

منصور كاد أن يلقي بأية كذبة، لولا دخول شحتة الصاحب لحظتها. وضع أمامه كوبًا كبيرًا تتصاعد منه رائحة نفاذة منعشة..

- نسكافيه يا سيدنا.

بالنسبة لمنصور كان هذا أكثر من كاف. لم يبال بالسخونة، راشفًا كمية قادرة على بعث خلايا عقله من جديد. وجد المذاق معقولا وإن كان دسمًا..

- كريمي.

هكذا علق منصور على رشفته الأولى، فاندفع شحتة يرد الاتهام عن نفسه..

- لا والله يا سيدنا.. قشدة جاموسي!

لم يشأ منصور أن يستفسر أكثر حتى لا يفقد شهيته للقهوة، فبلع تساؤلاته قبيل الرشفة التالية. العمدة فرغ سريعًا من لقمتين أو ثلاث من طبق الجبن القديم، ثم قال بلهجة طفحت حزنًا:

- عمومًا يا سيدنا.. أنا لن أجبرك على اتباع معتقداتنا.. ولن أجبرك حتى على احترامها، طالما هي ليست مشيئتك. سترحل الليلة كما تريد.

ابتسم منصور مستحسنًا ما اعتبره محاولة من العمدة للمراوغة..

- أنا لم أقل إني أود الرحيل الليلة.. أنا قلت: اليوم.. وهذا يعني أقرب وقت ممكن.

العمدة تنهد..

- أولًا.. أن ترحل دون تناول الغداء، لهي إهانة لنا لا تغتفر.. خاصة وأنك أبيت الفطور. ثانيًا.. صلاة الجمعة ستحين بعد ساعتين تقريبًا.. والأهالي يترقبون رؤيتك في الصلاة.. وهي مناسبة ملائمة لتوديعهم بشكل يستحقونه.. ثالثًا.. وهو الأهم.. أعيان القرية يريدون أن يصحبوك بعد الغداء في جولة بالقرية. من العيب أن تكون في القرية التي شارك جدك في تشييدها، ولا تعاين ما أصابها من تحول وتطور بفضل بركاته وقدسية روحه.

منصور أطرق لثوان، ثم قال:

- حسنًا.. ولكن كما قلت.. يجب أن أزور الفابريك.

ابتسم العمدة بود..

- طبعًا طبعًا.. أنت ستزور القرية كلها.

العمدة مسح يديه وشفتيه في الفوطة البيضاء أمامه. راضيًا كان عن حسن تدبيره إلى الآن، يحتاج فقط لمزيد من التدبير، أو لخدمة من الظروف ربما..

- عندما تنهي قهوتك. سأصحبك في جولة في الغيط.

منصور كان يفكر: طالما لن يرحل الآن فربما يعود لفراشه لما بقي من وقت قبل أوان الصلاة، لكنه لم يشأ أن يعترض، فطالما خلاصه من سماجة هؤلاء القوم مربوط بأداء ما يعتبرونه واجبًا في رقبته، فليرحهم إذن وينتهي.

***

يمكن - تجنبًا لملل التفاصيل - أن نقفز عبر الزمن، لبضع ساعات إلى الأمام، لأصف لكم لحظة فرار منصور من أمام بيت الشيخ ربيع. وهي بلا شك لحظة فارقة في مسار حكايتنا. الخروج السريع والمفاجئ لمنصور من بين الحشد لا يمكن وصفه سوى بالهروب. في ركضه، ربما دفع جسدين أو ثلاثة من المتجمهرين، ربما أحدهم سقط على وحل الأرض. الحركة المتوترة خلفه ربما كانت حركة الخفر يهمون بمطاردته كأي لص؛ لذلك ربما كانت الصيحة التي لاحقته من فم العمدة:

- اتركوه يذهب.

فكانت آخر ما سمع قبل أن يغيب عن الأنظار، قاطعًا الشوارع والحارات الضيقة الموحلة. أكثر من مرة راوغ رضيعًا يحبو في قلب الطرقات، أو إوزًا يتكاسل أمام أبواب الدور. مرة أو مرتان طاله نباح الكلاب فلم يبالِ. ومرة كاد يسقط لانزلاق قدمه في الطين الأسود نتن الرائحة الذي يغطي كثيرًا من الطرقات. كانت لحظة ظن فيها أنه يمكنه

مواصلة الركض حتى فراشـه الآمن فـي باريـس. باريس التي لم يعرف قدرها سـوى بعد أن زار مستشـفى المجانين المفتوح هنا. ولكن نهاية المطاف كانت بين الأشـجار المحددة لمجرى الترعة الكبيرة. منصور تـردد أمام غواية الصفحة اللامعة للماء الجاري، لا يعلم أن جديه عبرا نفـس هذا الماء هاربين منذ قرابة قرن من الزمان. منصور أدركه التعب ورغبة ملحة للجسد في الاستلقاء، فجلس تحت شجرة ضخمة الجذع تحجبه عن العيون، وتحجب عنه شمس الظهيرة الحارة.

كل شيء سار منذ البداية بالرتابة التي توقعها منصور؛ جولته برفقة العمـدة في الغيـط ربما كانت جيـدة. الهواء واللون الأخضر أنعشـاه، والجلسـة فـي العريش المفروش بوسـائد قطنية، كانـت مريحة، حتى كاد يغلبه النوم. لكن الأمر اختلف عندما حانت الصلاة؛ ذات طقوس الوضـوء، وازدحـام الجامـع الكبيـر، والأيـادي التـي تجاهـد لتطالـه بالمصافحـة والملامسـة. شـحتة أذن مرتين فـي الميكروفـون. المرة الثانيـة كانـت بعد ارتقـاء العمدة للمنبـر. نظراته فوق الـرؤوس كانت توزع الاحتقار على الجالسين بالتساوي فيما وراء الصف الأول، حيث جلس منصور محشورًا وسط جوقة الأعيان. تحدث العمدة في خطبة طويلة عن طاعة أولي الأمر، التي وصفهـا بالفرض الأعظم، والعبادة الأكمـل. تحدث عن غضب الله الذي يحل علـى من يخالف أوامره، وأهـم تلـك الأوامر، طاعة أولي الأمـر. ضرب لهم مثـلا بالقرى التي أهلكهـا اللـه لأن أهلها لم يطيعوا أنبياءهم، الذيـن هم من أولي الأمر.

ودعـا الله أن يرسـل علـى قريتنا حاصبًـا من السـماء، أو يجعل عاليها سـافلها إن تجاهـل أهلها طاعة أولـي الأمر. الجالسـون تحت كلماته كانـوا يهزون الرأس بخشـوع، ويمصمصون الشـفاه تأييـدًا، ويؤمنون علـى دعواتـه بهلاكهـم. مع إعـلان العمدة انتهـاء النصـف الأول من الخطبة، حط على المسجد صمت مزدان بهمهمات الدعوات السرية. العمدة جلس على مقعد أعلى المنبر للاستراحة. مد يده بجوار المقعد متنـاولًا زجاجـة مياه غازيـة مفتوحة، رشـفها على جرعـة واحدة، ثم نهض معلنًا انتهاء الاستراحة القصيرة. مسح فمه بكم عباءته ثم اقترب من الميكروفون. فاجأه التجشؤ رغمًا عنه، فلم يحبسه، ثم قال:

- بالأمس أتاني شيخنا في المنام...

انطلـق التكبير من أفواه تقاطعـه، قبل أن تتلاقى الهتافات المبعثرة وتتجمع في تكبيرة واحدة ترج جدران المسجد..

- شيخنا حملني لكم رسالة جديدة.. تقول إن الغريب الذي أتاكم مبعوثٌ من هدى الله ورحمته فأكرموه، وأطعموه، وعاشـروه حسنًا. فبين يديه خير كثير.

التكبيـرات هـذه المرة قادها شـحتة، فكانت أكثر تنظيمًـا واتحادًا. قاطعها العمدة:

- أنصتـوا يـا همج.. الرسـالة لم تنتهِ بعد.. شـيخنا يريـد أن يزور الغريب. شيخنا سمح للغريب بدخول خلوته.

شحتة هتف:

- لا إله إلا الله..

فتبعته الحشود. منصور لم يفهم. هو لا يدرك بعد شيئًا عن تاريخ القرية الديني، ولا عن شيخها ربيع المرفوع جسدًا إلى السماء. بعد الصلاة كان تيار البشر جارفًا. منصور وجد نفسه سائرًا في حلقة من الخفر، يلتصق به شحتة، قابضًا على ذراعه وكأنما يعتقله. الموكب كان يدور في طرقات القرية فيزداد امتدادًا بمسيرة للنساء تتبعهم..

- إلى أين تأخذونني؟

سأل منصور، فأجابه شحتة بفرحة:

- ألم تسمع ما قاله العمدة.. الشيخ ربيع ناداك.

منصور اختار الصمت، حتى توقفت المسيرة أمام بيت طيني صغير من طابق واحد، يقف وحيدًا في مساحة شبه خالية على مشارف الحقول الجنوبية. العمدة أخرج من جلبابه سلسلة مفاتيح، وشرع يفتح ثلاثة أقفال ضخمة توصد الباب الحديدي. شحتة أفلت ذراع منصور. الخفر تشتتوا مفتتين سوار الأمن. الناس انهمكوا في التسابق للوقوف في الأماكن الأقرب إلى باب الدار. كانت فرصة لم يكن منصور ليفوتها، لذا - وكما حكينا من قبل - استدار وأطلق ساقيه.

***

تحت الشجرة كان الاتصال الأول.

منصور استراح لظل الشجرة، ورقرقة الماء، وزهو الألوان. تداخل أصوات الطيور، وخرير ناعم للماء، كان كتنويم مغناطيسي. تبلدت الانفعالات، وبات العقل أكثر صفاء. الآن أمكنه أن يرى بعضًا من الحقيقة. ما يفعله العمدة لا يمكن أن يكون عفويًا، هذا رجل يسير وفق مخطط ما. مبدئيًا يستطيع منصور أن يجزم أن العمدة يسعى لإبقائه في القرية بأية وسيلة، ولكنه لا يعرف السبب، ولا يستطيع أن يتخيل الخطوة التالية في مخطط العمدة. لم تزل الرؤية قاصرة. واضح فقط أن العمدة يريده في القرية لأمر ما؛ الشواهد تخبر أنه أمرٌ ليس أخلاقيًا أو ليس مشروعًا، وإلا كان العمدة صارحه به دون حاجة لكل هذا التخطيط والجهد في المراوغة، وربما هذا يؤكد - كما فكر منصور - أن العمدة هو مرسل الرسالة، هو فقط ينكر لذات السبب الذي يمنعه من المصارحة بما يريد.

تفكير منصور أوصله للتمسك بضرورة الرحيل اليوم. ربما يدفعه فضوله لمواجهة العمدة، ولكنه يشك في قوته أو حيلته أمام هذا الرجل. ربما الأفضل أن يرحل بابتسامة ودود، دون إظهار أي ضيق أو ارتياب، ربما حتى يرحل هربًا. هكذا كان اتجاه أفكاره لحظة أن باغته سؤال..

- تفكر في الرحيل.. أليس كذلك؟

منصور استعاد عينيه الشاردتين في صفحة الماء. كان الشاب طويل الشعر واقفًا فوق رأسه. برغم ابتسامة شاء لها أن تكون لطيفة، إلا أن في عينيه شيئًا مخيفًا ألقى في قلب منصور توجسًا..

- من أنت؟

هكذا ألقى منصور بأول سؤال جال في خاطره. تربع الشاب على العشب الندي أمامه في ظل الشجرة..

- اسمي صخر.

تذكر منصور الاسم، وتذكر ربطه دائمًا بمن يسمونهم الأولاد المقدسين..

- أنا لا أفهم.. أظنك تتبعني. بالأمس رأيتك أكثر من مرة. والآن تأتيني بمجرد أن أنفرد بنفسي.

صخر كان يتحدث بثبات وثقة. صوته، برغم خفوته النسبي، قوي ومؤثر..

- أنا لا أنكر.. أنا بالفعل أتبعك.

- لماذا؟

- ببساطة.. نحن بحاجة إليك.

قالها صخر وصمت. ربما ظن أن هناك تواصلا بالأعين بينهما، ولكن منصور لم يفهم شيئًا، رغم كل النظرات العميقة الواصلة بين أعينهما..

- من أنتم؟

- الأولاد المقدسون.

منصور اعتدل في جلسته..

- حدثني عنهم.. من هم؟

صخر أجابه:

- ربما يكفي الآن أن تعلم أننا بحاجة إليك.. لا ترحل أرجوك.

منصور لم يمسك غضبه لحظتها..

- لحظة.. منذ أن وطأت قريتكم وأنتم تعتقدون أن من حقكم أن تأمروني، وأن تخططوا لي يومي، دون أن يكون من حقي الحصول على أية تفسيرات.. إذا كنتم تحبون القبض على أسراركم، ليكن.. ولكن هذا يعطيني بدوري الحق في أن أفعل ما أشاء.

ثم اختتم أداءه الانفعالي المتصاعد بسبة فرنسية بذيئة.

صخر تنهد..

- المسألة لا تتعلق بحقك في المعرفة. الأمر وما فيه أني أظن الحقائق قد تثقل كاهلك الآن.

ابتسم منصور استهزاءً..

- أنا أفضل أن توضع الحقائق أمامي أولًا.. وليكن لي حق القرار بعدها.

- حسنًا.. ماذا تريد أن تعرف؟

- كل شيء.

- سأحدثك بما أعرفه.. من أين تريدني أن أبدأ؟

منصور أعاد سؤاله:

- من هم الأولاد المقدسون؟

- هم أبناء الشائعات.

منصور صمت منتظرًا باقي الحديث، ولكن صخر واصل السكوت، وكأنما انتهى الحكي..

- إن كنت تنتظر أن أسألك عن الشائعات، فتلك صبيانية لا داعي لها. أرجوك أكمل حكايتك دون ألاعيب.

صخر ابتسم..

- أنا لم أحضر بداية الحكاية، فقط سمعتها. وفي هذه القرية، ما تسمعه لا يعني الحقيقة، وإنما يعني أعوامًا من الحذف والإضافة، أعوامًا من الكذب والمبالغة، أعوامًا من التجميل والتشويه المتعمدين، ولكنه على كل حال ما يقال، ولأنني لا أعرف حكاية غيرها، فدعنا نعتبرها حقيقة. الأمر حدث منذ خمسين عامًا إلا قليلًا. وقتها كان البلد في حالة حرب، كثير من شباب القرية رحلوا مع الجيش إلى الجبهة. معظمهم تركوا زوجات في عز الشباب والجمال. الغيبة

طالت لسنوات، ومن الشباب من مات أو فقد في المعارك. الحزن ساد القرية، مع شيء آخر بدأ يلمع في نظرات الرجال الخفية نحو الأرامل الصغيرات. في ليلة قامت القرية على حادثة غير مسبوقة في تاريخها العفيف، أو على الأقل هذا ما تنص عليه الحكاية، امرأة شابة، غاب زوجها على الجبهة، ضبطوها في فراشها مع جارها. حدث هياج وغضب، وتعالت اقتراحات برجم الزانيين، لولا صوت للعقل تعالى بضرورة اقتياد المذنبين إلى العمدة، وليكن له الحكم. العمدة وقتها كان الحاج توفيق، والد العمدة رضوان؛ صحا من نومه على أصوات ذلك الجمع من أهل القرية، يتصدرهم رجل وامرأة متلبسين بعريهما. لما سمع العمدة بما صار، قال إن حكمًا كهذا لهو حق للشيخ ربيع. تحرك الموكب مرة أخرى نحو بيت الشيخ ربيع. العمدة طلب من الجمع الانتظار حتى يحادث هو الشيخ على انفراد. دار الشيخ كانت مفتوحة دائمًا، لم يغلق بابها يومًا في وجه أهل القرية. دخل العمدة وغاب غيبته، ثم خرج لاهثًا مضطربًا، ليعلن أن الشيخ تبخر أمامه، صار نورًا وحلق في فضاء الدار. قال إن الشيخ بلغ كمال الصفاء، فبات ضياء يسعى. قال إن الشيخ أخذ عليه عهدًا ألا يدخل خلوته أحد بعد اليوم إلا هو وذريته من بعده. أخرج العمدة مصحفًا صغيرًا من جيبه، وضعه على جبينه وأقسم على كل كلمة قالها. الناس منهم من كبر، ومنهم من بكى الشيخ. أما آخر أحكام الشيخ قبيل التحول، كما حدثهم العمدة، فكان حكمه بجواز معاشرة المرأة التي غاب زوجها غيبة طويلة أو مات. على أثر هذه الفتوى، صارت الأرامل وزوجات

الغائبين لأكثر من ثلاثة أشـهر مشـاعًا لكل رجال القرية، بلا تحريم أو عيب؛ ولهذا سمين الشائعات.

منصور هذه المرة استراح لصمت صخر. كان عليه أن يستوعب ما قيل. كان عليه حتـى أن يتأكد أن هذا بالفعل هو ما قيل. فلما تثبت من مداركه سأل:

- وماذا يحدث للمرأة الغائب زوجها عندما يعود؟

- لا شيء. تخرج من قائمة الشائعات.

- وزوجها؟

ابتسم صخر سخرية..

- غالبا يتقبل ما حدث في غيابه.. ففتوى الشيخ ربيع مقدسة..

منصـور استسـاغ الصمت مرة أخـرى. عليه أن يمنـح العقل بعض الراحة كي لا يحترق؛ ولكن صخر عاد ليكمل:

- عمومًـا، بعـد انتهـاء الحـرب، كـف الرجال عـن مغـادرة القرية لفترات طويلـة. وقد عرفـوا ما سـيصيب زوجاتهم إن هـم فعلوا. لذا اقتصر مسـمى الشـائعات على الأرامـل فقط.. الشـابات والجميلات منهن تحديدًا.

منصـور أراد أن يلقي بـأي تعليق يمنعه مـن المواصلة؛ على الأقل حتى يستعيد توازنه..

- ما تقوله...

لم يجد كلمة يتم بها جملته. صخر ابتسم وقال:

- مقرف؟

هز منصور رأسه مؤيدًا..

- أنت لم تسمع شيئًا بعد.

- حقًا؟

هز صخر رأسه..

- دعني الآن أخبرك عن الأولاد المقدسين... قديمًا، لم تكن موانع الحمل منتشرة أو معروفة، خاصة لقرية جاهلة كقريتنا. لذا كان يجب أن تواجه القرية معضلة مع أول شائعة تظهر عليها أعراض الحمل. تساؤلات منطقية عن مصير الطفل القادم. طفل أمه نفسها لا تعرف مَن أبوه لكثرة مَن عاشروها. الطفل سيكتب باسم من؟ من سيربيه؟ ومن سينفق عليه؟ المعضلة كانت يجب أن توضع على مائدة العمدة، والعمدة كان يجب أن يحملها لخلوة الشيخ ربيع طلبًا لفتواه. دار الشيخ ربيع باتت تقفل بباب حديدي، عليه قفل ضخم، مفتاحه لا يحمله إلا العمدة، لضمان ألا يقتحم كافر أو فضولي خلوة الشيخ النوراني. العمدة زار الشيخ قبيل صلاة الجمعة، وفي خطبته على المنبر حدث العمدة الناس بما أوحى به الشيخ إليه. ابن الشائعة هو ابن لكل رجال ونساء القرية، يأكل في كل البيوت، ونفقاته لزامًا على الجميع. ولكن لا أب له، ولا حتى أم. الولد المقدس يؤخذ

من أمه رضيعًا ويربى بعيدًا عنها. في البدء كان خفر العمدة يبدلون المراضع، فلا تعرف أم من وليدها، ولا يعرف ولد من أمه. بعدها باتت الرضاعة حكرًا على ألبان البقر والماعز. كان على القرية توفير مكان لتجميع الأطفال المبعدين عن أمهاتهم، فاختار العمدة فابريكة الخواجة المهجورة لتكون البيت القدسي. بعد أقل من عام بات هناك بالقرية خمس أولاد مقدسين. عند نهاية الحرب بلغ تعدادهم قرابة العشرين..

لحظة التحول الكبرى في طريقة التفكير والرؤية أتت حين لم يستسغ منصور صمت الشاب المفاجئ، وكأنما نضبت الحكايات. حينها غلب فضول منصور اشمئزازه، فوجدت الأسئلة طريقًا لتنساب من فمه بدلًا من جمود الصدمة..

- وبعد.. ماذا يصير لهؤلاء الأولاد؟ كيف تعيشون؟ إلى أين يكون مصيركم؟

صخر أسعده تجاوب منصور..

- في البدء كان الأولاد المقدسون يعاملون معاملة الأبناء في أي بيت يدخلونه. كان يمكن للولد المقدس أن يتخير أي دار تعجبه فيدخلها ساعة العشاء ليأكل حتى يمتلئ. البيوت المقتدرة كان أهلها يبتاعون للأولاد المقدسين كسوة العيد كمثل أبنائهم. وكانت نساء وبنات القرية يذهبن لخدمتهن في البيت القدسي. فجأة تغير كل شيء بتولي العمدة رضوان لشئون القرية. لم يكن قد مر على عهده أسابيع

حين حدث الناس في خطبة الجمعة أن الشيخ ربيع أوحى إليه في المنام أن قدسية أبناء الشائعات لا يليق بها أن تهان في بيوت لا يعلم مدى طهارة أهلها، لذا حرم علينا دخول البيوت، وحرم على الأهالي دخول البيت القدسي كذلك. العزلة الجديدة قام عليها لبيب، خفير مقرب من العمدة، عينه حارسًا للفابريكة. رغم أن تسميته كانت "خادم البيت القدسي"، إلا أن مهمته الأساسية كانت ضمان تنفيذ المحرمات الجديدة. في هذه الظروف ولدت أنا.. لم أحضر أيام الخير.. فتحت عيني على وقت تحول فيه الأولاد المقدسون إلى كائنات مشردة غير مرغوب فيها. حتى كلمة "المقدسون" باتت أقرب إلى سبة. القرية توقفت عن إطعامنا أو الاهتمام بنا، فتحولنا إلى شحاذين نطرق الأبواب، كما علمنا لبيب في صغرنا.. نتسول ما نأكله، وما نلبسه.

- وكم عددكم الآن؟

- تسعة فقط. أنا أكبرهم.. أعمارنا كبيرة نسبيًا.. أصغرنا في الثالثة عشر من عمره. هو آخر طفل مقدس ولد بالقرية. بعدها ما عادت الشائعات تعانين مع موانع الحمل.

- والأولاد المقدسون الأكبر منك؟

- في سن معينة يدرك الولد المقدس أنه كبر على حياة التسول والتشرد تلك، يدرك أن لا حياة له سواها إن بقي هنا، فلأننا مقدسون محرم علينا العمل، لذا جرى العرف بيننا أن من يبلغ عمر الشباب يرحل. أرض الله واسعة، وكرمه بلا حدود.

- ولماذا لم تغادر أنت؟

- لا أنا ولا من معي ننوي المغادرة. نحن نعرف أكثر ممن سبقونا أن لنا حقًّا في هذه الأرض.

مال بجذعه نحو منصور، وبصوت هادئ، وحروف مضغوطة، قال:

- نحن لسنا مثل من سبقونا.. نحن أبناء مريم.. الملاك ذات المئة ثدي.

منصور لم يشأ أن يجهد عقله بالمزيد من التفريعات إن هو سأل عن حكاية مريم ذات المئة ثدي..

- ولكن.. ماذا تريدون مني؟

صخر ابتسم ببرود، فاكتشف منصور لحظتها أنه ما عاد يخشى القسوة في عينيه. ربما حتى تعاطف معها، كإحساس منطقي لمن عاش مثل تلك الحياة الجنونية..

- ستعرف إن قبلت مساعدتنا.. فقط ابقَ في القرية قليلًا، وتعالَ لزيارتنا.

- العمدة وعدني بزيارة الفابريك.

صخر هز رأسه..

- انسَ العمدة.. لا تطعه ولا تأمن له. هو لن يجعلك تخطو خطوة إلا إذا كانت فيها مصلحته. تعالَ لزيارتنا منفردًا.. تسلل بالليل

وتعـالَ.. لا تقترب من الباب.. الخفير الملعـون ينام مفتوح العينين. هناك نافذة عالية تطل على الحارة الضيقة على يمين الفابريكة. عندما تأتـي، ألقِ عبرها حجـرًا لنعلم أنك بالخارج.. ونحن سنعرف كيف ندخلك.

انتهى، ثم نهض.. تراجع خطوتين..

- لا ترحل دون زيارتنا.

ثم استدار برشاقة مبتعدًا.

منصور سيطرت على رأسه أثناء الحوار فكرة أن هذا الشاب يمتلك علمًا ودراية، بل وحتى لغة حوار، لا تتناسب مع حقيقة تشرده، لذا لم ينتظر منه أن يقع في مثل هذا الخطأ. فقد نسـي وسـط رجاءاته أن يخبر منصور بمكان الفابريكة!

***

منصـور لم يكن ليضل طريقه في قريتنا. فـكل خطوة يقطعها، مثل رحلة الشمس في السماء؛ لا يمكن إلا أن تكون ملحوظة. في كل شارع قطعه، كانت الحياة تتوقف، والأعناق تتمدد نحوه. كان يسـرع خطوته خشـية هجوم محتمل من الأهالي المتعطشـين دائمًا للمسـه. أدهشه أن الأهالـي اكتفوا بمراقبة صامتة وفضوليـة لمروره بهم. ربما التجهم على وجهه صدهم، وربما هروبه المفاجئ من أمام باب الشيخ، صنع صدعًا في جدار قدسيته.

منصور لم يكن يعرف طريق العودة إلى بيت العمدة، ولكنه يعرف أن آخر شيء يمكن أن يحمل همه هنا هو الضياع. بضعة صبية تجمعوا حول كرة جلدية نصف ممزقة، توقفوا بمجرد مروره بهم، وانفتحت أفواههم انبهارًا. وضع يده على كتف أحدهم وسأله:

- أتستطيع أن تقودني إلى بيت العمدة.

الصبي لم يجب سوى بهزة رأس؛ ربما خشي إن تحدث أن يفسد جمود الذهول على وجهه. سار الصبي أمام منصور مزهوًا عالي الرأس، يواجه كل النظرات بابتسامة فخورة. منصور استسلم للصبي، ترك الجسد يتبعه آليًا، وترك العقل ينشغل بحيرته. إن كان صخر - كما يبدو - هو والعمدة على طرفي نقيض، إن كان بينهما عداء من نوع ما، بلغ ربما حد التصارع عليه هو ذاته، فلماذا يظن كل منهما أن منصور قد ينحاز لطرفه ويضع نفسه موضع المشارك في الصراع؟ كل منهما يريده أن يبقى في القرية، كل منهما له غرضه، ومنصور لا يفهم المطلوب منه، ولا كيف يمكن أن يكون مفيدًا لأي منهما في هذا الصراع. إحساس الفخ المحكم بات يخنقه أكثر من قبل. لعن الاثنين، ما الذي يجبره على الاستجابة لأيهما؟ ربما هو تأثر بحكاية صخر عن معاناة الأولاد المقدسين. ربما تأثر بكون العمدة أحد - بل هو على رأس - المساهمين في تلك المعاناة لأطفال لا ذنب لهم. لا يستطيع أن ينكر أن كفة الروح تميل إلى صفهم، ولكنه لم يعتد أن يزج بنفسه في صراع لا شأن له به. لتكن عودته إلى وطنه، فهناك أعمال بانتظاره، وأم مريضة عليه رعايتها.

الصبي قاده حتى بـاب دار العمدة. حياه منصور بابتسـامة، وربت كتفـه. الصبي حافظ على وقفته المأخوذة، ولم ينصرف. منصور تذكر أمرًا لحظتها..

- هل الفابريك بعيد عن هنا؟

الطفل بدا على وجهه عدم الفهم. عدل منصور سؤاله..

- الفابريكة.. فابريكة الخواجة.

تحدث الطفل أخيرًا..

- لا.. ليست بعيدة.

متطوعًا أشار إلى شارع واسع قريب..

- تدخل هنا.. تنعطف من ثالث شـارع على يمينك.. تنعطف ثانية عند قهوة بسيوني.. ستجد وسعاية المعيز.. الفابريكة هناك.

ابتسـم منصور شـاكرًا. كان عليه أن يحفظ تلك الوصفة. لا يعرف لماذا سأله؟ هو بدأ يثق أن العمدة لن يقوده إلى الفابريكة، ولكن لماذا يهتـم أصـلًا؟ ألم يكن منـذ دقيقة واحـدة يفكر في ضـرورة الفرار من هنا؟!

منصـور عبر بوابة الدار المفتوحة، مر بخدم يسـعون وراء أعمالهم اليومية في الفناء، فلم يوقفه أحد. عبر بين تمثالي الأسـدين، فلم يرفع أحدهما رأسـه مـن نومته الأبدية! الباب الداخلـي كان مفتوحًا، ولكنه

ما كان ليعبره دون استئذان. مد يده ليطرقه، سبقته كلمات جاءت من وراثه..

- تفضل يا سيدنا.. البيت بيتك.

التفت ليواجه ابنة العمدة. لا يعرف لماذا ارتبك لظهورها المفاجئ. شيء ما في جمالها شعر أنه قد يفقد كل مخططاته معناها. هذا الجمال فقط هو القادر على دفعه إلى البقاء هنا..

- مرحبًا.. كيف حالك؟

ابتسمت الفتاة خجلة..

- بخير.

- نحن لم نتعارف.. أنا منصور.. منصور رينار.

أشاحت بوجهها خجلا..

- أعرفك طبعًا يا سيدنا.

- ولكن أنا لم أعرف اسمك بعد.

- سيأتي وقت التعارف.. ولكن ليس هنا.. أمام أنظار الخدم وأي مار من أمام باب الفناء.

قالتها واجتازته إلى داخل الدار. توقفت بعد خطوتين مشيرة إلى باب إلى اليمين..

- أبي في المضيفة.. تفضل.

قالتها، وانطلقت برشاقة لتبتلعها أعماق الدار. منصور عبر الباب؛ كانت بإشارتها تقصد الحجرة التي قضى بها ليلته بالأمس مع الأعيان. بابها كان مواربًا، طرقه فسمع العمدة يسأل بحدة:

- من؟

- أنا منصور.

تبدلت لهجة العمدة في لحظة، فقال بود:

- تفضل.. تفضل يا سيدنا.

منصور دفع الباب ودخل. مع العمدة، كان ذلك الشاب، يجلسان متقاربين، وكأن دخول منصور قطع عليهما حديثًا هامسًا..

- صخر.. ابن المرحوم حكيم.

تذكر منصور أنه ذات الشاب الذي عزاه بالأمس في وفاة والده. قام الشاب مصافحًا منصور بكثير من الاحترام..

- اذهب أنت يا صخر.. واعتبر الأمر منتهيًا.

- شكرًا يا حاج.

قالها صخر، ثم التفت إلى منصور..

- بعد إذنك يا سيدنا.

ثم غادرهما. العمدة التفت إلى منصور..

- أين كنت؟

- جلست قليلًا عند النهر الصغير.

العمدة ضحك..

- اسمها ترعة.

- أيًا كان.

العمدة عاد للجد..

- ماذا بشأن جولتنا؟ الأعيان ينتظرون.

- وماذا بشأن اتفاقنا؟ هل جهزت لي سيارة؟

- سيارتي موجودة وتحت أمرك.. وإن شئت أوصلك بنفسي.

- لا داعي.

العمدة التفت تجاه الباب ونادى:

- يا شحتة.

منصور لم يصادف شحتة أثناء دخوله للدار أو للمضيفة، فلم يعرف كيف ظهر شحتة أمامهما بتلك السرعة..

- اؤمرني يا حاج.

- بلّغ الحريم يحضرن الغداء.. وجهز الخفر والسيارة الجيب.. سنخرج في جولة بالقرية بعد تناول الطعام.

- عيوني يا حاج.

خرج شحتة بأسرع ما أمكنه. العمدة خاطب منصور..

- ستشرفني على الغداء، ولن ترفض مثل الفطور.. أنت بالتأكيد جائع.

منصور هز رأسه المثقل بالأفكار..

- ليكن.

***

بعد مذبحة الغداء، خرجا في سيارة العمدة الجيب. جلسا في المقعد الخلفي، بينما شحتة في مقعد القيادة، بجواره خفير، وخفير آخر تعلق بالسيارة من الخلف. دارا في أرجاء القرية، وحتى حدود الاتجاهات الأربع، حتى قرب انتصاف الليل. زارا أغلب ممتلكات الأعيان؛ مصانع ومحال وحقول. في كل مرة كانت الحفاوة ذاتها. الأحضان والقبلات. التصوير بالابتسامات الواسعة. أحيانًا وجدا الأغاني والرقص في انتظارهما. يجب أن نعترف - وحتى منصور لا يستطيع أن ينكر ذلك - أن بعضًا من التيه تسلل إلى نفسه. كيف يمكن لإنسان أن يجد نفسه في موضع التبجيل والتوقير هذا ولا يدور رأسه؟ خرج منصور من جولته بالكثير من الهدايا، التي لم يعرف ما يفترض أن يفعل بها؛ أقفاص فاكهة من مزارع الحاج سليم. لم يكن من مكان لها في سيارتهم، فأمر الحاج سليم رجاله بحمل الأقفاص في سيارته، وحتى حجرة منصور في دار العمدة. موبايل نوكيا منحه

له عفيفي ابن الحاج محمد أبو اليزيد، وهو يصافحه مبتسمًا للكاميرا!
لاب توب استعمال الخارج، من معرض الحاج عباس الأحمدي..

- أمريكاني والله يا سيدنا.. استعمال بلده!

هكذا أكد الحاج عباس وهو يعطيه الكمبيوتر تحت فلاشات الكاميرات. تلقى كذلك قالب بسطرمة، من سوبر ماركت الحاج محمد الحديدي! المقدس ديب كان أكثرهم كرمًا، حيث منحه هديتين: ولاعة مذهبة من المكتبة، وطرحة حريرية من بوتيك ملابس المحجبات، أكد له المقدس ديب أنها:

- لأجل الحاجَّة!

في نهاية الجولة، كان العشاء في بيت الحاج محمد الحديدي. بيته من الخارج كان أكثر جمالًا وزخرفة من دار العمدة، وإنما أكثر بساطة وفقرًا من الداخل، حتى إنهم أجلسوا الضيف العزيز ليأكل على الطبلية. رحمة، ابنة الحاج الحديدي، كانت هي نقطة التركيز طوال الجلسة. الكلمات طالت أدب رحمة، طالت خجل رحمة، طالت نباهة رحمة، وطبيخ رحمة..

- كل.. كل يا سيدنا.. هذا الأكل صنعته رحمة بيديها. والله.. رفضت أن تمد أية خادمة يدها في الطعام. وهو أمر لا يحدث إلا لخاطر العزيز الغالي.

رحمة نفسها دخلت عليهم عدة مرات في مناسبات عدة. برغم مديح أبيها لجمالها، إلا أن منصور فشل في تحديد ملامحها المختبئة

تحت طبقات من زينة تليق بعاهرة باريسية عجوز. منصور لم تكن ثقافته تؤهله لالتقاط كل تلك الرسائل المرسلة في كلمات الحاج. العمدة التقطها. استمتع بمتابعتها، واستمتع بشرحها لمنصور في لحظة انفراد..

- الحاج الحديدي يعرض عليك ابنته.

- يعرضها علي؟

هز العمدة رأسه..

- لعلها تعجبك فتطلبها للزواج.

منصور ارتبك..

- أهكذا هي طقوس الزواج عندكم؟!

- لا.. عندنا العريس يذهب لأهل العروس راجيًا.. ولكن لا شيء يمنع أحيانًا أن يصطاد أهل العروس لابنتهم عريسًا.

- يصطاد؟!

منصور راهن نفسه طوال الجولة أن العمدة لن يأخذه إلى الفابريكة، بل ولن يدعه يمر بها حتى ولو عفوًا. عندما خرجا من بيت محمد الحديدي، اتجها إلى دار العمدة مباشرة، فأدرك منصور أنه كسب رهانه. ترجلا من السيارة أمام الباب. العمدة توقف فجأة عند العتبة وضرب جبهته براحته..

- باه.. لقد نسيت تمامًا أن آخذك إلى الفابريكة.

منصور كتم تهكمه..

- لقد لاحظت ذلك.

- لماذا لم تذكرني؟

منصور كذب:

- ربما لأن ليلتنا كانت مشحونة بما يكفي.

العمدة نظر إلى ساعته..

- عمومًا الوقت تأخر، والفابريكة لا كهرباء فيها، ولن ترى شيئًا الآن. إن شئت تشرفنا بالمبيت الليلة.. ولتكن زيارتها هي أول ما نفعله صباحًا.

- ظننت أن بيننا اتفاقًا.

العمدة ربت كتفه..

- يا سيدي.. إن هي إلا ساعات.. وكل تأخيرة وفيها خيرة.

منصور فكر لحظتها أن ظنونه في العمدة أقرب إلى الصحة. هذه أفعال رجل يضمر أمرًا. الآن يمكن أن يجزم أن صخر هو من يقف على الجانب الصواب؛ رغم أنه قرر مسبقًا أن الصراع برمته لا يعنيه، ولكن تلك الفكرة أثرت بالتأكيد على رؤيته، وعلى قراره رغمًا عنه..

- حسنًا يا حاج.. سأبقى حتى الصباح.

يمكـن بلا مبالغة أن نصف فرحة العمدة لحظتها بالفرحة العظيمة. هو نجاح مرحلي على الأقل. فرصة جديدة يجب استغلالها. لن ينام، سـيظل يتقلب في فراشـه حتى يجد طريقة للإبقاء على منصور لأطول وقـت ممكن. ولكن النوم غلبـه دون بلوغ المراد. آخر ما فكر فيه وهو علـى عتبـة الغياب أن على الله أن يسـاعده بمعجزة؛ وهـو تقريبًا ذات مـا بلغه تفكير منصور. هـو لا يعرف لماذا بقـي، ولا إلى أي مدى بلغ تأثره بقصة صخر. هل هو بالفعل مستعد لتلبية ندائه؟ حتى هو لا يجد لتلك الأسـئلة إجابة. حتى هو فشـل في تحديد موقفه، فطلب من الله أن يرسل له إشارة.

فـي الصباح، سـيعثر العمـدة على معجزتـه. وفي الصباح، سـيعثر منصور على إشـارته. ففي الصباح سـتصحو القرية على خبر الجريمة الثانية.

يحكى أن..

مريم جربت مرة حياة الشـائعات، ولـم تسـعد بها. ربما اسـتمتعت ببعض العلاقات مع رجال ذوي فحولة ووسامة. ربما الحالة - بشكل عـام - كانت ممتعـة، أن تتحلل مـن أي قيود لتقاليـد ومحرمات. الله يشـهد أنها لم تغوِ رجلًا أو تحضره إلى فراشـها، ولا حتى من أعجبها منهـم. هي ما كانت تفعل سـوى اسـتقبال من يأتيها. ربمـا كان يمكن للتجربة أن تتسم بالمثالية، لولا هاجس خانق طالما حدثها أنها ليست مثل باقي النسـاء. التصنيف تحديدًا هو ما كان يؤرقها، وليس أسـلوب الحيـاة. لم تحب أن يتحدث الناس عن الشـائعات ككيان منفصل عن باقي السـيدات، كيان أدنـى في المرتبـة والقيمة. كذلـك حرمانها من الولـد؛ فهـي لـم تكن أنجبت مـن زوجها الأول الراحـل، وكانت تعلم أنها حتى وإن أنجبت كشائعة، فإنها ستحرم من ولدها. لهذه الأسباب طـارت مريـم فرحًـا عندما أتاهـا حكيم خاطبًـا. وكادت تجـن يوم أن جاءها حكيم ليبشرها بموافقة الشيخ ربيع على الزيجة.

الآن، وهي في سـن الخامسة والأربعين، صار عليها أن تعود لحياة الشـائعات مـن جديد. الأمـر حتمي كما تنـص شـريعتهم. لكن مريم

عنيدة، وهي لن تقبل، وقد باتت من سيدات القرية، بعد عشرين عامًا من الحياة في كنف عين الأعيان. ابنها صخر، الشاب حار الدماء، لن يقبل كذلك. رفضهما - وفقًا لمعتقدات قريتنا - محرم شرعًا، وهو التحريم الذي تعرف مريم أن أعيان البلد سيدافعون عنه بدمائهم. نفس الأعيان الذين طالما رأت في أعينهم نظرات اشتهاء. نفس الأعيان الذين طالما حسدوا حكيم على امتلاكها. نفس الأعيان الذين ذاقوا لحمها من قبل، ويحلمون بنهشه من جديد. هي كذلك ذاقت رجولتهم من قبل، ومنهم من لم تزل تذكره وتشتهيه، ولكن دورها كسيدة، وأم لوريث ثروة ومكانة زوجها، يحتم عليها أن تترفع عن أية رغبات وترفض. الحل - كما اقترحت مريم على ابنها - في يد العمدة. هي تعلم أن العمدة يشتهيها أكثر من أي شخص، لأنه لم يدركها في المرة الأولى. ولكنها رغم هذا لا تخشاه، فالعمدة معروفة ديته. بعد صلاة الجمعة، سار ابنها صخر إلى دار العمدة، اجتمع به في المضيفة، وحدثه بالمطلوب. العمدة أبدى في البدء التمنع اللازم..

- هذه ليست أوامري يا بني.. هذه أوامر شيخنا.. وأمر الشيخ من أمر الرب.

صخر أخرج الورقة من جيبه..

- حتى الرب يمكن أن يضع استثناءات.

العمدة كان عليه أن يفكر في الثمن المعروض مليًا. صخر عرض على العمدة قطعة أرض من أملاك حكيم، مجاورة لحديقته للموالح،

طالما تمناها العمدة ليتوسع في حديقته. كان يجب في تلك الثواني أن يضع ورقة التنازل على كفة ميزان أمام جسد مريم الذي طالما أشعل خيالاته. لم تكن الحسبة تستدعي الكثير من الحيرة، فالعمدة ما كان من النوع الذي يسمح لمجرد شهوة بتقويض طموحاته، أو قطع الطريق أمام تقدم أعماله وازدهارها؛ لذا طوى الورقة ودسها في جيبه..

- سأحدث الشيخ في الأمر وأطلب منه الإذن.

لحظتها قاطعهما مجيء منصور، فنهض صخر، سلم على منصور، ثم انصرف وهو راض عن النتيجة، يشعر أن أمه أحسنت التصرف، فليست قطعة الأرض تلك بالثمن الباهظ لخلاصها، وللإبقاء على مكانتها بين السيدات.

ربما لو علم صخر أن الخلاص لن يكتمل، لما فرط في قطعة الأرض! ففي الصباح عثر الخدم على مريم في فراشها مذبوحة.

***

في يومه الثالث بقريتنا، استيقظ منصور قبيل الظهيرة. كان قد أخذ احتياطاته كاملة: أسدل على عينيه قناع النوم، ووضع على رأسه وسادة تقي أذنيه شرور الصخب الصباحي لخدم الدار، ترك المروحة تدور، وأن وجهها إلى ركن بعيد عن جسده المتعرق. رغم انشغال الفكر قبيل النوم بعشرات الخطوط المتشابكة، إلا أنه نجح في اصطياد نوم عميق هادئ. منصور لم يعرف أنه يدين بالفضل في هذا النوم المريح لحادث مقتل مريم، وليس لقناع نومه، أو انسداد أذنيه بالوسائد؛ فلولا

انشغال العمدة مع رجال الشرطة منذ الصباح، لكان أيقظه منذ الثامنة لتناول الفطور معًا.

بعد استحمام صباحي دافئ، غادر حجرته. الدار كانت شبه خالية. أول خادمة مرت بجواره استوقفها ليسألها عن العمدة. عيناها كانتا محمرتين خضوعًا لغزارة الدموع. أخبرته أن العمدة مع الشرطة منذ الصباح، ثم أضافت صارخة:

- ست مريم ماتت.. قتلوها!

وجرت من أمامه.

منصور لم يتأثر. لا يعرف من هي مريم، ولا من هم الذين قتلوها. ولكنه فهم أن أمرًا عظيمًا يحدث في قريتنا. لحظتها انتابته مشاعر متضاربة؛ خوف من مصير رحلته المريبة تلك، في هذا المكان الوحشي الملطخ بدماء طازجة، وتوجس من التكرار المنتظر لطقوس أول أمس الجنائزية! كذلك بعض الارتياح لاضطراره للبقاء في القرية لوقت لا يعلمه إلا الله. البقاء كان هو خياره الأقرب للنفس، ولكنه كان يخشاه، كان يتمنى دفعة، شخص ما أو قدر ما يحمل عنه هم الاختيار. الآن هو باقٍ دون تأنيب من الضمير. باقٍ إجبارًا لا اختيارًا. منصور قرر العودة إلى حجرته من جديد، حتى يرجع العمدة أو تهدأ الأمور، متناسيًا حال معدته الخالية، وصراخ عقله مناديًا قهوة الصباح.

منصور لم يكن يعرف مريم، ولم يربط بعد بينها وبين حكيم، الذي شارك في دفنه أول أمس، أو بينها وبين صخر، الشاب المفجوع في

والده الذي التقاه مرتين. فقط اسمها أعاد إليه ذكرى ذاك الاسم الذي نطق به صخر، الولد المقدس؛ مريم ذات المئة ثدي. منصور لام نفسه لحظتها أن أضاع الفرصة دون أن يقف على تفاصيل هذه الأسطورة، فقد راقه الاسم، وظل يردده في عقله طوال ليلة أمس، حتى إنه ربما يكون حلم في نومه بامرأة تمتلك مئة ثدي، ولكنه من أحلام النوم الهادئ، تلك التي يصعب علينا استعادتها حين الصحو. جهل منصور بمريم لم يولد عنده السؤال الذي يسد حلوق أهل قريتنا، منذ أن تصاعد صراخ الخادمات من دار الحاج حكيم رحمه الله صباح اليوم: من الذي قتل مريم؟ وكيف يمكن أن يذهب مصير ملاك إلى تلك البشاعة؟ القاتل تسلل ليلًا بالتأكيد. ربما بعد خلود مريم للنوم، وربما قبله بقليل، واختبأ في حجرتها، ولكن أحدًا لم يره، لا ابنها، ولا الخدم، ولا حتى صابرين، صديقتها وسلفتها السابقة، والتي تبيت معها منذ وفاة الحاج حكيم تسرية عنها. لا توجد آثار اقتحام على الأبواب أو النوافذ، كما أكدت معاينة النيابة. لا بصمات غريبة، كما سيؤكد لاحقًا رجال المعمل الجنائي. الأدلة الموضوعة أمام رجال التحقيق تجبرهم على توجيه الشبهات لأحد من أهل الدار. لهذا رددت صابرين وسط عويلها على الفقيدة الغالية:

- ليتني بقيت في بيتي وسط عيالي!

أهل الدار أكدوا في التحقيقات أنه لا معلومات لديهم سوى انجذابهم لصراخ الخادمة الموكلة بإيقاظ مريم صباحًا، ثم وقوفهم فوق رأس يفصله عن الجسد أخدود عميق تشكل باللون الأحمر في الرقبة.

الوقت مر بطيئًا ومنصور على وضع الانتظار. فتح الكمبيوتر أمامه على الفراش، ربما خدمه الحظ وظفر بتواصل مع رفاقه في العمل. اليوم السبت، وجميعهم في إجازة نهاية الأسبوع، وغالبًا لن يهتم به أحد. وجد في بريده رسالة من أحد زملائه، تتضمن صورة لعدد من الزملاء في ملابس العمل، يرفعون كئوس الشمبانيا في وجه الكاميرا ضاحكين، ومع الصورة كتب "هكذا احتفلنا برحيلك.. حاول ألا تعود"، ثم وجه تعبيري ضاحك. منصور ضحك رغم سماجة الدعابة، ثم بحث عن أي شيء يمكن فعله على الإنترنت للتخفف من ثقل التوتر، وثقل الانتظار. وقت طويل مر، قبل أن يطرق بابه. صاح دون أن ينهض، مقدرًا أن الطارق لن يكون - في الغالب - سوى شحتة:

- ادخل.

أتاه عبر الباب صوت الفيولين يحمل كلمات:

- لا أستطيع أن أفتح الباب.

منصور هب مسرعًا يفتح الباب. هي كانت واقفة تحمل صينية، عليها كوب ينشر حوله رائحة القهوة الفرنسية، وشطيرتا شيء ما..

- علمت أنك صحوت منذ فترة، ولم تطلب فطورًا.

- في الحقيقة أنا أتضور جوعًا، ولكني وجدت الظروف غير مناسبة.. أعني جريمة القتل وهكذا.

الحزن طعن فجأة الملامح الجميلة..

- أدريت بما صار لخالتي مريم؟ مسكين صخر.. أبوه وامه في أسبوع واحد.

- لحظة.. مريم تلك هي زوجة الرجل الذي قتل منذ أيام؟!

- نعم.

منصور تأسف حقيقة..

- مسكين الشاب الصغير.

هي رفعت يديها بالصينية التي كادا ينسيانها..

- تفضل.. صنعته لك بيدي.

منصور تناول الصينية شاكرًا، ووضعها على طاولة قريبة من باب الحجرة..

- أتريد شيئًا آخر؟

- بالتأكيد.. أريد أن أعرف اسمك.

ضحكت..

- اسمي وردة.

- مرحبًا يا وردة.. أنا منصور.

ضحكت ثانية..

- أعرف.

منصور ضحك كذلك..

- آسف هي فقط عادات التعارف.

- وهل أنت معتاد على اتباع العادات حرفيًا؟

لا يدري منصور لما شعر بنوع من الاتهام في تساؤلها، فسارع بنفيه..

- ليس دائمًا.

منصور صمت منتظرًا تعليقًا ما، فما زادت وردة على الصمت بدورها. أدرك أن عليه هو أن يقود حوارًا، أي حديث، عن أي شيء، خاصة والفتاة - لفرحته - لم تغادر أو تستأذن للانصراف؛ بقيت واقفة منتظرة. منصور فكر لحظتها إن كان من اللائق أن يدعوها للدخول، ولكنه قطع على تلك الفكرة الطريق بسؤال..

- أتدرسين؟

- كنت.. حصلت على الثانوية، وأبقاني أبي في البيت لأنتظر العريس.

- بهذه البساطة؟!

- بهذه البساطة.. رغم أنني كنت طالبة متفوقة.. حصلت على 88٪ أدبي.

منصور لم يفهم ختام جملتها ولكنه قال:

- جيد.

بحث قليلًا عن سؤال جديد..

- كم عمرك إذن؟

ابتسمت..

- هل يمكن أن نكمل الحديث بالداخل.. لا أحب أن يراني الخدم واقفة ببابك.

منصور لم يكن يتخيل أن تقاليدهم هنا تسمح بشيء كهذا؛ لذا فرح، وإن لام في ذات الوقت حماقته لأنه لم يطلب منها الدخول في البدء..

- بالتأكيد.. تفضلي.

دخلت وأغلقت الباب خلفها..

- لماذا لا تخبرني أنت أولًا بعمرك.

- أنا في الرابعة والثلاثين.. أكملتهم قبل حضوري إلى هنا بأيام.

- أنت عجوز إذن!

ملت يدها تتناول كوب القهوة لتدسه في يده..

- اشرب أولًا..

تناول رشفة..

- لم تخبريني بعمرك بعد.

- ليس بعيدًا عنك.. أنا في العشرين.

- أربعة عشر عامًا تفصل بيننا!

- في تقاليدنا، هو ليس فارقًا كبيرًا بين زوجين.

منصور تجمدت يده للحظة بكوب النسكافيه على شفتيه. هل حقًا تلمح الفتاة إلى ما يظن أنها تلمح إليه؟! هي تعجبه كثيرًا، وربما يشتهيها كذلك، ولكن ليس إلى درجة التلميح بالزواج.

- لا تخف.. أنا لا أطلب يدك.

كانت تضحك، وكان هو يضيف انبهاره بذكائها إلى جوار الانبهار بجمالها. قرأت أفكاره ببراعة، فكان عليه أن يعاملها قدر ذكائها..

- ليس خوفًا.. أنت تعلمين.. عاداتنا.. حياتنا..

منصور أدرك أن محاولاته للتبرير تستحيل إلى كوميديا؛ ربما لهذا قرر فجأة أن يرمي بورقته الأكبر..

- أنت تعجبينني رغم هذا.

- أنت أيضا تعجبني.

ساد الصمت. منصور المختنق باختلاف العادات لم يعرف ما

المفترض فعله بعد هذين التصريحين المتبادلين. في بلده، ربما يكون هذا هو وقت تبادل القبلة الأولى. ولكنه هنا لا يملك أي تصور عن رد الفعل تجاه خطوة كتلك. وردة هي من فعل؛ تناولت شطيرة ودست طرفها في فمه..

- تذوق هذا.

قضمها منصور كالمنوم، مسحورًا كان بالولوج البطيء المؤلم لعينيها الزرقاوين في عينيه..

- رائع.. ما هو؟

- عسل بالقشدة.

بعد قضمة ثانية، أشارت إلى الكمبيوتر المفتوح..

- أكنت تعمل؟

- كنت أتصفح الإنترنت.

- رائع.. يمكن أن أضيف حسابك في الفيسبوك، لندردش قليلًا وقت وجود أبي في الدار.

- ليس لي حساب في الفيسبوك.

رفعت حاجبيها دهشة..

- أنتِ بنفسك قلت منذ لحظات إنني رجل عجوز.

ضحكت، فتسارع نبضه. في ظرف طبيعي كان يمكن لاختلاجات القلب تلك أن تشكل له نذير خطر يفسد حياته، ولكنه وجد نفسه في تلك اللحظة مرتاحًا لما يشعر به. هل يعقل أن تكون هذه هي ترجمة ندائه؟! أيكون القدر يعده منذ طفولته لكي يأتي إلى هنا فيلقاها؟ والرسالة؟ ربما إله الحب ذاته هو من كتبها! والحب الذي قاومه طويلًا في بلده، أيكون مقدرًا له أن يسقط في بئره هنا؟!

- "جدران حياتي ملساء..

أتشبث بها..

فأنزلق ببطء تجاه مصيري..

الموت حبًا!"

كان يتحدث بفرنسية هامسة، فتبسمت وتورد خداها. المرة الثانية تلك التي تبدي فيها تجاوبًا مع كلماته الفرنسية. منصور رأى هذا كمزيد من الأدلة على ذكائها؛ هي لا تتجاوب مع الكلمات، وإنما مع أدق اختلاجات الصوت، أدق تهدجات الأنفاس، أدق التماعات العيون، هي تقرأه ببراعة..

- ماذا قلت؟

- مقطع من أغنية لشارل أزنافور.. شيء عن قدرية الحب.. ربما هو كالموت.. لا حل سوى الاستسلام له.

وردة ضحكت..

- أنت تتحدث الفرنسية من جديد!

منصور ارتبك، ثم ابتسم..

- حقيقة لم أنتبه لهذا.. آسف.. اسمعي، أنا قد أتحدث العربية، ولكن الحديث عن الشعور لحظة عفوية.. لا يمكن أن تتدفق إلا بلغتي الأصلية.

هزت رأسها..

- وهذا يكفيني لأفهم ما قلته.

دارت برشاقة، وفتحت الباب مغادرة، ليبقى منصور على وقفته لفترة، يرتشف ما علق من رحيق حضورها.

***

منصور أصابه بعد لقاء وردة قدر من الخلل في إدراك الوقت. لم يعلم كم مر عليه واقفًا في أعقاب رحيلها، أو جالسًا يطالع شاشة الكمبيوتر بعينين مغيبتين وراء صور متخيلة لوجه وردة، أو غفوات قصيرة متقطعة مسكونة بأحلام عن وجه وردة. حتى أيقظته الطرقات على الباب من حالة اللانوم. لهفته للقاء جديد هي ما دفعته للقفز نحو الباب، ليصدمه وجه شحتة المنفوخ، يحاول أن يبتسم رغمًا عن الوجه المحتقن..

- لا مؤاخذة يا سيدنا.. انشغلنا عنك اليوم.

- لا تهتم، فقد بلغني ما حدث.

شحتة كان متعبًا لدرجة اجتياز منصور بلا استئذان، والسماح لجسده بالتهاوي على أقرب مقعد. من جيب داخلي مخبوء فيما وراء فتحة العنق بجلبابه، أخرج منديلًا ضخمًا جفف به العرق السائل على وجهه..

- العمدة سيجن.. مسكين.. ما يحدث له ليس بالأمر الهين.

- وما الذي يحدث له؟!

شحتة تأمل وجه منصور متسائلا إن كان بالفعل جادًّا في سؤاله، أم مازحًا..

- ألا تفهم؟! كل هذا الذي يحدث.. قتل، وشرطة، وحالة فزع بدأت تتمكن من الناس.. هذا قد يحدث زلزالا في سلطة العمدة.

- لا أعتقد.. جرائم القتل تحدث في كل مكان.

- لكن ليس عندنا.. وليس بهذا الشكل.. نحن قوم أصحاب تدين وخلق منذ قديم الأزل.

منصور أمسك لسانه عن مصارحة شحتة برأيه في ذلك التدين وتلك الأخلاق، اللذين يتغنى بهما..

- إلى أين انتهى التحقيق إذن؟

- لم ينتهِ بعد.. لم يزل البكوات يرغبون في لقائك.

لم يفهم منصور ذلك المصطلح..

- بكوات؟!

- أجل.

شحتة لم ينتبه لكون منصور يسأل عن جهل باللفظ..

- ما المقصود بالبكوات؟

- الضباط.. والبك رئيس المباحث.

- ولماذا يرغبون في لقائي؟

نهض شحتة عن مقعده وقد تحسنت حالته، واستعاد وجهه اللون الطبيعي للبشر، ونضبت شلالات العرق..

- يريدون التعرف بك.. أو هذا ما يقولونه.. على الغداء ستجتمعون بعد قليل.. ولكن في الحقيقة، ولا تخبر العمدة أني أخبرتك، أنت الغريب الوحيد في القرية، وحضورك تزامن مع جرائم القتل، فأرجو ألا تؤاخذهم إن هم وضعوك موضع الشبهة!

التحذير الذي حملته كلمات شحتة حبس القلق في صدر منصور طوال جلسة الغداء، فلم يقوَ على الخلاص منه؛ رغم الجهد المبذول من العمدة وضيوفه لتحميل الجلسة بالود والحميمية، ورغم أن الأسئلة المنهمرة على رأسه لم تأخذ شكلا يزيد على شكل التعارف أو الفضول الطبيعي. منصور يكره الفضول، يكره التدخل الزائد في شئونه، ولكن إدراكه للطبيعة الحقيقية للحوار دفعه للحديث بصراحة

وبالتفصيل قدر إمكانه. حدثهم عن عمله، حدثهم عن حياته في فرنسا، حدثهم عن أسباب زيارته للقرية، عن الرسالة، حدثهم حتى عن توهمات النبوة التي كبلت طفولته. تحدث كثيرًا، وهم استمعوا كثيرًا، بتركيز يبدو ظاهريًا أن معظمه منصب على الطعام المسفوح بين أيديهم، ولكنه كان واثقا من أنهم ينصتون إليه جيدًا؛ يرتشفون كل حرف، ويلوكون كل إشارة أو حركة عين. في النهاية، ومع قرب خلو الأطباق، جاءت اللحظة التي انتظرها العمدة. لحظة أن رفع الرجل المهيب يده عن الطعام، لحظة أن نظر إلى العمدة قائلًا:

- دائمًا عامر يا عمدة.

لحظة أن التفت إلى منصور قائلًا:

- أرجو ألا يكون من ضمن مخططاتك سفرٌ قريبٌ، فنحن مضطرون لأن نطلب منك البقاء هنا حتى الانتهاء من التحقيقات كافة.

منصور كان يتوقع أمرًا كهذا، وربما كان يتوق له كذلك. لكنه شاء أن يبدي دهشة..

- ماذا تعني؟

قال الرجل المهيب وهو ينهض:

- أعني أنك ممنوع من مغادرة القرية حتى إشعار آخر.

***

الليل الصيفي في قريتنا برده وقح، كوقاحة سخونة النهار. لولا النار المتقدة دومًا أمام الكشك المنتصب إلى يمين بوابة دار العمدة، ولولا رشفات النبيذ المتقطعة، ولولا عشرات الكيلوجرامات من الدهون، لما تحمل شحتة العجوز البقاء متيقظًا طيلة الليل أمام باب الكشك بحرس البوابة. ينتظر كل ليلة أوان الفجر، فيقوم ليتوضأ، ويطيل في المضمضة ليغسل آثار النبيذ، ثم يؤذن في ميكروفون الجامع الكبير، وبعد الصلاة يعود إلى كشكه، ويتمدد في فراشه، ساقطًا في نوم عميق، يفيق منه مع دقات الساعة الثامنة ليبدأ طقوس يوم جديد.

منصور يرى شحتة ككلب حراسة مدرب جيدًا، فهو لا يفعل شيئًا سوى حراسة سيده العمدة، وخدمة سيده العمدة، لا يهتم باستقلاليته، ولا يظهر أية إشارة عن امتلاكه لحياة شخصية؛ فماذا إن علم منصور أن شحتة لا ينام أكثر من أربع ساعات في اليوم على أفضل تقدير؟ ماذا إن علم أن زيجته فشلت بعد أشهر معدودة؟ ماذا إن علم أن زوجة شحتة غادرته حاملة عزمًا على الطلاق، وطفلًا يتشكل في رحمها؟ ماذا إن علم أن شحتة الشاب كان فرحًا وهو يطلق زوجته، شاعرًا بالتحرر، وبقدرته على متابعة خدمته الدءوب للعمدة - الحاج توفيق وقتها - بلون منغصات أو مسئوليات تكبله؟ ماذا إن علم أن شحتة في سبيل عمله لم يرَ ابنه منذ قرابة الثلاثين عامًا؟ منذ أن حملته أمه ورحلت إلى المدينة في ركب زوجها الثاني. بل ربما نسي شحتة من الأصل أن له ابنًا تقول حكايات الناس إن الابن صار طبيبًا باطنيًا ذا سمعة حسنة، ولكن شحتة لم يحاول حتى أن يتأكد من صدق حكاياتهم.

شـحتة بالنسبة لمنصور كان لغزًا. الشـخصية الأجدر بالدراسة من بين كل من قابلهم في قريتنا. ورغم هذا، لم يكن في حسـابات منصور وهـو ينضـم إلى مجلس شـحتة الليلـي أن يتقـرب منـه، أو أن يحاول اقتحام سـراديب أسـراره؛ فقط هـي خطوة كان لا بد منهـا ليتمكن من اجتياز بوابة الدار.

كان منصـور واثقًـا - وبرغـم معاملتـه كضيف مكرم - مـن أنه لن يسـمح له بمغادرة الدار وحيـدًا، وخاصة بعد انتصـاف الليل، لذا قرر - اتباعًا لغرائزه المتوجسـة - أن التسلل هو خياره الوحيد. يعوقه فقط أبو الهول هذا السـاهر دومًا بجوار البوابة. كان عليه - كخطوة أولى - أن يقصـد مجلسـه، كان عليـه أن يجـد جوابًـا لتسـاؤل الدهشـة الذي سيلاقيه به الخفير العجوز..

- ماذا تفعل بالخارج في هذه الساعة يا سيدنا؟!

وجوابه سيكون:

- لم أحتمل الحر.. أنا لم أعتد النوم في تلك الأجواء.. والمروحة لا تفعل شيئًا سـوى توزيع السـخونة في كل مكان.. لذا خرجت بحثًا عن الهواء.

وشحتة سـيصدق؛ غالبا سيصدق. منصور يرى به شيئًا من سذاجة طفولية، ربما سيرتاب في البدء..

- أي حر يا سيدنا؟! الجو الليلة باردا

ولكنه سيقتنع حين يخبره منصور:

- ربما بالنسبة لك.. ولكن بالنسبة لشخص مثلي قادم من بلاد الصقيع، فالجو حار لدرجة الاختناق، صدقني.

حينها سيبتسم شحتة، ويدعوه لمشاركته جلسته على الحصير الأملس، وكوب نبيذ من صنع يديه.

منصور سقط نظره في البدء على البوابة، لم تكن موصدة، إحدى ضلفتيها مواربة؛ شحتة المملؤ ثقة في قدراته كحارس ليلي مخيف، لم يكن يجد داعيًا لغلق البوابة، كما أنه بفعل السن، والنبيذ، والتهاب بسيط في البروستاتا، يحتاج لاجتيازها كل فترة، ليتبول في بقعة قريبة عند جدار البيت المقابل! شحتة ملأ كوبًا بنبيذه سائلا منصور:

- تشرب معي؟

منصور وافق على أمل أن يكون رأس شحتة من النوع الهش، فربما ساعده على تخطيه شيء من حظ أبطال الأفلام، عندما يثمل الحارس فينام في مجلسه! ولكن بعد كوبين مملوءين، وكثير من الثرثرة، تملك من منصور يقين بأن ذلك الرأس العجوز أكثر صلابة مما يبدو..

- أريد أن أصارحك بأمر يا حاج شحتة.

شحتة هز رأسه رفضًا..

- لا تناديني بلقب "حاج".. فهذا لقب مبجل لا يليق سوى بالعمدة أو الأعيان.

منصور لم يكن خياله بقادر على إدراك حدود ينتهي عندها إخلاص شحتة لأسياده؛ ربما لهذا كان شحتة قادرًا دائمًا على مفاجأته..

- بماذا أناديك إذن؟

- شحتة وكفى.

- حسنًا يا شحتة.. أريدك أن تحدثني بصراحة.. أنا أعتقد أن العمدة لا يرغب حقيقة في السماح لي بزيارة الفابريك.

شحتة كان بالذكاء الكافي ليتمهل طويلًا قبل الإجابة، ليبحر في قسمات محدثه محاولًا اكتشاف النوايا الحقيقية وراء كلماته. منصور كذلك حاول جهده كي لا يبدو على وجهه سوى أمارات البراءة..

- زيارة الفابريكة حقك.. هو ميراثك على كل حال.. ولكن دخولها هو الأمر الصعب.

- لماذا؟

- الفابريكة يا سيدنا مكان مقدس.. محرم علينا نحن أهالي القرية دخولها، فما بالك بالغريب.. وهذه تعليمات سيدنا الشيخ ربيع.. العمدة رجل لا ينطق عن الهوى.. هو فقط حارس أمين للمقدسات ولقيم القرية.. ربما هو يخشى نتائج فادحة إن قدم لك استثناءات.

منصور تشاغل قليلًا بتأمل النار..

- أنا لا أفهم.. لماذا أمنع من دخول مكان يفترض أنه لي، من أجل بضعة أولاد يسكنونه؟!

- أستغفر الله العظيم.. لا تتحدث عنهم هكذا.. إنهم أولاد مقدسون.

احترام منصور لسرية الحديث الذي دار بينه وبين صخر بالأمس، هو ما جعله محكومًا بلعب دور الجاهل..

- ماذا يعني هذا المصطلح على كل حال؟! من هم الأولاد المقدسون؟

منصور توقع ألا يجد عند شحتة إجابة لتساؤله سوى الكتمان، ولكن شحتة تكلم؛ حكى له كل شيء. حكاية شحتة لم تختلف كثيرًا عما حكاه صخر، الاختلاف الأكبر كان في لكنة الإيمان والتقديس للوقائع في حديث شحتة، بعكس صخر، المسكونة كلماته بالمرارة وبالاستهزاء. في نسخة شحتة من الحكاية، وجد منصور الفرصة للتزود ببعض التفاصيل الناقصة، ووجد الفرصة للاطلاع على وجهة نظر المعسكر المخالف..

- كلامك تبدو فيه القدسية تجاه أولئك الأولاد.. ولكن تلك التصرفات.. حرمانهم من العمل.. حرمانهم من الدراسة.. عزلهم بهذا الشكل في الفابريك.. تبدو لي تصرفات قاسية ليس بها رائحة التقديس!

ضحك شحتة وهز رأسه..

- هذه الأفعال التي تذكرها ليست لشيء سوى لفرط خوفنا عليهم.. إنه تكريم لهم يا سيدنا.. لا نريد لهم الاحتكاك بمن هم أدنى.. كما

تحبس العصفور في قفص لحمايته.. وفي النهاية هم ليسوا في سجن مثلا.. فخروجهم من الفابريكة ليس محرمًا إلا في المساء، حين يغلق لبيب بابها بالجنزير.. ولكن في النهار يروحون ويجيئون كما شاءوا.. بل ومنهم العشرات ممن غادروا القرية ولم يعودوا.. نحن فقط نحرم عليهم دخول البيوت.

- ولكن كما فهمت منك أن دخول البيوت كان مسموحًا لهم من قبل.

- كان هذا قبل حادثة صخر.

- أي صخر؟!

شحتة ابتسم..

- ربما لاحظت أن اسم صخر منتشر في قريتنا.. ولكنني أتحدث عن صخر الأصلي.. أول من تسمى بهذا الاسم.. ومن صرنا نطلق اسمه على أبنائنا تبركًا به. صخر هو من سمى نفسه بهذا الاسم.. كان ولدًا مقدسًا، ونحن لا نمنح الأولاد المقدسين أسماء.

شحتة سكت عن الكلام وكأنما فرغ منه. منصور تعلم أن من عادة القوم هنا السكوت المفاجئ عن الحكايات. تعلم أن الناس في قريتنا يحبون أن يُسألوا ليجيبوا؛ ربما تأكيدًا لانجذاب المستمع لحكاياتهم، وربما لإشباع احتياج ذاتي للشعور بالأهمية..

- وما حكاية صخر هذا؟

- حكايته حدثت منذ وقت طويل.. بعد تولي الحاج رضوان العمودية بقليل، في منتصف الثمانينات.. صخر كان في العاشرة من عمره تقريبًا، كما قدرت أم سميرة قابلة القرية حين وقوع الحادثة، وكما أكد من تذكروا حقيقة أن صخر كان أول ولد مقدس يولد في قريتنا بعد الحرب. صخر كان له أصدقاء من أبناء القرية.. وقتها كان مسموحًا باختلاطهم مع الأولاد المقدسين. بعض أصدقائه خالفوا التعاليم العتيقة وذهبوا للعب عند الطريق الصاعد للقصر المهجور.. وعندما عادوا، كان أحدهم مفقودًا.. خطفته عفاريت القصر.. القرية باتت في حزن.. لم يكن هناك شيء يمكن فعله، فمن منا قادر على مواجهة العفاريت؟! ولكن صخر صعد التلة.. ودخل القصر.. أراد أن يعيد صديقه.. ولكن هو نفسه لم يعد.. خاض معارك شرسة مع العفاريت.. رغم ضآلته وصغر سنه، الشجاعة كانت إلى جانبه، فلم تتمكن العفاريت من صرعه إلا بعد جهد.. الشجاعة خلفت روح صخر معلقة عند باب القصر، تدافع عن القرية.. وتمنع العفاريت من مغادرة القصر إلينا.. ومن يومها لم يختفِ أحد من أهل قريتنا.. وما عدنا نشاهد العفاريت في الحقول ليلًا.

صوت شحتة كان يتهدج تأثرًا كلما أوغل في حكايته، ومنصور يتساءل: أما من نهاية لأساطير أولئك القوم؟!

- صخر كما تقول صعد إلى القصر وحده، ولم يعد..

- بلى.

- من أين إذن علمتم بما صار من عراك بينه وبين العفاريت؟!

شحتة ابتسم تأسفًا لسخافة السؤال..

- مولانا ربيع زار العمدة وقص عليه القصص، وأخبره بأن الأولاد المقدسين يحرم عليهم دخول البيوت.. أو مخالطة أهلها إلا لحاجة.. أو الخروج بعد غروب الشمس.. ويحرم علينا دخول البيت القدسي.. فما فعله صخر رفع الأولاد المقدسين درجة فوق رؤوسنا.. وبات عزلهم ضرورة.. صيانة لمنزلتهم الجديدة.

الكلمة الفرنسية التي وردت لحظتها على لسان منصور لم تكن كما ظنها شحتة؛ لم تكن هتاف استحسان على غرار "سبحان الله"، أو "الله أكبر"؛ وإنما كانت في الحقيقة سبة بذيئة! اعتقاد شحتة الخاطئ دفعه للمتابعة متحمسًا:

- من يومها ولبيب يربض ليل نهار أمام باب الفابريكة، بعد أن اختاره العمدة ليكون حارسًا للبيت القدسي.

لم يفت منصور أن يلاحظ الحزن المنقوش على النصف الثاني من جملة شحتة؛ كان يمكن أن يستفسر عن الأمر، وقد تعلم أن الفضول في قريتنا فضيلة، ولكن الفرصة التي كان يبحث عنها أتته الآن لتذكره بهدفه الأصلي الذي كاد ينساه..

- بعد إذنك يا سيدنا.. سأذهب لأفك حصر!

منصور لم يفهم ما يعنيه شحتة إلا بعد أن رآه يعبر الباب الموارب،

ويوليه ظهره في بقعة مظلمة، ويرفع جلبابه ليتبول. منصور نهض مسرعًا مغالبًا الاشمئزاز، بخفة عَبَر البوابة، تحرك إلى بقعة مظلمة بعيدة عن مجال رؤية شحتة. قدر أن شحتة إن عاد إلى مجلسه فلم يجده، فربما يظنه قد عاد إلى حجرته. ترقب حتى شاهد شحتة يعبر البوابة داخلا، ثم انطلق متسترًا بالزوايا المعتمة، يقطع المسار الموصوف له، والذي رسمه في ورقة صغيرة حتى لا ينساه؛ عبر الشارع الواسع القريب، انعطف من ثالث شارع إلى اليمين، فاجأه جمع من الشباب ساهرين على مقاعد أمام دكان مفتوح مكتوب على لافتته (قهوة بسيوني). صمتوا عندما مر بهم. بدوره توتر، فلم يكن يتوقع أن يجد شهودًا على مغامرته تلك. أخفض رأسه، وأسرع خطواته ليتخطاهم. أحدهم أدركه بنداء..

- تفضل.

فلم يجد جوابًا معقولا سوى..

- Merci.

وأكمل طريقه وهو يتساءل إن كانوا فهموا ما قاله! انعطف إلى الشارع التالي للمقهى. وجد نفسه في ساحة صغيرة خالية من المنازل. هي بالتأكيد ما تعرف باسم ساحة المعيز. لم يكن بها ماعز في تلك الساعة، ولكن كان بها ما هو أهم؛ فأمامه كانت تقبع الفابريكة.

***

الفابريكـة بنـاء مرتفع، يسـاوي في الارتفاع بناء من خمسـة أو ستة طوابـق، وفقًـا لمقاييسـنا الهندسـية الحديثـة. طلاؤه الخارجي تسـاقط بالكامـل، ليفسـح المجال لرؤية قوالـب الطوب الأحمر وقد اسـودت وتآكلـت بفعل الزمن. رغم هـذا يبدو البناء متينًا شـامخًا، ربما أكثر قوة مـن البيوت الحديثة التي تجاوره. مـن قمة البناء ينتصب عمود حديدي طويل نحو السـماء. باب الفابريكة خشـبي مرتفع، مقسوم إلى ضلفتين يزيد عرض الواحدة منهما على المتر. أعلى الباب لافتة خشـبية شققتها الأعوام، وإن لم تزل الكتابة عليها - بالطلاء الأبيض الباهت- مقروءة.. "فابريكـة الخواجة رينار وولده حسـونة". بالطبع منصور لم ير اللافتة فـي ذلك الليـل، وعبر تلك المسـافة، فتركيزه لحظتهـا كان منصبًا على النار المشـتعلة أمام الباب، والكشـك الخشـبي المجاور له، كشقيق توأم لكشـك شـحتة في بيت العمـدة. وذلك الجسـد المنكمش أمـام النار، بالتأكيد هو جسـد لبيب حارس الفابريكة. منصور عليه الآن أن يتسـلل - دون أن يراه لبيب - إلى الحارة الضيقة الغارقة في الظلام، كشق طولي يقطـع تلاحم صـف البيوت. لكن السـاحة الواسـعة مكشـوفة بالكامل لزاويـة رؤيـة الخفير المسـتدفئ بالنـار. منصور تمنى أن يكـون لبيب - كمثـل كل العجائـز - مصابًـا بأزمات إبصـار، فلا يراه وهـو يدور دورة واسـعة عند أطراف السـاحة، قاطعًا المناطق المضـاءة ركضًا، ومتمهلًا في المناطق المظلمة، ليرى إن كان لبيب عدل جلسـته، أو اتجاه رأسـه. ملتصقًـا بظهره في جدران البيوت، متقدمًا من الناحية اليمنى للفابريكة. حتى عندما بات الكشك يفصله تمامًا عن نظر لبيب، تحرك متقدمًا بحذر

وبطء، كي لا يفضحه صوت الخطوات على الأرض غير الممهدة، قبل أن ينزلق أخيرًا إلى الحارة المظلمة بالغة الضيق.

كانت أمامه أزمة في العثور على النافذة المقصودة في هذا الظلام. أخرج هاتفه، الذي أبقاه مغلقًا منذ لحظة مغادرته لباريس. كان قد أخذ الهاتف معه الليلة فقط للاستعانة بضوء كشافه. أضاء الكشاف، وسلطه إلى أعلى الحائط، حتى عثر على النافذة المقصودة. وجه الضوء إلى الأرض بحثًا عن حصاة، أو حجر صغير ليلقيه عبر النافذة. ولكنه قبل أن يفعل سمع صوتًا هامسًا يناديه من أعلى:

- لا داعي.. لقد رأينا ضوء كشافك.

عاد يرفع عينيه وضوء الكشاف؛ كان صخر في النافذة ممسكًا بشمعة، يغطي عينيه بكفه ليعزلهما عن الضوء الذي سطع بهما فجأة. منصور أطفأ كشافه معتذرًا:

- Pardonne-moi!

كانت الشمعة المطلة عبر النافذة في يد صخر كافية لتبين تفاصيل المكان..

- انتظر قليلًا.. ولكن لا تقف تحت النافذة تمامًا.

منصور تراجع خطوتين إلى اليسار، لم تمر دقيقة حتى شاهد قضيبًا معدنيًا يخرج من النافذة، لم يتمكن من تبين تفاصيله إلا حين عاد صخر ليطل بشمعته، على ضوء الشمعة تمكن من تمييز رافعة معدنية؛ قضيب

يمـر بطوله سـلك معدني ممـدود بين بضـع بكـرات دوارة، موزعة على امتداد القضيب. السلك يحمل في منتهاه وعاءً معدنيًا ضخمًا؛ تدلى حتى لامس الأرض أمام قدمي منصور. صخر وافاه بالتعليمات من أعلى:

- قف داخل الوعاء، وتشبث بالسلك جيدًا.

منصور توجس؛ ما من ضمانة له أن يحتمل هذا الشـيء ثقله. ربما لـو كان الوقـت نهـارًا، أو أتيحت لـه إضـاءة كافية، لتبيـن الصدأ على السـلك، أو التآكل في أطـراف الوعاء المعدني، ولما تجـرأ أبدًا واتبع تعليمات صخر.

السلك ارتفع ببطء. صوت صرير كان يأتيه من أعلى، صانعًا تأثيرًا مخيفًـا، يدعم خيـالات منصور عن قرب انقطاع السـلك، والسـقوط مـن هـذا الارتفاع علـى ظهره، محطمًـا فقـرات الرقبـة، وقاطعًا حبله الشـوكي، ليقضـي مـا بقي مـن عمره مشـلولا على فراش مجهـز طبيًا ضـد تقرحات الرقاد الطويل! ولكـن الرحلة اكتملت، وبلغت نهايتها؛ النهايـة كانت قبل النافذة بقليـل، حيث حافة النافذة تعلو رأس منصور بسنتيمترات..

- تشـبث الآن بحافـة النافـذة، وارتكـز بقدمـك اليمنـى على هذا البروز، وادفع نفسك لأعلى ونحن سنجذبك.

بجـوار وجه صخـر رأى وجهين جديدين، لطفليـن لا يتعدى عمر أكبرهما السادسة عشر أو الخامسة عشر.

- هل أنت واثق من أن ما تقوله آمن؟

صخر أجابه ببساطة..

- لن يكون أكثر خطورة من رفعك بهذا الوعاء المتهالك!

بلغه صوت ضحكة من أحد الطفلين، فصلى إلى الله أن يكون ما قاله صخر مزاحًا. نفذ التعليمات بدقة؛ ست قبضات قوية تلقفته من عدة مواضع في ذراعيه وجذبته، حتى عبر جسده النافذة بشكل أفقي. ساعده الثلاثة على الاستواء، ليقف أخيرًا على أرض لا تتأرجح تحته، متلمسًا دوارًا خفيفًا في رأسه..

- مرحبًا بك في الفابريكة.

كلمة صخر نبهت منصور أنه بالفعل - وأخيرًا - داخل الفابريكة. الآن كان يمكن لمداركه أن تنسحب من توتر رحلة الصعود، وتنصب بكامل وسعها على تبين ما حوله. كانوا تسعة؛ تمامًا كما أخبره صخر؛ كل منهم يحمل شمعة في يده. الوجوه المتسخة، وضوء الشموع الشحيح، أعجزوه عن التحديد السليم لأعمارهم، أعجزوه حتى عن تفرقة الذكور عن الإناث، ولا حتى عن طريق الأسماء التي مرت برأسه لحظة التعارف مرورًا سريعًا، دون أن تتمسك بعقله؛ ربما لغرابتها..

- سحاب.. نور.. بحر.. فأر.. شجرة.. قمر.. رعد.. ريح..

هكذا عرفهم صخر، مستعينًا بإشارات من يده تجاه صاحب كل اسم. منصور ما كان ليستوعب كل تلك الأسماء، فما بالك بربطها

بوجوه بدت له أصلًا متشابهة. ربما سيتذكر ذلك الطفل المسمى ريح، ليس لغرابة الاسم، وإنما لأنه الوحيد الذي تكلم؛ بصوت غاضب قال:

- شريف.. اسمي شريف.

الأولاد ضحكوا، وصخر قال موضحًا:

- أنا لا أعرف من أين أتى بهذا الاسم.. ولكنه مصر على التسمي به.. نحن سميناه ريح لأسباب قد أشرحها لك فيما بعد.. ولا أعرف إن كنا نملك الرغبة لتغيير اسمه أم لا.

ضحكوا من جديد، فتبعهم منصور بابتسامة مجاملة. كان يرغب في اكتشاف المكان أكثر من رغبته في البقاء محاصرًا وسط هؤلاء المراهقين ومزاحهم الذي لا يعنيه..

- ما هذا؟

كان يهرب من أية حوارات سخيفة أخرى قبل أن تبدأ، بالإشارة إلى الرافعة المعدنية التي صعدت به. الآن كان يمكن أن يتبين أن القضيب المعدني متصل بقائم ضخم يبقيه راسخًا على الأرض، وفي مؤخرة القائم مقودين دائريين، واحد في كل اتجاه، بكل منهما ذراع تدوير، يقوم شخصان بتدويرهما يدويًا ليرتفع الوعاء بحمله..

- هذه رافعة تستخدم في البناء، أدخلت عليها بعض التعديلات لتعمل بشكل يدوي.. هذا يجعلها أبطأ.. كما يمثل عبئًا جسديًا شاقًا.. ولكنه في النهاية يناسب إمكانياتنا بشكل أفضل.

منصور غلبته الدهشة..

- أنت؟ أنت من صنعت هذا؟

- نعم.. تبدو مندهشًا.

- لا تهتم.. سأؤجل الاندهاش الآن..

لاحظ للمرة الأولى أن شعر صخر مربوط عند مؤخرة رأسه كذيل الحصان، مبرزًا ملاحة وجهه..

- ولكن من أين تحصل على هذه الأشياء؟

- أخذت عجلتي التدوير من ماكينة جدك.. والرافعة نفسها مسروقة بالطبع!

- مسروقة؟!

صخر ابتسم..

- مسروقة مثل كل شيء هنا.. وحتى هذا الشمع في أيدينا..

- ولكن..

- ولكن ماذا؟ السرقة حرام؟! هذا لا يسري علينا هنا.. نحن مقدسون.. لا شيء محرم علينا سوى التدخل فيما لا يعنينا.. رغم أن الفضول هو دين قريتنا.

لحظتهـا انتبـه منصـور إلى تلـك الفتـاة التي تلاصق صخـر كظله، كانـت في مثل عمره تقريبًـا، كلاهما يبدو أكبر من باقـي الأولاد؛ انتبه لها حين قالت بغضب:

- مـاذا كنـت تعتقـد؟ هل تصـدق أننا مقدسـون، وأن أهـل القرية يكرموننـا؟ إن لـم نسـرق احتياجاتنا، وإن لـم نتسـول طعامنـا، لهلكنا، ولن ينتبه لهلاكنا أحد.. ربما حتى أسعدهم الأمر.

- على مهلك يا سحاب.. السيد منصور معنا..

قالها صخر ثم التفت إلى منصور مكملًا:

- أليس كذلك؟

منصور شعر أنه يسرق إلى منطقة لا يرغب في دخولها الآن..

- لا تدفعنـي أرجوك.. أنت والعمدة، كلاكمـا مصر على إقحامي في صراع لا أفهمه، ولا أعرف كيف سأكون مفيدًا لأي من طرفيه.

سحاب أشاحت بيدها..

- أرأيت؟

صخر قال:

- لنُعطِهِ فرصة.. فقط حتى يعرفنا..

منصور قال بسرعة:

- آنسة سحاب، تأكدي أني متعاطف معكم.. هذا لا شك فيه.. ولكني لا أعرف كيف أخدمكم.

صخر قال:

- أنا أعرف أن ما دفعك إلى الحضور هو الفضول لاكتشاف فابريكة جدك.. فلماذا لا تروي هذا الفضول أولًا.

قالها صخر، ثم تحرك وباقي الأولاد خطوتين إلى الأمام، ليتوقفوا أمام ذلك الحاجز. منصور فهم لحظتها أنه يقف على ما يشبه الشرفة الداخلية. كان الطابق الثاني حيث يقفون عبارة عن طوار خشبي معلق على أعمدة ودعامات حديدية، يطل على قلب الفابريكة، حاجزه قريب جدًّا من ذلك البناء المعدني المنتصب بارتفاع الفابريكة..

- هذه هي ماكينة الخواجة السحرية..

منصور تقدم مبهورًا نحو حاجز الطوار، الشموع الآن تكشف للعين جزءًا صدئًا من جسد الماكينة. حين مد يده استطاع ملامستها. ما لمسه لم يكن أكثر من غلاف حديدي صدئ وبارد؛ ما بداخله هو الأهم، الدليل على ما كانت تصنعه تلك الآلة موجود وراء هذا الغلاف. منصور تساءل عن مصدر الأموال التي أنفقها جده في تشييد كل هذا، إلا إذا كان ساحرًا وصاحب معجزات كما يتحدث أهل القرية. عندما رفع رأسه، اكتشف أن بسقف الفابريكة كوة مفتوحة على السماء، يخرج عبرها العمود المعدني ممتدًا من قمة الماكينة..

- كيف نهبط من هذا المكان؟ أريد أن أستكشف قاعدة الماكينة.

- تعالَ وراءنا.

الأولاد ساروا على الطوار المعلق، وتبعهم منصور. كان طويلًا، يدور حول الماكينة بالكامل، يمتد منه سلم لأعلى، يقود إلى سطح الفابريكة عبر الكوة المفتوحة في سقفها، وسلم آخر - بلغوه بعد خطوات - يقود إلى الأسفل. منصور هبط وراءهم، حتى بلغوا الأرض المكسوة بألواح خشب متآكلة، تحدث صريرًا عند السير عليها..

- ألا توجد كهرباء هنا؟

- بالطبع توجد كهرباء.. ولكننا نفضل الشموع.. فهي تجعل الأجواء أكثر شاعرية!

سحاب هي من أطلقت تلك الكلمات الهازئة. صخر تدخل لتخفيف وقع حدتها..

- ماذا تتوقع يا سيدنا؟ نحن هنا نحيا كالفئران.

الأولاد توزعوا في سيرهم حوله، لتكشف أنوار الشموع التي يحملونها كل الأركان أمام عينيه. الماكينة ملفوفة بغلافها المعدني، يصد رغبته في استكشافها..

- إنها تعمل بالبرق..

كان ينظر نحو الكوة في أعلى..

- ماذا تقصد؟

سأله صخر مهتمًا، فأجابه:

- لا يوجد سبب لخروج هذا العمود عبر السقف بهذا الشكل، إلا إذا كان يستخدم في جذب الصواعق.. ولكن لماذا؟! لماذا البرق؟

صخر لم يجب، ولكن أحد الأولاد قال بتلقائية طفولية:

- أنا لا أفهم شيئًا!

كان الولد مثلث الوجه، بجبهة عريضة، وذقن مدببة، وأذنين كبيرتين، وأنف بارز؛ منصور فكر، إن لم يكن هذا الولد هو الذي يسمونه "فأر"، فمن سيكون؟!

- هذه الآلة كما يحكون مبنية منذ مئة عام.. وقتها كان الإنسان يعرف الكهرباء.. ويعرف البخار.. وقتها كان الهوس بطاقة البرق قد انتهى، وأدرك الإنسان أن ثمة بدائل أكثر توفرًا من تلك الطاقة شبه الخيالية.

فأر هز رأسه..

- طيب!

ولكن صخر تدخل بجدية..

- لا أظن أن الكهرباء منذ مئة عام كانت متوفرة في مكان ريفي كهذا.

منصور تأمل قوله قليلًا..

- ربما هذا يفسر الأمر.. ولكن مستحيل أن تكون هذه الآلة قد عملت بشكل سليم في يوم من الأيام، فالمنطق خاطئ.. هذا شيء لم نسمع به سوى في حكايات خيالية.. فرانكنشتاين مثلا.

منصور كان منفعلا، فكانت نصف كلماته بالفرنسية. رغم هذا تساءل صخر بذات الاهتمام..

- هذه الآلة إذن لا تعمل إلا في الشتاء؟

- بل لا تعمل إلا في لحظة امتصاصها للبرق كما يفترض.. فطاقة البرق لحظية.. ولا يمكن تخزينها.

- أليس من طريقة لجعلها تعمل بالكهرباء؟

- هذا ممكن.. فقط إن تمكنا من فهمها ومعرفة كيف تعمل.

أمامهم كان باب مغلق في جسد الماكينة منقوش أعلاه كلمة sortie.. قرأها منصور بصوتٍ عالٍ بالعربية:

- "خروج".. خروج أي شيء؟!

دار حول الماكينة باحثًا، حتى وجد الكلمة التي كان يفتش عنها منقوشة على المعدن..

- entrer.. دخول..

ثم استدار مواجهًا الأولاد، شارحًا ما يدور برأسه..

- حسنًا؟؟ شيء ما كان يدخل إلى تلك الماكينة، ويخرج من الناحية الأخرى.. وبالتأكيد لم يكن يخرج بنفس الصورة التي دخل عليها..

صخر كان مبهورًا وهو يسأل..

- أتقصد أنه كان يتحول؟

- يمكن أن تقول هذا.. ولكن ما الذي كان يدخل؟ وإلى أي شكل كان يتحول؟ هذا هو السؤال؟

منصور تذكر الأساطير التي سمعها من العمدة والأعيان عن معجزات جده؛ إحداها كانت تحكي عن بابين في ماكينته، تدخل من أحدهما الفتاة القبيحة، فتخرج من الآخر جميلة مثل القمر!

- C'est impossible!

- ماذا تقول؟

تجاهل الرد على سؤال صخر؛ كان يتأمل ذلك السير المتحرك الممتد أمامه على الأرض، يقود إلى الباب المفتوح المكتوب أعلاه "دخول".

- الشيء كان يوضع على هذا السير المتحرك، فيأخذه إلى داخل الماكينة.. ولكن كيف كان السير يتحرك؟

- بشكل يدوي.

قالها صخر..

- العجلتان المثبتتان كذراعي تدوير في الرافعة.. كان مكانهما هنا قبل أن أنزعهما.

كان يشير إلى قائمين عند مقدمة السير المتحرك..

- جميل.. إذن كان الأمر بحاجة إلى رجلين، يديران ذراعي التدوير، فيتحرك السير بحمله إلى داخل الماكينة.

عاد ليتأمل السير المتحرك؛ على جانبيه حاجزين حديديين بارتفاع يتجاوز المتر بقليل..

- السير محاط بحاجزين.. لماذا؟!

منصور واصل التفكير بصوت عال؛ لم يجبه أحد؛ وهو لم يكن ينتظر جوابًا..

- ربما لأن الداخل إلى الماكينة كان كائنًا حيًّا.. والحاجزان لمنعه من القفز عن السير المتحرك.

خطا منصور فوق السير؛ كان متآكلًا، تهالك تحت خطواته، ولكنه تابع الطريق. اجتاز الباب ليصبح داخل الماكينة. أضاء الكشاف في هاتفه. الضوء المفاجئ أزعج عشرات الفئران فانطلقت تعدو تحت قدميه إلى الخارج. منصور رفع ضوء الكشاف إلى أعلى ودار في كل مكان. تروس، أسلاك، ناقلات كهربائية، تنتهي بعدد من ملفات تسلا،

لنقل الطاقة الكهربائية دون أسلاك؛ كان تشابكًا من الأجزاء - التي كانت تعتبر في أوانها منتهى التكنولوجيا - لم يفهم منصور منه شيئًا. ما جذب اهتمامه أن السير المتحرك كان ينتهي في منتصف المسافة نحو باب الخروج المقفل. لماذا؟ - هكذا فكر منصور - لماذا لا يمتد السير حتى يحمل الأشياء الخارجة؟ ربما لأن الداخل لا يخرج! وربما يخرج بإرادة حرة!

منصور خرج ليواجه تسعة أزواج من الأعين المتسعة على لهفتها. الأولاد ربما ظنوا أنه - وبمجرد نظرة على قلب الماكينة - سيعيد منصور أمامهم معجزات جده المزعومة..

- لا شيء.. مجرد فئران وبعض من تكنولوجيا قديمة.

عاد بعدها يمسح الماكينة ببصره. كان مبتسمًا وهو يقول:

- الأمر يذكرني بكتاب tintin en amerique.. كانت به ماكينة تشبه تلك.. تدخلها البقرة من ناحية فتخرج من الناحية الأخرى على شكل سجق ومعلبات لحم.

تطلع إلى وجوه الأولاد، فجاوبوه بنظرات عدم فهم. تحرج من ابتسامته؛ وكأنه كان متوقعًا أن يفهم الأولاد ما يتحدث عنه..

- أتحدث عن قصة مصورة كنت أقرأها في بلدي وأنا في مثل عمركم.

أحد الأولاد تساءل:

- ما معنى "قصة مصورة"؟

منصور لام حماقته أكثر..

- عندما يسمح لي بالخروج من قريتكم.. سأحضر لكم بعضًا منها.

ساعتها اختفى الذهول عن الوجوه الصغيرة، واحتلت الابتسامات مكانه. فقط سحاب قالت:

- قصص؟! ما سنحصل عليه منك مجرد...

صخر قاطعها..

- ليس الآن يا سحاب.. ليس الآن.

منصور تدخل..

- آنسة سحاب أنا لا أفهم.. إذا كنتم تتحدثون وكأنكم تتوقعون مني شيئًا، فلماذا لا تطلبون ببساطة، وأنا لن أخذلكم إن كان الأمر بيدي.

ساد الصمت لفترة تقاطعت خلالها النظرات. منصور شعر بتصدعات ترتسم على حواجز خفية أرادوا أن يضعوها بينه وبينهم. شعر أن النظرات ستذيب الجمود، وستنتهي بالمصارحة. الآن ستفتت صرامة صخر ليخبره بكل شيء. صخر لما حان وقت التحدث قال:

- أولًا سحاب ليست آنسة.. سحاب زوجتي.

منصور ارتبك..

- آسف.. لم أكن أعرف.

- لا عليك.. ثانيًا.. بالفعل نحن نريد منك خدمة.. ولكن أرجوك سامحني.. هذه الخدمة تتطلب أن أكشف أمامك سرنا الأكبر، وهو شيء لا أستطيع فعله إلا إذا وثقت بك تمامًا.. يجب أن أتيقن أولًا من أنك مؤهل لمساعدتنا.. ومن أنك، وهذا هو الأهم، تمتلك الرغبة في ذلك..

- وما المطلوب مني لنيل ثقتك؟

منصور قالها بشكل هازئ، فما سمعه من صخر كلام - من وجهة نظره - ينطق بالطفولية وقصور الإدراك؛ هو لم يطلب منهم شيئًا لكي يكون عليه أن يثبت جدارته أولًا. هو أصلًا لم يرد منذ أن جاء إلى قريتنا سوى أن يترك لحاله.

- لن أطلب منك أكثر من الصبر.. ابقَ معنا.. اعرفنا جيدًا..

- سامحني، فلا وقت لدي لهذا.. أنا لي حياة، ولي عمل على بعد آلاف الكيلو مترات من هنا.. ويجب أن أعود إليهما في أقرب وقت.

سحاب قالت:

- لا تنتظر العودة قريبًا.. العمدة لن يدعك تغادر.. هو كذلك يماطلك قبل أن يصارحك بطلبه.

- وما هو طلبه؟

- وكيف لي أن أعرف؟!

منصور نفث عن صدره شحنة توتر..

- ولماذا جميعكم تريدون مني شيئًا؟

صخر هو من أجابه:

- لأنك حفيد الخواجة، وبالتأكيد تملك شيئًا من علمه.

منصور ضحك؛ ضحكة عالية متوترة..

- أنتم لا تفهمون.. ما تحكونه عن جدي مجرد أساطير.. وإن كانت حقائق، فلا علم لي بها.

تبادل الأولاد النظرات من جديد. قد يبدو صخر هو الأكبر عمرًا، قد يبدو هو المسيطر على هذا الجمع، ولكن في تلك النظرات المتبادلة شيء، وكأنهم يتشاورون، وكأن صخر يستمد شجاعة اتخاذ القرارات من أعينهم. منصور تساءل، كيف يمكن أن توحدهم جميعًا تلك الخيوط الخفية التي يستشعرها؟

- ربما عليكم أن تخبروني بما تريدونه، لأحدد لكم بشكل قاطع إن كان بمقدوري أم لا.

منصور قطع بكلماته اجتماعهم الصامت..

- ولكن الآن وقت النوم!

قالها أحد الأولاد محتجًا؛ كانت بنتًا، كما أدرك منصور حين سمع صوتها، ربما لو لاحظ كذلك طولها الفارع، غير الملائم لعمرها، لأدرك أنها المدعوة "شجرة". ولكن منصور كان منهمكًا في جوابه الساخر:

- ربما أمر عليكم في وقت لاحق!

صخر أجابه جادًا:

- اتبعنا.

تحرك الأولاد من جديد صعودًا إلى الطابق الثاني حيث الطوار المعلق. ساروا - ومنصور يتبعهم مذعنًا - حتى بقعة مفروشة بحاشيات عتيقة متهرئة..

- هنا ينام الأولاد..

هكذا علق صخر..

- أما أنا وسحاب فننام منذ زواجنا في مكان منفصل.

اتخذ كل طفل مكانه متمددًا. صخر جلس على الأرض تبعته سحاب..

- لماذا لا تجلس؟

قالها صخر. منصور جاوبه بصمت وإيماءات التقزز..

- علينا أنا وسحاب أن نحكي لهم حكاية قبل النوم.

- كل ليلة؟

- كل ليلة.. لا تنس.. الحكايات طعام جيد لخواء البطون.

أصغر الأولاد - سموه "بحر" لزرقة عينيه - قال لمنصور:

- لماذا لا تحكي لنا أنت حكاية الليلة.

طلبه فاجأ منصور..

- أنا لا أحفظ أية حكايات.

صخر قال:

- مستحيل.. ألم تكن أمك تحكي لك الحكايات في صغرك؟ ألم تخبرنا منذ لحظات أنك كنت تقرأ قصصًا وأنت في مثل عمرنا؟

- المسألة ليست في معرفة الحكايات.. المسألة في كيفية حكيها. في الواقع هناك حكاية على بالي.. لأنكم تذكرونني بشيء من تفاصيلها.. حكاية بيتر بان والأولاد التائهين.. ولكن أنا لا أعرف كيف أحكيها.. أنا رجل علم.. رأسي لم يكن به حتى حضوري إلى هنا سوى عملي وأبحاثي.

صخر ابتسم وقال:

- رغم أن حكاية الأولاد التائهين تلك تبدو جيدة.. ولكن يمكنك أن تحكي لنا عن عملك.. بالتأكيد به ما يستحق أن يحكى.. أنت القادم من بلاد بعيدة.. بلاد لم نرها.. بالتأكيد تملك الحكايات.

في الأعين الملتصقة بملامحه، منصور وجد جاذبية ودفئًا. لم يفكر لحظتها في أي احتمال آخر سوى الانصياع. تربع على الأرض بجوار صخر، متجاهلًا عاصفة ترابية صغيرة أثارتها ملامسة ردفيه للأرض الخشبية، وبدأ يحكي. حكى عن باريس، وصف الشوارع التي لعب فيها طفلا، وصف مدرسته، وحكى عن أصدقاء طفولته، عن الجامعة، عن تفوقه كلاعب كرة قدم، ورفضه - رغم هذا - كل المحاولات لإقناعه بالاستمرار في فريق الجامعة؛ ربما لرغبته في الابتعاد عن الأنشطة الجماعية. كان يجد دائمًا ذلك الميل للعزلة وللدروس. علمه بتقاليد قريتنا جعله يتجاهل بالطبع أن يحدثهم عن علاقاته الغرامية، سواء في مرحلة الجامعة أو ما بعدها؛ علاقات كانت كلها قصيرة ومبتسرة، بلا أية التزامات، أو رغبة في الالتزام، وإن امتلأت بليال لا تنسى، لم تزل ذكرياتها وقودًا أساسيًّا لأيامه. تجاهل كذلك الحديث عن أمه؛ لم يشأ أن يثقل نفوسهم - المثقلة أصلًا - بحكايات بائسة؛ كان سعيدًا بالتماع التشويق في أعينهم، فلم يشأ أن يطفئه. حدثهم عن الحياة في قرية أوديلو، عن الطبيعة والتلال الخضراء، عن جبال الثلج في الشتاء، ومزارع الكروم. في النهاية، لم يجد بدًّا من الحديث عن عمله. كانت تجربته الأولى في الحديث مع عقول صغيرة ومنغلقة كعقولهم، لذا كان من المجهد بالنسبة له أن يحاول تبسيط عمله، أن يحول تجاربه عن المعادن، وحلم وصول الإنسان إلى الشمس إلى ما يشبه حكايات الأطفال؛ ولكنه نجح كما ظن، وكما لمح في العيون المتسعة المتابعة. عندما فرغت حكاياته، كانت العيون لم تزل تحدق،

وقد تبخر نهائيًا أي أثر سابق للنوم. الصمت حط عليهم لفترة. منصور اندمج في الحالة وفي الحكايات، حتى إنه كان يترقب كلمة منهم تنبئه باستمتاعهم بما قال، فأحبطه هذا الصمت. في النهاية، صخر قام عن الأرض مصفقًا بيديه..

- والآن.. إلى النوم جميعًا.

وكأنهم كانوا في انتظار الأمر؛ اتخذوا وضع النوم، وأغمضوا أعينهم. منصور يدرك الآن حقيقة أن نفوس هؤلاء الأولاد نقية، لدرجة أنهم يعيشون طفولة، برغم بلوغهم عمر المراهقة، برغم ما في أعينهم من بأس، وحكمة، وكأنما طفولتهم اختيار، وليست مرحلة حياتية..

- Bonne nuit.

قالها منصور قبل أن تمس كتفه يد صخر..

- تعالَ معنا.

منصور نهض تتبعه سحاب. سارا في أعقاب صخر الى بقعة أبعد، حيث ملاءة متسخة مثبتة على حبلين مشدودين، لتشكل خيمة بدائية تداري خلفها حاشية بالية..

- مرحبا بك في بيتنا.

قالها صخر باسمًا، ثم جلس وسحاب على الحاشية، ودعا منصور لاتباعهما. منصور جلس متحاشيًا أن يلمس حذاؤه موضع نومهما،

وإن كانت الحاشية - وهو ما بدا حتى في ضوء الشمعة الوحيدة - أكثر قذارة من أرض الفابريكة!

- والآن يا سيدنا.. قبل أن أكشف لك عن سرنا، أريد أن أسمع منك، هل أنت مستعد لمساعدتنا؛ إن كان في مقدورك؟

منصور مل لتكرار هذا الحديث، ولكنه قال محاولًا - قدر إمكانه - تحلية كلمته بالحماس الملائم:

- أكيد.

- احذر الإجابة السريعة.. وقوفك إلى جانبنا سيضعك في مواجهة صريحة مع العمدة، وهو رجل خطر، واسع الحيلة، معدوم الضمير.. لذا ربما عليك أن تفكر جيدًا في الأمر.

منصور صمت لفترة؛ ربما اكتشف كثيرًا من الصحة في كلمات صخر. صوت مؤلم انبعث من موضع مجهول في عقله يحدثه أن عليه الهرب؛ «ألقِ لعناتك على العمدة، وعلى الأولاد المقدسين، وعلى القرية الداعرة تلك، بل وعلى جدك ذاته، وعد إلى وطنك».

- أنا لا أفهم.. العمدة يقدسكم أم يكرهكم؟

ابتسم صخر..

- العمدة لا يقدس سوى سلطته، ونحن مجرد حكاية.. أسطورة من الأساطير التي يغمر بها الأهالي ليرتفع عليها عرشه.

منصور كذلك ابتسم، كتمهيد لهجمته التالية..

- كلماتك لا تنطبق على العمدة فقط.. أنت كذلك تؤمن بالأساطير. مثلًا.. ما سبق وقلته لي عن إنكم أبناء مريم، الملاك ذات المئة ثدي.

صخر تنهد..

- أنا مثل العمدة.. لن أدعي العكس.. أنا كذلك أحتاج أحيانًا للأسطورة.. الأسطورة هي ما تبقي للأولاد على الأمل.

- أنت تعترف إذن ألا وجود لمريم ذات المئة ثدي؟

صخر ضحك..

- ربما.. الأسطورة مجرد نظرة مختلفة لوقائع حقيقية.. مريم ذات المئة ثدي ربما كانت أسطورة.. ولكنها بالتأكيد ظل لواقع.

منصور هز رأسه. لم يكن ليقدر على منع هذا التساؤل أكثر، بعد أن أطال حبسه خشية أن يحمل قدرًا من الوقاحة..

- كيف تتحدث هكذا؟

التساؤل في نظرات صخر دفع منصور للارتياب في تحقق ما كان يخشاه؛ فكان عليه أن يضيف مسرعًا:

- آسف.. أنا لا أتعالى عليك، أو أحط من شأنك.. صدقني.. ولكن عقلك، وعلمك، ولغتك، لا تتناسب مع شخص نشأ في تلك الظروف.

- وهذا واحد من الأمور التي يمكن أن أوردها كإجابة لسؤالك السابق.. فالعمدة حقيقة لا يكره الأولاد المقدسين.. العمدة، والأعيان، والقرية كلها، كذيلٍ لهم، يكرهونني أنا.

منصور قاطعه..

- هذا ما لاحظته بالفعل.

- لأنني مختلف.. الأولاد المقدسون منذ أن منعوا من دخول البيوت، منذ أن نسيهم الناس، تحولوا إلى شحاذين.. لبيب الملعون علمهم طرق الأبواب والتسول.. بالطبع كان يستولي لنفسه على النصيب الأكبر مما يجمعونه، رغم أنه لا يزيد في أفضل الأحوال على طعام بائت، أو قروش قليلة، أو أردية بالية.. ولكن لبيب خنزير حقيقي، يمكن أن يأكل حتى خراءه إن لزم الأمر. في ظروف كهذه كانت تصرفات الأولاد منطقية ومفهومة.. الجائع عليه أن يأكل.. ولا يهتم بشيء سوى البحث عن الفتات.. ولكني لم أكن كذلك.. أنا أتيت بما لم يأته أحد.

صخر قطع حكايته، ليفسح المجال لتنهيدة..

- شمس كانت واحدة منا.. هي التي تلقفتني حين دخلت الفابريكة رضيعًا.. شمس هي من علمتني الغضب.. السخط.. شمس كانت هي شعلة التمرد في هذا المكان الكئيب المظلم. وهي التي رسمت لي ذلك الطريق ودفعتني إليه. كنت طفلا أتسلل، كما علمتني شمس، من باب

المدرسة الابتدائية، في غفلة من الفراشين.. أدخل أي فصل، وأجلس على الأرض لأتعلم. في البدء كانوا يتجاهلونني.. المدرسون وإدارة المدرسة كلهم من خارج القرية.. لا علم لهم بأساطيرنا، ولا يعرفون شيئًا عن مقدساتنا أو محرماتنا.. تعاملوا معي بلين وتعاطف كطفل متشرد يريد أن يتعلم.. ولكن الحال انقلبت فجأة، غالبًا بإيعاز من العمدة لناظر المدرسة، بعد غداء دسم في داره، فأصدر الناظر قراره بمنعي من دخول المدرسة. بات الفراشون يطاردونني بالعصي إذا مررت حتى من أمام بابها، فكانت شمس تأخذني وتعينني على القفز عبر السور.. كنت عنيدًا، وكنت مشحونًا بإصرار على التعلم، وكان الجميع ضدي، حتى التلاميذ.. كانت الكراهية كنار تتنقل بسرعة في أكوام القش، لا هدف لها سوى ابتلاعي.. عندها تلقفتني أبلة مايسة. كانت شابة صغيرة حديثة التخرج.. منفية في حجرة متربة لا يقربها أحد، كان مكتوبًا عليها: "المكتبة".. أبلة مايسة هي من جعلتني كما أنا الآن.. كنت أقفز عبر السور وأتسلل إلى المكتبة، فتجلسني معها لتعلمني.. علمتني القراءة والحساب، ثم بدأت تقرأ لي من الكتب المتهالكة المصفوفة على الأرفف الخشبية. أنا لم أتعلم ما يتعلمه التلاميذ في المدارس، وكانت أبلة مايسة تقول إن هذا هو ما سيجعلني متفوقًا عليهم بعلم حقيقي.. كانت تنتقي لي كتبًا تحكي حكايات مسلية عن شخصيات من التاريخ.. عن الحيوانات والغابات.. وحتى عن النجوم والكواكب.. وكنت أرجع كل يوم لأحكي لشمس ما تعلمته. ارتبطت بالمكتبة وبأبلة مايسة، فرفضت الرحيل مع شمس.

تهدج صوته عند ختام القول. صمت ليمنع البكاء، وصمت منصور احترامًا لمشاعره، وإن كان متحرقا لسماع المزيد..

- شمس كبرت وباتت شابة جميلة.. ومثل كل الأولاد المقدسين حين يبلغون سن بدايات الشباب يفضلون الرحيل للبحث عن حياة.. شمس قررت أن الرحيل هو الجواب لتساؤلات السخط التي تملؤها.. أرادتني أن أرحل معها، ولكنني رفضت.. فقد كنت واثقًا أن الجواب على تساؤلاتي سأجده في الكتب.. سأجده في العلم.. ولكن بعد رحيل شمس بقليل، رحلت أبلة مايسة، وأغلقت المكتبة.. كنت في العاشرة، ولم أكن لأستسلم لهذا الأمر الواقع. لسنوات كنت أتسلل كل ليلة من الفابريكة عبر النافذة التي دخلت منها أنت.. كنت أستخدم حبلا سرقته من دكان أم عايدة.. ثم أقفز عبر سور المدرسة.. أتسلل إلى المبنى من نافذة فصل في الطابق الأرضي.. مع تكرار المحاولة، تعلمت كيف أفتح باب المكتبة دون مفتاح.. أجلس لأقرأ حتى اقتراب الفجر. عندما أتيت على كل الكتب، بدأت التسلل إلى المدرسة الإعدادية الملاصقة لها. كانت مكتبتها أكبر، ولكنها تضم نفس الكتب تقريبًا إلا قليلًا. أتيت بسرعة على هذا القليل.. كان معظمه روايات وقصصًا، أحبطني هذا في البدء، فالكتب عندي كانت تعني العلم، ولكنني سرعان ما اكتشفت أن في هذه القراءات الجديدة فوائد، سرعان ما اكتشفت أن عقلي بات قادرًا على الانطلاق في خيالاته الخاصة.. وكلما قرأت أكثر، اكتشفت أن حدود خيالي تتباعد.. ولكن

في النهاية لم أجد حلا للغز الذي يتوارثه الأولاد المقدسون جيلًا بعد جيل.. ولهذا أحتاجك.. أنا واثق من قدرتك على قراءته.

منصور احتاج لبضع ثوان حتى يغادر نطاق جاذبية الحكاية، لينطق..

- قراءة ماذا؟

صخر وجه نظرة تفحص لوجه سحاب. كانت متجهمة، تتفادى أن تتلاقى أعينهما. منصور فهم أنها ترفض صامتة ما يقدم عليه زوجها..

- صعب علينا بعد كل تلك الأعوام أن نكشف سرنا لغريب.. ولكن السر لا قيمة له إن لم تساعدنا على فك شفرته.

قالها صخر ونهض..

- تعالَ معي.

حمل الشمعة، نظر إلى سحاب، فتمددت على الحاشية وأولتهما ظهرها، كمزيد من الرفض الأخرس. صخر أزاح الملاءة وخرج، فنهض منصور مسرعًا يتبعه حتى الدرجات الهابطة إلى الطابق الأرضي..

- اعذر سحاب.. هي في المعتاد لا تتصرف بهذه الفظاظة.. ولكنها لا تمتلك القدرة على الثقة في الغرباء. في الواقع، هي تكره الغرباء.

- لا مشكلة.. صدقني أنا أعذرها.

صخر أسدل شيئًا من المرح على كلماته..

- نحن أول حالة زواج بين الأولاد المقدسين.. وهي نقطة أخرى تزيد من كراهية الناس لنا.

- لماذا؟

- لأن هذا يعني أن الأولاد المقدسين قد يشكلون مجتمعًا.. وهذا أمر قد يغير تشريح القرية. والناس في القرية يخشون التغيير، كخشية الموت.

كانا قد بلغا الطابق الأرضي. دارا حول الماكينة وتوقفا أمام جزء منها؛ لم يكن أكثر من جدار معدني مصمت، لا يميزه شيء؛ حتى النطاق المعدني الذي يلف الماكينة ليربط الصفائح المشكلة لجدارها، بدا شكله طبيعيًا تمامًا في تلك البقعة، برؤوس المسامير الصدئة، التي تثبته بجدار الماكينة على مسافات متساوية. كل شيء بدا طبيعيًا حتى ضغط صخر على رأس محدد لواحد من المسامير، فغاص تحت إصبعه. منصور لم يستوعب في البدء أن الصوت المكتوم الذي سمعه هو صوت انفتاح الرتاج الماسك على ذلك الباب الخشبي المخفي ببراعة وسط ألواح الأرضية. منصور لم يفهم ما يحدث إلا حين شاهد صخر ينحني، ثم يعود لينتصب وفي يده طرف الباب السحري، ليتركه مفتوحًا، كاشفًا عن درجات سلم خشبي تحته تغوص في الظلام..

- ما هذا؟

- كما ترى.. جدك ترك هذا الإرث المخفي.. ربما تركه لك أنت تحديدًا.

- أي إرث؟

صخر ابتسم، ولم يعلق. وضع قدمه على أول درجة، وبدأ رحلة الهبوط. تبعه منصور، الذي لم يدرِ لحظتها إن كانت دقات قلبه زادت حماسةً أم توجسًا.

- لا نعرف تحديدًا من الذي اكتشف هذا القبو السري.. ما نعرفه أنه صار منذ عشرات السنين سرنا نحن الأولاد المقدسين، ونحافظ عليه كأرواحنا. لكن بالنسبة لي، الأمر ليس مجرد سر مقدس..

عند نهاية الدرجات، استقرا على أرض ترابية. صخر رفع الشمعة ليتيح لمنصور تبين أبعاد الحجرة الضيقة العطنة..

- منذ طفولتي، يتملكني إحساس إلى حدود اليقين أن طريق خلاصنا مدون على هذه الجدران.

الجدران الأربعة للحجرة مملوءة بكتابة فرنسية، من الأرض إلى السقف، كحجرة دفن في مقبرة فرعونية. الطلاء الأحمر بهت، ومواضع عدة في الجدران تآكلت وطمست بعضًا من المكتوب، ولكن ما بقي كان الكثير. منصور أخرج هاتفه، سلط ضوء كشافه على أحد الجدران. كان مبهورًا، يلهث وهو يقترب ليرى أفضل. يتحسس بأنامله الجدار وكأنما يتأكد من حقيقته. لقد كان أمام كشف أثري، إن

لم يكن هذا الخط الأنيق لجده، فلمن يكون؟!

- أنت تعرف تلك اللغة؟

منصور هز رأسه..

- بالطبع.. إنها الفرنسية.

صخر تعلق بذراع منصور. حماسته ضاعفت - بلا وعي - من قوة قبضته..

- أخبرني إذن ما المكتوب.. أخبرني بكل شيء.

بشكل عشوائي قرأ منصور من أقرب نقطة إلى عينيه، من الجدار المواجه لنظراته..

.Quand je l'ai examiné elle etait morte -

صخر قاطعه..

- ماذا تقول؟

انتبه منصور أنه قرأ بالفرنسية. أشار بيده كعلامة للاعتذار، وبدأ يترجم المكتوب إلى اللغة العربية:

- عندما تفحصتها وجدتها ميتة.. المسكينة أرادت فقط الهروب من الموت الأسود، فتبعها إلى هنا. سقطت على الطريق، وتركت طفلها يبكي بجوار جثمانها. أخذت الطفل معي..

منصور توقف عن القراءة؛ إدراكه لقرب وقوفه على اكتشاف هام، جعله يبحث عن بداية الحكاية، يعرف الآن أنه أمام لحظة غيرت مسار حياة جده، غيرت مسار حياته هو نفسه، ومسار حياة آبائه من قبله. رفع ضوء الكشاف لأعلى باحثًا عن المبتدأ؛ لما عثر عليه، عاد ليقرأ المكتوب..

- خرجت من القرية مسرعًا، هاربًا من الموت.. كنت أبتعد عنها، ورغم هذا بقيت ليومين أشم رائحة الموت، وأسمع صرخات المحتضرين، وحتى صوت منجل الكوليرا وهو يحصد الرؤوس. في صباح اليوم الثالث سمعت طفلا يبكي.. اتبعت الصوت حتى شجرة كبيرة على شاطئ النهر، تحتها وجدت تلك المرأة في حالة احتضار، وبجوارها طفل في عامه الرابع. ظننت في البدء أن المرأة ميتة، اقتربت منها، حاولت أن أتحسسها، ففتحت عينيها وأمسكت بيدي، وقالت بصعوبة: "انقذ حسونة.. خذه معك.. الولد سليم.. لم تطاله الكوليرا.. والله العظيم الولد سليم.. لا تخف منه". لم أعرف كيف أجيبها؛ لم أستطع أن أفكر في تلك اللحظة سوى في الابتعاد عن تلك المرأة الموبوءة. ولكن جسدها سكن، وقبضتها تراخت على يدي؛ عندما تفحصتها وجدتها ميتة...

توقف منصور عن القراءة؛ حماسته تحرك قلبه بسرعة كادت تخنق كلماته..

- إنها مذكرات جدي..

أيمكن أن يكون ما بحث عنه طوال عمره مدونًا هنا؟ أيجد هنا إجابات الأسئلة التي أحرقت حتى طفولته؟ أيعرف هنا من هو؟ وما هدف حياته؟ ولكن...

- لماذا يترك جدي مذكراته هنا؟

- ربما أراد أن يترك جزءًا من روحه في الفابريكة.

منصور كان يبحث عن التدوينة الأولى؛ يجب أن يقرأ كل شيء من البداية. ولكن صخر تابع:

- وربما لأنها ليست فقط مذكرات.. هناك ما هو أهم.

صخر تحرك بشمعته ليكشف تلك التدوينة على جدار آخر. كانت عبارة عن كلمات، ومعادلات رياضية، ورسوم توضيحية بخطوط رديئة، وإن كانت مفهومة وواضحة..

- ما هذا؟

كان السؤال من صخر، يحمل لهفة كل ثانية في أعوام عمره العشرين، قضاها مشغولا بفك رموز تلك التدوينة تحديدًا، فكان جواب منصور بردًا وسلامًا على روحه، تمامًا ما تمنى سماعه..

- إنه تصميم الماكينة.

صخر لم يستطع كتم ضحكة عالية..

- كنت واثقًا.

منصور لم يشاركه الضحك. كان جادًّا، وهو يتأمل التدوينة، ويقول:

- كل شيء مدون بدقة.. فقط أحتاج وقتًا لتحليله واستيعابه.

- هل يمكن أن نعيد تشغيلها؟

- علينا أن نحلل أولًا تلك المعادلات.. على الأقل لكي نفهم ما الذي تفعله الماكينة.

صخر أشار إلى نقطة أسفل الجدار، قرب منتهى التدوينة..

- لا داعي.. فما تفعله الماكينة مسجل في هذا الرسم.

منصور أخفض ضوء كشافه إلى حيث يشير صخر. كان رسمًا رديئًا آخر، ليس تخطيطًا هندسيًّا، وإنما رسم تصويري بخطوط كرسوم الأطفال..

- مستحيل!

منصور قالها كتقرير، وكتساؤل، وكتفريغ لغضب..

- لماذا؟

تأمل وجه صخر غير مصدق أنه يلقي بسؤال كهذا..

- لأنه ببساطة.. مستحيل.

- أتعني أن جدك يكذب علينا؟

- بربك يا صخر.. أنت بنفسك قلت منذ دقائق إنك لا تصدق أساطير القرية.

- ولكن تلك ليست من أساطير القرية.. هذه رسالة تركها الخواجة.. الخواجة بنفسه.

- إذن الخواجة لم يكن سوى كاذب أو مجنون.

صخر صمت متيحًا الفرصة لشحنة انفعالية لتخرج من صدره محمولة على زفرة..

- ربما كان المكتوب هنا مجرد أسطورة أو حكاية خيالية بالنسبة لك.. ولكن ماذا عن رجل يسعى لدخول الشمس؟! ماذا عن رجل يعمل على صناعة معدن لا ينصهر؟! ماذا عن رجل يستخدم عدسة عملاقة منصوبة وسط التلال في بلاد بعيدة؟! ألا تعتقد أن تلك الحكايات يمكن بسهولة أن تبدو لي كأسطورة مستحيلة التحقق؟

- الأمر مختلف تمامًا.. ما حكيته لك مجرد علم.. أشياء الإنسان قادر على تحقيقها.

- ربما بالنسبة لك، لأنك تملك هذا العلم.. ولكن بالنسبة لمن لا يملكه، فالأمر مثير للريبة وعدم التصديق.. وكذلك الحال هنا.. الخواجة كان يملك علمًا لا نعرفه.. علمًا يبدو لنا كمعجزات، أو محض خيال، لكنه ببساطة علم.. وأنت عالم، فلا تفكر هكذا أرجوك.. افتح عقلك بلا حدود وتلقى علم جدك.

حجة صخر كانت مقنعة، لدرجة أشعرت منصور بشيء من الحرج، فلم يملك سوى الاستسلام، حتى وإن كان استسلامًا تكتيكيًا مؤقتًا..

- حسنًا.. دعنا نقرأ المكتوب تفصيلا، وندقق المعادلات والتخطيطات، قبل أن نصل إلى قناعة خاصة.

- عظيم.

- ولكن أنا لا أفهم لماذا أنت متحمس بهذا الشكل للماكينة؟ إذا افترضنا أن المدون هنا صحيح.. وأن الماكينة فعلت ما يدعي جدي هنا أنها فعلته.. كيف يمكن أن يكون هذا مفيدًا لقضيتك؟

- ربما هي بوابة الخلاص.

التماعة عين صخر بدت لمنصور مخيفة..

- كيف؟

صخر ابتسم..

- ليس الآن.. دعنا نفهمها أولًا.

منصور كاد يقول شيئًا، ولكن صوتًا باهتًا لأذان الفجر بلغهما. صخر قال:

- عليك أن ترجع الآن للدار.. العمدة وشحتة خرجا لصلاة الفجر.. هذه فرصتك للعودة دون أن يلاحظك أحد.

- لا داعي للعودة.. دعني أبقى هنا حتى نحل هذا اللغز.

- مستحيل.. في الصباح لبيب سيفتح باب الفابريكة، ولن يسمح لك بالبقاء.. القرية كلها ستنقلب عليك إن علموا بدخولك للفابريكة، وربما طردوك. والأهم أن هذا قد يعرض سرنا لخطر الكشف.. دعنا نكتفي أرجوك بتلك الزيارات الليلية السرية.

- عليَّ إذن أن أهرب من شحتة كل ليلة! أحقًّا تظنه بهذا الغباء؟!

- بالعكس.. ولكنك ستجد حلا.. أعرف أنك ستجد حلا، فما من سبيل آخر.

صعدا الدرجات عائدين إلى داخل الفابريكة. صخر أغلق الباب السري خلفهما، قاد منصور إلى النافذة في الطابق الثاني، وساعده على التدلي عبرها، والاستقرار في الوعاء المعدني المتأرجح في الهواء على هذا الارتفاع. منصور كاد يصرخ خوفًا، ولكنه تماسك قدر استطاعته..

- تمسك جيدًا في السلك.

ببطء، وبأقصى قوة يملكها، أدار صخر إحدى عجلتي التدوير. هبط الوعاء، حتى استقر بحمله على أرض الحارة سالمًا.

***

التسلل عائدًا إلى حجرته كان سهلا؛ شحتة لم يكن هناك، ولا أي واحد من الخفر. نافذة الطابق الأرضي التي حرك مزلاجها من الداخل قبل خروجه من الدار، كانت لم تزل على وضعها، تنتظر - كما خطط

- جذبة صغيرة إلى الخارج لتفتح. تسلقها بسهولة ليدخل إلى الدار. أعاد إغلاقها خلفه بخفة صامتة. وبنفس الخفة صعد إلى حجرته. ألقى جسده المشحون توترًا على الفراش. منصور إنسان مسالم، ربما يكون على قدر من السلبية، وهو ما يعيقه عن المضي في مواقف تستلزم المواجهة، وربما حتى العنف؛ لهذا فهو في أغلب الأوقات لا يعرف ما عليه فعله بمشاعر كالغضب، أو السخط. والحقيقة، أنه الآن كان غاضبًا، وكان ساخطًا، وهذا بالضرورة يضيف إليه شعورًا ثالثًا، وهو التوتر. ليس فقط لأن أعصابه مشحونة سلبيًا، وإنما لأنه كذلك لا يعرف كيف يفرغ تلك الطاقة ليرتاح. في رأسه أفكار تدور بلا توقف، كحطب جاف لا ينضب، يشعل نار تلك المشاعر. جده في نهاية الأمر قد يكون مجرد نصاب! اكتشاف كهذا حين يأتي في لحظة ظن فيها أنه اقترب من الوقوف على التفسيرات التي قضى عمره يبحث عنها، قد يصبح سببًا وجيهًا لأن يقتله الإحباط. العمدة يبدو الآن كعدو محتمل، والأهم أنه ينام في منزل ذلك العدو. صخر قد يكون على قدر كبير من الوعي والذكاء، وربما من العلم كذلك، ولكن احتمال أن يكون مجرد مجنون آخر لم يزل قائمًا؛ فهو في النهاية ربيب تلك الحياة الجنونية البائسة، واحتمال الخبال ليس بعيدًا عنه. كل الأحداث وكل الأشخاص حوله في تلك اللحظة مفتوحون على مختلف الاحتمالات، لا شيء محدد، لا يقين، فقط تأرجح مقلق في الهواء. وحتى حياته كلها، لم تزل سؤالًا كبيرًا بلا إجابة، والإجابة كسراب مراوغ، كلما ظن أنه قاربها، تباعدت مخرجة لسانها كطفل شقي.

في لحظة التوتر تلك طرق أحدهم باب الحجرة، فقفز منصور من مكانه كخليط من المفاجأة والخوف. من عساه يأتيه الآن؟ وفي تلك اللحظة تحديدًا، وكأنما كان ينتظره، ويتتبع خطواته! الطارق بالتأكيد شخص يعرف بأمر مغامرته الليلية، فهل هو العمدة أم شحتة؟ فكر أن يخلع ملابسه بسرعة قبل أن يفتح الباب، فيبدو كمن كان نائمًا، ولكن القادم بالتأكيد شاهده وهو يدخل إلى حجرته منذ ثانيتين، فلا داعي للخداع. خلال خطوتين قطعهما إلى الباب، جالت بذهنه عشرات الاحتمالات لما هو مقبل على مواجهته؛ لم يكن من بينها أن ينكشف الباب عن وجه وردة الجميل؛ ولكنه ما حدث. وردة انزلقت بخفة إلى الحجرة، ودفعت الباب لتغلقه خلفها..

- أين كنت؟

سؤالها أعاد إشعال توجسه، كيف يمكن أن يجيبها؟ بالتأكيد أي شيء عدا الحقيقة؛ هكذا تعلم في قريتنا. ولكن كيف يمكن أن يستحضر كذبة بهذه السرعة؟ ربما لو أتيح له الوقت لصاغ أسطورة كاملة كأساطير القرية؛ ولكن منصور لم يكن يتمتع بسرعة رد الفعل..

- ما بك؟ أنا أمزح فقط.. لا تأخذها بهذه الجدية.

كانت وردة تضحك بمرح أمام شروده. شعر منصور بحماقته، حاول أن يبتسم، لتتحول ملامحه إلى البلاهة المطلقة!

- كل ما في الأمر أنني لم أستطع النوم. كنت متشوقة لرؤيتك، انتظرت أوان خروج أبي إلى صلاة الفجر، وأتيت إلى هنا فلم

أجدك. كدت أعود محبطة إلى حجرتي، حين لمحتك تصعد السلم، فتبعتك.

منصور كان لم يزل مشغولا بمحاولة مداراة ارتباكه..

- أنا فقط كنت أبحث عن بعض الهواء البارد، فالحر خانق هنا.

وردة هزت رأسها متفهمة. لم تعلق، وهو لم ينطق. كانت لحظات لتبادل النظرات الصامتة. لحظات للارتباك، منصور كان يفكر؛ هل حقًا يقرأ في عيني وردة ما يظن أنه يقرأه؟!

- لا تقف هكذا كالتمثال.. فالوقت المتاح أمامنا ليس بالطويل!

رغم هذا الوضوح، منصور بقي على خشيته من أن يترجم تلك الرسائل بشكل خاطئ، وهو الخوف الذي حوله إلى البلادة التامة. لولا أن الشفتين الشهوانيتين اقتربتا منه مخترقتين الحدود الآمنة، لما تحرك، ولما أقدم على فعل.

دقائق عاشها منصور تحت أشجار الجنة، يجري مع تدفق ماء أنهارها، حتى فرغ الجسدان من حوارهما الدافئ، ببلوغ ناجح لصفاء مشبع، قامت البنت تسدل عليها رداءها. الخدان المشتعلان -لم يزالا- بوهج اللقاء، حددا ملامحها بمزيد من النورانية، فتأملها منصور في استرخائه على الفراش. ابتسم مستعيدًا ذكرى قريبة للقاء لن ينساه مع حالة ملائكية، وقال:

- Que c'est un dur métier que d'être belle femme.

وردة ابتسمت كذلك..

- ماذا قلت؟

- إنها مهمة صعبة، أن تكوني امرأة جميلة.. قصيدة لشاعر فرنسي اسمه بودلير.

وردة اتسعت ابتسامتها. انتهت من هندامها ثم انحنت تلتهم آخر ما بقي من شفتي منصور. تأملت عينيه عن قرب، قالت:

- الحب قد يكون مجرد رغبة.. الآن نحن تحررنا من الرغبة.. إن بقيت على شوقي إليك.. فهذا يعني أنني بالفعل أحبك.. وإن اكتشفت أنني أحبك، فأنت في ورطة حقيقية.

منصور ضحك، فضحكت..

- ستكون أجمل ورطة يا أميرتي.

- ولكن نفس الأمر ينطبق عليك.. الآن تستطيع أن تقرر إن كنت فعلا تعني الأغاني والأشعار الفرنسية التي أمطرتني بها، أم لا.

وردة دارت مبتعدة نحو الباب، ولكنها كانت لحظة لم يستطع فيها منصور كتم تساؤلاته أكثر..

- وردة.. ربما في بلدي تعتبر كارثة أن أسأل فتاة سؤالاً كهذا.. ولكن في بلدكم.. وبما أعرفه عن تقاليدكم.. أظنك ستفهمين حيرتي، وستعذرين تطفلي..

صمت منصور بعدها لم يكن عدولا عن السؤال، وإنما لأن الكلمات انحشرت في حلقه تحرجًا..

- تريد أن تسألني عن عذريتي؟

وردة قالتها مبتسمة ببساطة..

- أنا آسف.. ولكن ما أعرفه عن تقاليدكم أن الجنس ممنوع دون زواج.. ولهذا لم أتوقع أبدًا أن تكوني غير عذراء.. الأمر كان مفاجئًا لي، فأثار فضولي.. ليس أكثر.

- الأمر إذن مجرد فضول؟ أم أن الدماء العربية في عروقك قررت الإفصاح عن نفسها الآن؟

- هو مجرد فضول.. صدقيني.. أنا لا أتهمك، أو أحاكمك.

وردة هزت رأسها. أطرقت لثانية، ثم أشرق وجهها وكأنما وجدت الإجابة، فقالت:

- تقاليدنا هي مجرد أشياء صنعناها لكي نستمتع باختراقها.. وهي متعة لا تعرفونها في بلادكم.. لأن كل شيء عندكم مباح.

قالتها، وغادرت الحجرة مسرعة.

***

في صباح يومه الرابع في قريتنا، بدا منصور وكأنما هو إنسان جديد! نسخة معدلة، تطور مفاجئ لذلك الكائن المتوتر دومًا، المغلق دومًا.

هذا ما لاحظه العمدة؛ ليس فقط من الوجه المشرق، ولا من الابتسامة التي تبتلع ملامحه، وإنما حتى من إقباله غير المسبوق على الطعام. كانت مائدة الفطور عامرة ككل صباح. الجديد أن منصور كان هو من يرسم وقائع الملحمة هذه المرة. صولاته بين الأطباق لم ينقصها سوى شاعر ينظمها، ومنشدين يصدحون بها في الموالد، لكي تكتمل لها أركان السير البطولية! العمدة اكتفى بالمشاهدة، بعينين التحم بهما الذهول مع الرضا. ربما ليس الجالس أمامه هو منصور الذي يعرفه، ولكنه بالتأكيد منصور الذي تمناه. العمدة لم يكن علمه ليصل إلى سر هذا التغير، وما كان يمكن لمنصور أن يجيب بصراحة على تساؤله..

- تبدو مختلفًا اليوم.. عيني عليك باردة.. وجهك مضيء ومشرق.. فما السبب؟

فقد رأى أنه من المستحيل أن يقول له: السبب أني ضاجعت ابنتك! والأهم أن منصور لم يكن يعلم إن كان هذا هو فعلا سبب سعادته المفاجئة. بالتأكيد ما كان بينه وبين وردة ساهم في وصوله إلى تلك الحالة من الرضا عن الحياة؛ ربما بسبب استمتاعه بفعل الجنس في حد ذاته، وربما لملامسة ذلك الإحساس الطفولي بأنه قد ثأر من العمدة بشكل أو بآخر. منصور لم يحب هذا الشعور، فهو يجعله يرى جيناته العربية وكأنما تتراقص أمامه لتغيظه! ما له هو وأفكار العرب البالية عن الشرف وحرمة النساء؟ ولكن رغم هذا، فالتفكير في تلك النقطة لذيذ، وهذا ما لا يمكن نكرانه.

الحماس لاكتشاف المزيد عن الجد، برغم كل تحفظاته ومخاوفه، كان لـه دور كذلك فـي بلوغه تلك الحالة. أن يكون الجد ساحرًا أتى بالمعجزات، أو يكون نصابًا استغل سذاجة القرويين؛ لا فارق في نظره، المهـم أنـه وجد معنى وهدفًا من وجوده هنا. الآن هو راض بشكل ما عن قراره باتباع الرسـالة حتى قريتنا؛ لا يشـغله في هذه اللحظة سؤاله عن صاحب الرسـالة، طالما أنها لعبت بنجـاح الدور القدري الموكل لها. فالمهم أنه هنا، والأسرار التي تنتظره عن حياة جده - وربما حياته هـو - موجـودة كذلـك هنا. لا ينتظر سـوى بعض الجهد، وشـيء من حسن الحظ، ليبلغ لحظة الكشف الأعظم في حياته.

- لم أرك تأكل بهذه الشهية منذ حضرت إلى قريتنا.

- ربما لأنني جائع جدًّا هذا الصباح.

العمدة أشعل سيجارة معلنًا انتهاءه من الطعام..

- صحة وعافية.

وكأنما رائحة السـيجارة عبرت الباب لتنبئ شحتة عن حاجة سيده لكوب الشـاي؛ دخل الخفير العجوز حاملا صينية، عليها كوب شـاي وحيد..

- الشاي يا حاج.

شحتة وضع الصينية أمام سيده، وتراجع خطوتين..

- لماذا اختفيت فجأة بالأمس يا سيدنا؟

منصور لما أدرك أن السؤال موجه له، توقفت لقمة البيض في حلقه لثانية، قبل أن يتماسك، ويبتلعها..

- شعرت بتعب مفاجئ، فعدت إلى حجرتي.

- هذا ما توقعته.

العمدة مزج في حلقه دخان السيجارة برشفة من الشاي الساخن، وقال:

- شحتة قال لي إنك شاركته جلسته ليلة أمس.

منصور حاول ألا يستسلم للتوتر، فيفقد مظهره المشرق المنفتح بشكل مفاجئ يثير الريبة..

- الجو عندكم حار جدًّا.. خانق جدًّا.. وهذا يصيبني بالأرق.

- كان الله في عونك.. نحن تعودنا هذا الجو. ولكن..

العمدة قرر فجأة أن يقطع جملته ليرشف من كوب الشاي. منصور اعتاد أسلوب التشويق هذا، ولكنه لم يستطع أن يمنع توتره. ترك الطعام، وتناول المنشفة، يمسح يديه وفمه..

- لا داعي لأي تحركات مفاجئة.. أنت ضيفي.. وأمنك مسئوليتي، ومسئولية شحتة كذلك.. ربما في ظروف أخرى لما وجدت داعيًا للقلق.. ولكن كما ترى.. ربما كان هناك قاتلٌ طليقٌ في القرية.. وسلامة شخص في مثل أهميتك يجب أن تكون شاغلي الأول.

- أنا لم أفعل سوى أن جلست قليلًا عند بوابة الدار.. وبرفقة كبير الخفر..

- بالطبع.. لا مشكلة فيما فعلته.. ولكن أنا ألفت نظرك بشكل استباقي.. يجب أن نحتسب لأي أمر.. هذه هي أصول القيادة التي أحمل عبئها.

- كان الله في عونك يا حاج.

العمدة هز رأسه، متلقيًا دعاء منصور بقدر مصطنع من التواضع..

- حسنًا.. دعنا ننتهي من هذا الحديث.. برجاء ألا تجعلني أقلق عليك.. ويكفيني من المصائب جريمتي قتل.

منصور كذلك كان راغبًا في الانتهاء من هذا الحديث، ربما لهذا حاول ركله بعيدًا..

- أما من أخبار جديدة بخصوص القاتل؟

- لا جديد.. الشرطة تبحث في تاريخ الزوجين القتيلين، فربما كان لمقتلهما علاقة بماضيهما.. ولكن أنا واثق أنهم لن يعثروا على شيء ذي قيمة.. حكيم ومريم بلا أعداء.

بعد رشفة من الشاي، أكمل:

- على العموم أنا أنتظر اتصالًا من النيابة، فربما ذهبت اليوم عصرًا إلى البندر لاستلام جثمان المرحومة من المشرحة.

كلام العمدة أعاد إلى ذهن منصور ذكريات غير محببة، حاول أن يطردها. ولكن العمدة حرص على استحضارها بشكل أكثر سطوعًا..

- لذلك ربما كانت جنازتها الليلة.. استعد.

منصور قال بالفرنسية:

- Merde!

- ماذا قلت؟

- ليبارك الله روحها.

- آمين.

العمدة انتهى من كوب الشاي، والتفت إلى شحتة الواقف كالتمثال منتظرًا أوامر سيده..

- انتظرنا عند باب الدار ومعك خفير مسلح، ستصحبانا في مشوار.

شحتة هز رأسه بإيماءات الطاعة..

- دعني أحضر أولًا النسكافيه لسيدنا..

- لا داعي.. سيشربه في معرض الحاج عباس.

منصور لم يعلق على قرار العمدة المنفرد بحرمانه من قهوة الصباح، تمامًا كما لم يعلق على قرار العمدة المنفرد بالتوجه في تلك الساعة

المبكرة لزيارة معرض الحاج عباس الأحمدي؛ رغم أن منصور زاره ليلة أول أمس. سار متوسطًا الموكب الصغير مذعنًا، يتلقى التحيات من المارة، ويردها بمثلها. لم يسأل حتى عن سبب هذه الزيارة. منصور اتخذ بالفعل قراره بالبقاء في القرية لحين الانتهاء من مهمته، لذا فهو ما عاد يملك الرغبة في معارضة العمدة، أو الوقوف في وجه مخططاته، طالما أنها حتى الآن لا تهدف سوى لما قرره منصور بالفعل. فقط تذكر أن موجبات لعب الدور تحتم عليه أن يبقي - على الأقل - على إصراره على زيارة الفابريكة، حتى لا يثير حوله الشبهات، إن هو نسي أمرها بهذه السرعة..

- حاج رضوان.. ألم يكن من الأفضل قبل أن تسحبني خلفك كالحصان، أن تلبي لي طلبي الوحيد؟!

العمدة ابتسم. وضع يده على كتف منصور بحميمية، منصور لم يكن يحب الاتصال الجسدي، ولكنه لم يعترض..

- تقصد زيارة الفابريكة؟

- بالفعل.

- كنت أتمنى ألا تسأل حتى لا تفسد المفاجأة! فالحقيقة أننا متجهون إلى الفابريكة الآن.

منصور تفاجأ بالفعل؛ كان قد استقر على يقين بأن العمدة لن يسمح له أبدًا بزيارة الفابريكة. تلك هي كانت نقطة الترجيح الأولى

في اختياره الانحياز إلى جانب الأولاد المقدسين. الآن العمدة يربك حساباته. هل تعود أفكاره إلى نقطة الصفر؟ أيعقل أنه ظلم العمدة؟

- ولكنها ستكون زيارة عابرة.. لن تستطيع دخولها.. اعذرني يا سيدنا.. دخول الفابريكة محرم، لقد دعوت مولانا الشيخ ربيع ليرسل لي علامة.. إن كان وافق على دخولك الفابريكة، لأتاني في المنام مبشرًا.. ولكنه لم يأتني. فلا تتوقع مني أن أخرق أوامره، وأرتكب إثمًا، لأجل أي مخلوق، حتى وإن كان حفيد الخواجة.

- فما فائدة الزيارة إذن؟

- ستعاينها من الخارج.. يمكنك كذلك أن تلقي نظرة عابرة إلى الداخل عبر الباب المفتوح.. ولكنك لن تجتازه.

منصور اكتشف أن الطريق الذي يسلكونه غير طريق الفابريكة الذي سلكه ليلة أمس. هذا الطريق أطول وأكثر تعقيدًا. استنتج أن العمدة يدور به دورة كبيرة حتى لا يحفظ الطريق إليها. أسعده هذا الخاطر، فقد أعاده إلى الريبة في العمدة وفي أفعاله، وبالتالي أعاد إليه الثقة في تحيزاته.

- ها هي الفابريكة.

قالها العمدة مشيرًا بعصاه - بطريقة مسرحية - إلى البناء العتيق. في ضوء النهار كان مشهد الفابريكة أكثر مهابة، بقدمها وارتفاعها الكبير وسط البيوت الحديثة الواطئة. الآن كان بمقدور منصور أن يرى الباب

المفتوح على مصراعيه، واللافتة الخشبية المتهالكة. والأهم أنه الآن يرى ذلك الكيان الضخم المنتصب احترامًا بجوار الباب؛ طول يقارب المترين، بدن ممتلئ بغير دهون، ككيس رمل مكبوس، فك عريض، ورقبة راسخة؛ تكوين مصارع أسطوري، برغم العمر المديد المحفور في تجاعيد الوجه.

- صباح الخير يا لبيب.

لبيب أجاب تحية العمدة بانحناءة سريعة، خطف بها كف العمدة اليمنى وقبلها. السرعة التي سحب بها العمدة كفه لم تكن كافية لتمنع وقوع القبلة، ولا أوقفت اندفاعة لبيب صيحته:

- أستغفر الله العظيم.

- نورت الفابريكة يا حاج.. البيت القدسي زاد قدسية بتشريفك.

العمدة كان يتقدم الموكب بخطوتين، وشحتة كان يتأخر بخطوتين. موقفه وراء أذن منصور سهل عليه سماعه يتمتم..

- الكلب.. المنافق.. لاعق الأحذية.

منصور لم يفهم إن كان شحتة يوجه إليه الحديث، أم أنه فقط يفرغ غضبًا. ولكن في يقينه أن تلك الكلمات لا تنطبق بالتأكيد على لبيب وحده..

- وها هو سيدنا منصور حفيد الخواجة.

العمدة قالها للبيب، مشيرًا إلى منصور..

- مرحبًا يا سيدنا.. نورت البلد كلها.

قبضة لبيب كانت قوية، منصور كاد يصرخ؛ إن كانت هكذا مصافحته، فكيف تكون لكمته؟!

- سيدنا منصور يرغب في رؤية فابريكة جده.

التردد ارتسم على وجه لبيب لحظتها..

- ولكن يا حاج.. دخول الفابريكة محرم.

العمدة بدا غاضبًا وهو يقول:

- أنا لا أنتظر منك أن تذكرني بهذا يا لبيب.

- آسف يا حاج.. ربنا سبحانه وتعالى يقول: فذكر.

أشاح العمدة بيده..

- سيدنا منصور سيلقي نظرة عبر الباب.

لبيب أزاح جسده الضخم عن الطريق..

- طبعًا.. تفضل.. تفضل يا سيدنا.

منصور تقدم خطوات حتى بلغ عتبة الباب، أدركته صيحة من العمدة..

- يكفي هذا.. لا تتقدم أكثر.

منصـور فكـر أن عليـه أن يلعـب الآن دور المنبهـر، كـي لا يثير ريبهـم. لكـن الانبهار الذي شـاهدوه علـى وجه منصـور كان حقيقيًا. النظرة البانورامية على قلب الفابريكة في ضوء الشـمس المقتحم عبر البـاب المفتـوح كانت مبهرة بحق. الماكينة تبدو أمامه شـامخة بكامل انتصابها، وحتى العمود الخارج منها ليطعن السماء. الصدأ على بدنها بات لعينيه واضحًا، ولكنه لم ينتقص من جمالها؛ بالعكس، فقد زادها مهابة القدم. سحر الرؤية على قسماته كان مقروءًا للعمدة، فقال:

- ألا ترى أنه يحق لنا تقديس هذا البناء؟

الفخر خنق نبرات العمدة بما يشبه وجع البكاء..

- أجدادنا كذلك كانوا شركاء لجدك في تشييدها. لا تنسَ هذا.

كلمات العمدة أخرجت منصور من انجذابه..

- لم أنسَ.. لا تخف.

التفت مواجهًا العمدة، ومواجهًا ما ظنها هواجس العمدة..

- لـن أطالب بإرثي.. تكفينـي تلك النظرة.. ففيهـا الدلالة الكافية على عظمة جدي الأكبر.

العمدة ابتسم. عاد يربت كتف منصور..

- لنكمل طريقنا إذن.

- لا يجوز يا أسيادي.. تشربون الشاي أولًا.

لبيب قالها وهو ينحني على براد الشاي، الموضوع في ظل الكشك الخشبي..

- لا داعي يا لبيب.. سيدنا منصور لا يشرب سوى النسكافيه الذي أعده.

لبيب أجاب قول شحتة بابتسامة صفراء..

- ربما لأنه لم يتذوق بعد الشاي الذي أعده.

العمدة التقط روح التنافس في كلمات العجوزين. تدخل بقول الفصل:

- اكبرا أيها المخرفان!

ثم تأبط ذراع منصور وسارا مبتعدين. شحتة والخفير هرولا خلفهما. العمدة مال على أذن منصور مؤديًا ما عليه من واجب التوضيح..

- شحتة ولبيب ورثتهما عن والدي رحمه الله. كانا أقدم خفرائه وأكثرهم محبة وإخلاصًا. كان علي أن أوزع عليهما المنصبين الهامين.. منصب شيخ الخفراء.. ومنصب حارس البيت القدسي. اخترت شحتة لمنصب شيخ الخفراء.. اخترته لأنه كان الأكثر إخلاصًا، وأكثرهما استحقاقًا لثقتي.. ولكنه غبي.. لم ولن يفهم هذا.. ما زال يعتقد أن منصب حارس البيت القدسي هو الأهم.. وما زال يحقد على لبيب لحصوله عليه.

منصور لم يعلق. ربما حتى لم يسمع ما قيل سوى بنصف وعي. مرأى الفابريكة في ضوء النهار مسه بشيء من الحنين؛ هذا المكان ملكه، تلك الماكينة تخصه، يحبها، وربما هي كذلك تحبه. شعر أنه يعرف عنها الكثير، أكثر مما يتخيل؛ هناك ألفة بينهما. رأسه دار أكثر من مرة نحو الفابريكة أثناء مسيرته مع العمدة، وكأنما يريد أن يشبع تعلقه بها، حتى غابت عن الأنظار. منصور يعلم في عقله الواعي، أن تلك المشاعر ليست ملكه تمامًا؛ تلك مشاعر مركبة، وغير مألوفة، وكأنها لشخص آخر، شخص يربطه بالفابريكة ما هو أكثر من علاقة متوارثة، وكأنها مشاعر سيمون رينار تسكن اللا وعي المتوارث في العائلة! أيكون هذا هو الجواب؟ أتلك هي رسالته؟ أن يصير تناسخًا لروح جده؟

- وصلنا.

العمدة قالها لما لاحظ شرود منصور. الحاج عباس كان يقف مبتسمًا تحت لافتة دكانه، فاتحًا ذراعيه على اتساع يتناسب مع وسع ابتسامته. منصور كان عليه أن يمر ثانية بتلك الطقوس الحميمية، وكأنما لم يلتقيا منذ عقود!

- والله.. لولا حالة الحداد لاستقبلتكما بالموسيقى.

- اختصر يا عباس.. نحن هنا لنتحدث عن مشروعنا.

الحاج عباس ضحك، وكأنما ألقى العمدة بنكتة..

- واجب الضيافة أولًا.

بلغوا مكتبًا خشبيًّا فخمًا في عمق المعرض..

- سيدنا منصور رجل عملي.. ادخل في الموضوع مباشرة يا عباس.

الحاج عباس شاركهما الجلوس على ثلاثة مقاعد جلدية موضوعة أمام المكتب، ثم دار محدثًا فتاة وقفت قريبة منهم تتأمل منصور منبهرة..

- النسكافيه يا بنت.. لا تقفي هكذا كالتمثال.

العمدة توجه إلى منصور. كان يتحدث ببطء، وبتركيز على مخارج الكلمات، مع تنهيدات عميقة بلا مبرر بين كل جملة والأخرى..

- الحاج عباس كما تعرف رجل أعمال، ومستورد كبير للأجهزة الكهربائية. والأهم أنه رجل محب لبلده.. رجل خير.. خدوم لأهل قريته.. حدثته بما أخبرتني به عن عملك في الطاقة الشمسية.. فتوصلنا سويًا لهذا المشروع الضخم.

الحاج عباس التقط الحديث؛ زَيَّنَهُ -قبل أن يلقيه في وجه منصور- بالتماعة عينه وحماسة صوته..

- أول قرية مصرية تعمل بالكامل بالطاقة الشمسية..

صمت، واكتفى بابتسامة حماسية يقابل بها نظرات منصور.

- جميل.

هكذا قال منصور بلا رغبة في مجاراة حماسهما.

- المطلوب منك أن تخطط لكل شيء.. حدد المبلغ المطلوب لمشروع كهذا.. وأنا.. ومعي باقي أعيان القرية، سنتكفل به.

العمدة أضاف على كلمات صديقه:

- وليكن هذا بديلا لشبكات الكهرباء الحكومية المتهالكة.. ستكون تجربة رائدة لحل أزمة الطاقة.. ودون أن نكلف الدولة قرشًا.. ستكون التجربة التي تقود قريتنا بسرعة الصاروخ نحو القرن الواحد والعشرين.

منصور لم يشأ أن يحرجه بحقيقة أن القرن الواحد والعشرين قد بدأ بالفعل منذ سنوات! هو في الحقيقة كان يستمع إليهما بنصف تصديق؛ في ذهنه يسيطر هاجس أن كل ما يقال إنما جزء من خطة العمدة لإبقائه في القرية. التفكير في شكوك كتلك لا يغضبه، فهو كذلك بحاجة إلى غطاء لقراره بالبقاء، فلماذا لا يشاركهما لعبهما؟

- هذا مشروع طموح بلا شك.. لكن أظنه سيحتاج تمويلا ضخمًا.

العمدة رفع أنفه، وببعض التباهي قال:

- أنا وأعيان القرية جاهزون لأي شيء.. المطلوب منك فقط

تجهيز دراسة وافية عن المشروع وتكلفته، والباقي علينا.. سواء نفقات أو إجراءات.

منصور فكر قليلًا - أو ادعى أنه يفكر - لا يجب أن تكون موافقته سريعة فتثير الشبهات، عليه أن يقدر دائمًا ذكاء العمدة..

- أنتما تتحدثان عن محطة توليد.. أم..

قاطعه الحاج عباس:

- لا يا سيدنا.. أنا أقصد أن يكون في كل منزل مولد. كما رأيت في بعض البيوت في الصين.

- هذه الطريقة قد تكون أكثر تكلفة.

العمدة هو من أجابه..

- قلت لك لا تهتم بالتكاليف.

- والأهم أنها ستكون بلا ربح.

الحاج عباس قال بعد استغفار سريع..

- من تحدث عن الربح يا سيدنا؟!

العمدة أدركه..

- نحن لا نسعى لربح سوى نهضة القرية.. وراحة أبنائها.

برغم قلة خبرة منصور بقريتنا، وبمنظومتنا السلطوية، وبأساليبنا في الإدارة، إلا أنه لم يصدق! شيء في كلمات العمدة الوردية شعر أنه

لا يتوافق مع ما رآه من أحوال الناس هنا، فصعب عليه بلعها. الوجوه المعتلة، والأجساد المتآكلة، والشوارع القذرة، كلها أمور تدعم شكوكه.

- حسنًا.. أنا لا أعرف إن...

منصور قطع كلامه على صوت رنين هاتف العمدة..

- لا مؤاخذة يا سيدنا.

العمدة قالها وهو يُخرج الهاتف من جيب داخلي في عباءته. نظر إلى شاشته، ثم نهض متجهًا إلى خارج المعرض..

- أستأذنكما لدقيقتين..

منصور اختار أن يصمت في انتظار عودة العمدة. لحظتها عادت الفتاة بصينية عليها ثلاثة أكواب، وضعتها أمامهما. الحاج عباس نهض يخطف كوبًا، وناوله لمنصور بانحناءة مبالغ فيها. منصور تناوله ممتنًا. احتضنه بكفيه كصديق طال غيابه. رشف منه، فكان طعمه أسوأ حتى من هذا الذي يُعده شحتة، ولكنه يوفر له - على كل حال - جرعة الكافيين التي يحتاجها. العمدة عاد وهو يعتذر عن المقاطعة. اتخذ مجلسه. وجهه لم يكن بذات الإشراق، فخمن منصور أن المكالمة - كما يبدو - لم تكن مبهجة.

- كنت أقول إنني لا أعرف إن كان بمقدوري مساعدتكم.. فلا أظن أن أمامي الكثير من الوقت في قريتكم.

العمدة قال:

- أنت هنا حتى تسمح الشرطة برحيلك.

- ما تطلباه مني قد يستغرق أسابيع.. ولا أظن تحقيقات القضية قد تستغرق كل هذا الوقت.

- العلم عند الله.

الحاج عباس تدخل:

- ألا يمكن إنجاز هذه الدراسة في وقت أقل؟

منصور هز رأسه.

- نحن نتحدث عن حصر لبيوت القرية، لنرى كم بيتًا منها يصلح.. ثم نحدد طريقة ومكان تركيب الألواح الشمسية في كل بيت منها.. حتى نستطيع أن نحدد احتياجاتنا من الخلايا الكهروضوئية.. بمعنى أننا يجب أن نُعد دراسة لكل بيت على حدة.. ثم نوفر طريقة لتخزين جزء من الكهرباء الناتجة، لاستعمالها خلال الليل أو في الأيام الغائمة.. وهذا بدوره سيتحدد على أساس إن كنتم تريدون الاعتماد على الطاقة الشمسية بشكل كامل، أم بشكل جزئي.. وفي النهاية أنا لا أعرف شيئًا عن توافر تلك المعدات في بلدكم من عدمه.. سأحتاج للبحث، ولمعرفة الأسعار، سواء داخليًا أو خارجيًا.. لنقرر - في حالة عدم توفر المعدات هنا - من أي دولة سنجلبها. والآن.. كم تظنان أن أمرًا كهذا سيستغرق؟

العمدة والحاج عباس تبادلا نظرة، قبل أن يقول الأول:

- أنت أخبرنا.

- لقد أخبرتكما بالفعل.. أسابيع. أنا مبدئيًا لا مانع عندي من التعاون معكما.. ولكن أنا لي عمل في بلدي.. ولا أعرف إلى متى سيسمحون لي بمد إجازتي.

العمدة أظهر تفهمه بهزة رأس.

- على كل حال، أنا لا أجبرك على شيء.. لقد اصطحبتك، كما وعدتك، إلى الفابريكة.. وما عاد بقاؤك هنا سوى مسألة وقت.. أستطيع حتى أن أستغل علاقتي بالباشا رئيس المباحث للسماح لك بالمغادرة. لا أظن أن بقاءك هنا سيطول عن يوم أو يومين على أكثر تقدير.. ثم ترحل مكرمًا.. مصحوبًا باعتذاري عن إقحامك بلا ذنب في التحقيق عن جريمة قتل.

يجب هنا أن نعترف - ومنصور كذلك لا يستطيع إنكار هذا - أن كلمات العمدة فاجأته. منصور كان ينتظر - كما تقضي الصورة الشيطانية المرسومة في ذهنه للعمدة - المزيد من الإصرار، المزيد من الألاعيب الخبيثة، المزيد من المماطلة. ينتظر - في الحقيقة - أن يعطيه العمدة غطاءً مقنعًا للبقاء، يعطيه مبررًا لتخطي تمنُّعه المصطنع. لم يتوقع أن يلين العمدة، ويتراجع عن موقفه بهذه البساطة. منصور الآن يشعر وكأنما الكرة باتت في ملعبه؛ هو لا يعرف كم من الوقت

يحتاج لقراءة تدوينة جده كاملة، ولكنه لا يظن أنه سيكون بالوقت القليل، خاصة والمتاح له لدخول الفابريكة لن يزيد على دقائق ليلية مسروقة، فكيف يبرر قراره المفاجئ بالبقاء إن هو أعلن عنه؟!

- هيًا بنا.

العمدة استعاد منصور من الشرود. كان واقفًا ينتظر منه أن يتبعه..

- لا يمكن.. يجب أن تبقيا للغداء.

العمدة هو مَن أجاب الحاج عباس:

- لا يوجد وقت.. يجب أن أبقى على استعداد؛ فربما أضطر في أية لحظة للسفر إلى المدينة لإحضار جثمان مريم رحمها الله.

غادر الاثنان، انضم إليهما رفيقاهما، وعاد الموكب الصغير يقطع ذات الطرقات نحو بيت العمدة. المسيرة كانت صامتة، كما لم يعتد منصور. هناك تغيُّر ما حدث في قواعد اللعبة، تغير يعجز عقله عن استنباط مسبباته، أو توقع مآله. حتى صمت العمدة وتجهمه، متغير غير متوقع بدوره. أيكون الاتصال الهاتفي هو السبب؟ شحتة كذلك صامت، كذلك متجهم. منصور لم يستبعد احتمال أن يكون صمت شحتة وتجهمه مجرد محاكاة لحال سيده، رغم هذا تساءل؛ أيكون بدر عنه ما يثير الريبة؟

عندما بلغا الدار، استأذنه العمدة لقضاء بعض الأعمال في مكتبه..

- لا داعي للخجل.. الذار دارك.. وشحتة في خدمتك..

رغم تأكيد العمدة، منصور لم يستطع منع مخاوفه من التكاثر. منذ يوم كان سيتلقى هذا اللين والاستسلام من العمدة بسعادة، وربما كدليل انتصار كذلك، ولكنه الآن يتلقاه بتوجس. أفعال العمدة تلك تضرب كل المواقف التي قرر منصور تبنيها في مقتل، فتعيده من جديد إلى السعي عبر دوائره المفرغة، فيعود ليغويه - بالتالي - قرار ترك الحال على ما هو عليه، والعودة إلى عالمه، بكل عزلته وتشوهاته.

- أي أوامر يا سيدنا؟

شحتة سأله حين غاب العمدة، فأجاب:

- شكرًا يا شحتة.. سآوي إلى حجرتي.

***

كل درب سلكه عقله، وكل خيط لفكرة سار وراءها، كانوا ينتهون به إلى ذات الصور؛ صور لوجه وردة، لعيني وردة، لشفتي وردة، ولكل ما بقي من جسد وردة ولا يليق ذكره هنا، انتهاءً بأصابع قدميها. لا يعرف إن كان شوقه للقاءٍ ثانٍ معها هو ما يسلمه للحيرة، أم أن الحيرة هي ما تسلمه لشوق اللقاء الثاني. أحاسيس متداخلة، لا يكاد يستطيع تبين أبعادها، فيصيب عقله الشلل، ويتوقف في منطقة وسطى، على مسافات متساوية من جميع القرارات الممكنة. لقطة عابرة من الارتباك، من الضياع، ولكنها تمثل لمنصور ما يشبه سيرة الحياة.

في هذه اللحظة، يفكر أكثر من أي شيء في كلمات وردة، في رؤيتها للحب.. أيكون شوقه لها - كما قالت - دليلًا على صدق الحب؟ تفكير لم يزل يخيفه، ولو كان متعلقًا بفتاةٍ سبق وأن انهار أمامها مستسلمًا كما لم يفعل من قبل.

منصور غلبه النوم عند الظهيرة على غير توقع، وقد ظن أن انشغال الرأس يحصنه من النعاس. ما أيقظه لم يكن نبأ الغداء، وإنما نبأ الجنازة الوشيكة لمريم، الذي جلبه له شحتة حتى الفراش. العمدة اصطحب صخر ونفر من عائلتها، وذهب لإحضارها من المشرحة، وعلى القرية أن تتأهب. منصور كذلك كان عليه أن يتأهب - نفسيًا على الأقل - لاحتمال نفس السخافات من جديد، وإن كانت الطقوس هذه المرة لم تعد غريبة عنه، فقد مر بها كاملة من قبل؛ بدءًا من صلاة الجنازة، وانتهاءً بالتهام الطيور المسفوحة في الوليمة الجنائزية. لم يتغير هذه المرة سوى خفوت ملحوظ في نبرة التقديس التي كانت قريتنا تبتهل إليه بها في الجنازة الأولى؛ فما عادت الأيدي تمتد إليه بآمال الملامسة، وما عادت الشفاه تسعى لتقبيل يديه، ولم يُلقِ صخر برأسه على صدره كما فعل وهو يتلقى منه العزاء في والده، فقط صافحه برأسٍ مرفوعٍ في ندية. منصور لم يفهم إن كان هذا التغير ناتجًا عن ملل الأهالي من حكايته، أم هو ظل للتغير الذي يحيره منذ الصباح في موقف العمدة منه!

في آخر الليل، وهو على تلك الحالة من تعب البدن والذهن، وهو يرى-متلصصًا- العمدة وشحتة يجتازان بوابة الدار نحو الجامع الكبير،

يستبقان صلاة الفجر، كان عليه أن يمسك القلب، ويتبع عقله، ليسعى مهرولًا إلى الفابريكة. عليه أن يخرس الشوق الذي يناديه بالبقاء في حجرته متسولًا عطف وردة بزيارة جديدة. عليه أن يكون قدر حمل الرسالة، فالأنبياء ما كانوا يسمحون لامرأة بتقويض طموحاتهم الكبرى. لم يتوقف طويلًا عند التفكير في خطورة أن تأتي وردة لحجرته في تلك الساعة فلا تجده، وما قد يثيره هذا من ريبة؛ ففي النهاية وردة لا تبدو له أكثر من طفلة عاشقة، كما أنها لن تتحدث بهذا مع أحد، وإلا سيكون عليها إيجاد مبرر مقنع لذهابها إلى حجرته في هذه الساعة.

التسلل من الدار كان سهلًا، في غير وجود حارسه الأمين عند البوابة. قطع الطرقات الخالية فيما يشبه الركض. لبيب كان قابعًا في مكانه، لا يبالي بصلاة الفجر الوشيكة، فهو خفير محترف، لا يسمح لواجب كالصلاة بالتأثير على أدائه لمهامه. التف منصور - كما فعل في المرة السابقة - حول مجال رؤية لبيب. تحت نافذة الفابريكة، وقف يلقي بالحجارة عبرها، ويداعبها بضوء هاتفه. بعد وقت، أطل عليه وجه صخر ناعسًا..

- بسرعة؛ لا وقت أمامنا.

صخر أجابه:

- انتظر لحظة.. سأوقظ أحد الأولاد ليعاونني على رفعك.

لحظة أن استقر منصور داخل الفابريكة، كانت نفسها لحظة انبعاث صوت شحتة بأذان الفجر.

- أمامك ما لا يزيد على نصف الساعة.. ماذا تأمل أن تحقق في هذا الوقت الضيق؟

هكذا قال صخر وهما يهرولان إلى الطابق الأرضي. لكن منصور كان يملك خطة. صخر فتح الباب السري. تقافزا فوق الدرجات الهابطة، حتى بلغا الحجرة الخانقة. صخر رفع شمعته ودار بها..

- من أين ستبدأ؟

منصور أضاء كشاف هاتفه..

- من البداية.. يجب أن أعثر على بداية الحكاية.

كان يقفز بعينيه سريعًا فوق رؤوس التدوينات، حتى صاح:

- ها هي.. هذه بالتأكيد هي البداية.

كان يقرب ضوء الكشاف رافعًا يده لينير بشكل جيد الكلمات المكتوبة على ارتفاع متر تقريبًا من منتهى قامته.

- ماذا تقول؟ ترجم لي ولو القليل منها.

هكذا طلب صخر بصوت محمل باللهفة. منصور قرأ الكلمات الأولى بعينيه، ثم بدأ عملية الترجمة:

- العام 1904 كنت أواصل رحلاتي في جنوب مصر وشمالها.. وكنت وصلت ليقين أنني بلغت منتهى العلم، وما عاد بالإمكان العثور على المزيد من علوم الكهنة المخفية. قوانين الآثار في مصر نشطت

في هذه الفترة، وبات العثور على برديات أو تدوينات من أثر المصريين القدماء دربًا من المستحيل. رغم هذا كنت أواصل رحلاتي.. لا أستقر في مكان لأكثر من أسابيع، أو أشهر على أكثر تقدير. لا أعرف عمّ أبحث؟ ربما لم أكن أبحث عن شيء، ولكن حياة الترحال الطويل أكسبتني ذلك القلق الذي يخنق أي محاولة للاستقرار. لم أعد أحسب سنوات عمري.. أعرف أن لي قرنًا من الزمن أو أكثر في تلك الحياة، ولم أزل محتفظًا بقوتي بفضل علوم الكهنة.. ولكن تلك العلوم لا تُحصنني من الأمراض، وخاصة مرض قاتل لا يرحم مثل الكوليرا.. لذلك لم أقم في تلك القرية أكثر من ساعات.. كنت منهكًا.. أرتحل بلا خارطة.. معتمدًا على الحظ.. لا أعرف أين ولا متى سأجد مدينة أو قرية تؤويني.. لذلك كان العثور على قرية بمثابة فتح جديد يستحق الاحتفال.. ولكن ليس تلك القرية.. الموت ورائحة الجثث المحترقة في كل مكان.. فالسلطات الحكومية لم توفر للأهالي الموبوئين سوى محرقة للجثث.. الوضع كان كارثيًا.. ولم أكن لأبقى هنا أكثر من ساعات.. أو ربما هي دقائق مرت لثقلها كساعات.. دخلت القرية من جهة، وغادرتها من الجهة المعاكسة.. خرجت من القرية مسرعًا هاربًا من الموت..

منصور توقف عن الترجمة. لم يغب عن عقل صخر سبب توقفه..

- هذا الجزء قرأته بالأمس.

- بالفعل.

منصـور كان يبحث فوق الأسـطر عن نقطة العـودة للقراءة. صخر حاول معاونته..

- آخر ما قرأته بالأمس كان عن لقاء الخواجة بحسـونة الطفل بعد وفاة أمه.

- أتذكر هذا.

بلغ منصور تلك النقطة من التدوينة، فبدأ يترجم ما تلاها:

- أخـذت الطفـل معـي.. كان جميلًا رغـم سـماره المتناقض مع لوني.. لم أفكر سـوى فـي أن أتركه لأية أسـرة طيبة ألقاهـا في القرية أو المدينة القادمة.. والأسـر الطيبة كثيرة في هذا البلد.. ربما صادفت ملجـأ للأيتام.. أو مدرسـة دينية مـا. ولكن وجود الولـد معي، والأيام الأولى التي قضيتها فـي رعايته، جعلتنـي أدرك أن حياتـي تفتقد إلى هدف جديد.. ربما الأبوة هي هدف مثالي في عمري هذا.. قد أكون أقوى من الشـيخوخة، ولكنني ما زلت في حاجة إلى مَن يرث علمي. كانت تلك الأفكار تملأ عقلي حين بلغت تلك القرية.. لم تكن بالقرية الكبيرة.. بضعة بيوت، مزروعة وسـط حقول واسعة، ممتدة عند سفح تلة مخضرة، يعلوها قصر مهيب، على طراز قلاع العصور الوسـطى. القرية كانت مسـكونة بالرياح.. لا وجود لبشـري واحد.. فقط قطعان من الماشية ترعى في الحقول. احترت بين متابعة طريقي، وبين صعود

التلة زائـرًا القصر. في حيرتي غلبني التعب والليل البارد، فدخلت بيتًا بابـه مفتـوح، ونمت علـى حصيرته وحسـونة في حضني. استيقظت وكانت شمـس الصباح الباردة تدخله بالكاد.. وكان ذلك العبد الأسود واقفًا فوق رأسـي. فزعت لظهوره غير المتوقع.. نطق بلغة عربية بالغة السـوء، ليُخبرني بأن نعمان باشا يريد رؤيتي. تبعته صاعدًا التلة. نعمان باشـا هـو مالـك هـذا القصـر وكل الأراضي الممتـدة أسـفله.. مالك الماشـية.. ومالـك البيـوت.. ومالـك حتى البشـر الذين سـكنوا تلك البيوت لزراعة أرضه ورعاية ماشيته.. عجوز في السبعين، وإن احتفظ بقوتـه وعنفوانه، يسـكن وحيدًا هذا القصر، وسـط مجموعة كبيرة من العبيد السـود.. هـم خدمه، وهم قوته وأداة سـيطرته علـى الفلاحين. حين سألني عن حسـونة وجدت نفسي بلا وعي أخبره بأنه ابني.. ومنذ هذه اللحظة وأنا أعد حسـونة ابنًا لي.

نزلت في ضيافة نعمان باشا لفترة. كان لطيفًا معي.. يحب أحاديثي.. يمتلك شـغفًا للمعرفة وحبًا للعلوم. أغراني بـأن أقص عليه نذرًا قليلًا مـن معارفـي؛ وكان هذا النذر قادرًا على إبهاره، وإسـالة لعابه. الباشا يواجه معضلة حقيقية. الكوليرا قضت على الفلاحين، وتركت قريتهم خاوية، وهو لن يغامر باسـتقدام غيرهم، فالوباء تفشـى في القرى على نطـاق واسـع.. لا بد من حـل مغاير.. حل عبقري، يليـق بعلوم الكهنة العظام التي أحملها محفوظة في رأسي وفي دفتري...

توقف منصور عن القراءة. مرة أخرى كان سبب توقفه واضحًا..

- جزء كبير مطموس من باقي التدوينة..

- الاحظ هذا.

منصور حرك ضوء كشافه بحثًا عن المزيد، ولكن صخر أوقف طموحاته..

- لا وقت لقراءة المزيد.

كان هو الوقت المناسب لتنفيذ ما خطط له؛ منصور ضبط هاتفه على وضع الفلاش، وبدأ يلتقط الصور. صور لكل الجدران، صور من مسافات متباينة، عشرات الصور. كان صوت إقامة الصلاة يصلهم بالكاد..

- يكفي هذا أرجوك.. عليك أن تعود فورًا.

التوتر في صوت صخر هو ما أخرجه من انجذابه..

- على كل حال أعتقد أنني حصلت على ما يكفي.

كان يعبث في شاشة هاتفه مستعيدًا الصور التي التقطها..

- لا وقت لمشاهدة الصور الآن.

منصور كان عليه لحظتها أن يستسلم لمخاوف صخر، وأن يعود سريعًا ليتدلى - خلال دقيقة - بالأسلاك الصدئة عبر النافذة. اعتياده، وتوقعه للمشقة المنتظرة، لم يقللا من خوفه، ولم يقنعا قلبه بأن يهدأ، ولم يقنعا عقله بالتوقف عن استدعاء خيالات السقوط، حتى لامس

الأرض بسلام. ميكروفون المسجد كان يبث وقائع الركعة الثانية، لم يبق أمامه الكثير. انطلق ركضًا، تمهل عند عبوره للبوابة الخارجية للدار، ربما رآه أحد من نافذة ما، سيكون عسيرًا عليه - إن حدث هذا - أن يبرر سبب ركضه بهذا الشكل كاللصوص. هذه المرة كان قد ترك باب الدار نصف مغلق؛ دفعه ففتح. بعد أقل من دقيقة كان في حجرته.

فكرة النوم غير واردة على عقله الآن. تربع على الأرض أمام طاولة قصيرة، فتح فوقها جهاز الكمبيوتر، رفع عليه الصور التي التقطها. كان متحمسًا، متشوقًا للحظات الاكتشاف القادمة، سعيدًا بأن يستطيع الانفراد بكلمات جده، ليحاورها، ويكشف عن أسرارها. أمامه الآن كل الوقت والتركيز المطلوبين. أدار الصور بسرعة، كان يبحث عن شيء محدد، عن التدوينة الأهم، حتى وإن حاول إنكار هذا أمام صخر؛ تصميم الماكينة. عليه أن يعلم، عليه أن يصل لقرار بشأن جده؛ هل كان عالمًا استثنائيًا؟ هل كان ساحرًا؟ هل بالفعل بلغت علوم كهنة الفراعنة هذه الحدود الأسطورية؟ هل كان مجرد نصاب؟ مجرد بائع حكايات وأساطير للقرويين، مثل العملة؟ من حقيبة يده أخرج قلمًا ومفكرة. لحظتها اكتشف الظرف الذي كان يحوي الخطاب. منذ أن أخرج الخطاب من ظرفه عند مدخل القرية، نسي كل شيء عن الظرف، وعن الختم الأحمر المدموغ عليه. منصور طوى الظرف ووضعه في جيب قميصه حتى لا ينساه مرة أخرى. نقل

في مفكرته تخطيطات الماكينة ومعادلاتها. انكب لفترة في محاولات الفهم والتحليل، ولكن الأمر بـدا وكأنه يزداد غموضًا كلما تعمق فيه. حاول أن يدع أمـر الماكينة جانبًا، ويعود للتدوينات التي تروي حكاية جلده، ولكن الماكينة ظلت مسيطرة على عقلـه؛ جواب الحيرة يكمن فيها، والأهم أنه يتذكر الآن قول صخر، إن خلاص الأولاد المقدسين كذلك قد يكون ساكنًا في الماكينة. هو لم يفهم ما قصده صخر، ولكنها بقعة ضوء جديدة تسقط على الماكينة، لتحددها كبطل رئيسي في تلك المسرحية، منها تبدأ كل الخيوط، وإليها تعود. عاد إلى مفكرته، يتأمل المخطوط فيها، متوقفًا لفترة طويلة أمام صورة واضحة التقطها للرسم البدائي الذي يصف ما فعلته الماكينة.

إذا فرضنا صحة التدوينة، وإذا فرضنا أن الماكينة بالفعل كانت تقوم بعملية التحويل العجيبة تلك، فعلى أي أساس علمي كانت تقوم بهذا؟ المثبت في تخطيطاتها أنها كانت تعمل على خلق دفقات كهربائية متتالية من طاقة البرق، يتم تسليطها لا سلكيًا على الغرض العابر فوق سير الماكينة المتحرك. ما الغرض من تلك الطاقة؟ وكيف يمكن أن تحدث أي تغير في طبيعة الأشياء؟ التغير الوحيد الذي قد يحدث لكائن حي نضربه بطاقة كتلك، هو أن يحترق! تفكير منصور الآن يقف مشلولا في منتصف التقاطع بين طريقين. الطريق الأول - وهو الذي يميل منصور إليه وجدانيًا - يقود إلى نتيجة أن سيمون رينار كان نصابًا، ولكن ما يقوض إنطلاقة منصور في هذا الطريق، هي

الوقائع - غير القابلة للتشكيك - التي تؤكد أن جده عاش بصحة جيدة حتى تجاوز المئة والثلاثين عامًا؛ أليس هذا دليلًا على امتلاكه لقوة غير طبيعية ما؟ الطريق الثاني - هذا طبعًا إذا ما سلمنا بصحة ادعاء الجد، وبأنه بالفعل كان يمتلك العلم فوق الطبيعي - يقودنا إلى اعتقاد أن تخطيط الماكينة ناقص، وأن الجد لم يسجل في تدوينته كل شيء عنها. وهذا الاعتقاد يقوضه لا منطقية دوافع الجد لوضع تلك التدوينة عن الماكينة، إن لم يكن ينوي أن يسجل فيها كل شيء. إن لم يكن غرضه من تلك التدوينة أن يسمح لمن يقرأها بإعادة تشغيل الماكينة، فلماذا وضعها؟

منصور شعر بدوران عقله يبطئ، ربما نتيجة خلل ما وقع به، لن يستغرب إن تطاير من أذنيه دخان أسود كأفلام الكارتون! قرر أن البحث عن بعض المساعدة لن يضر. وضع معادلات وتخطيطات جده في رسالة بعثها إلكترونيًا إلى زميل له في المركز العلمي، يعمل في تخصص الطاقة الكهربائية. استغرق وقتًا لكتابة الرسالة، ولحظة أن ضغط زر send كانت هي اللحظة التي تهاوى فيها جسده.

***

منصور، حين صحا في خامس صباحاته في قريتنا، كان ضوء النهار يغطيه، ويغطي كامل الحجرة، عبر الفتحات الصغيرة في النافذة المغلقة. الطرقات على الباب، وصوت شحتة:

- الفطور يا سيدنا.

نبهاه إلى أنه نائم على الأرض بجوار الطاولة، والكمبيوتر لم يزل مفتوحًا.

- سآتي يا شحتة خلفك.. أمهلني دقيقة.

- العمدة في انتظارك على أي حال.

صوت الخطوات الثقيلة لشحتة وشت برحيله. منصور حاول الاستواء جالسًا، آلمه جسده لطول الرقاد على الأرض الصلبة. حاول أن يتذكر متى وكيف سرقه النوم، فلم يستطع. ولكن ذلك اللون المتراقص برقم "1" فوق أيقونة بريده الإلكتروني على سطح الكمبيوتر، ذكره بأمر الرسالة التي أرسلها لزميله. استعاد نشاط عقله لحظتها. ذهب بالمؤشر إلى الأيقونة متلهفًا. فتح الرسالة..

التصميمات التي أرسلتها تبدو لماكينة تستخدم تكنولوجيا قديمة، ولا أعرف أصلًا إن كانت ممكنة أم محض خيال علمي، لاحتواء طاقة البرق، وتحويلها إلى دفقات صغيرة متتالية من الموجات الكهربائية، تنطلق في الهواء عبر ملفات تيسلا كبرق مصغر، لتضرب شيئًا ما. هذا هو كل شيء.. لا يبدو أن هناك دافعًا واضحًا لاستخدام تلك الموجات من الكهرباء اللا سلكية، إلا إذا كنت تنوي أن تبعث أحدهم من الموت يا دكتور فرانكنشتاين.

الزميل اختتم دعابته الأخيرة برسم صغير لوجه كارتوني لغول بأنياب بارزة. منصور لم يكن في مزاج رائق لتلك السماجة. أعاد الرد

لصديقه مكتفيًا بكلمة شكرًا. الحيرة لم تزل تتضاعف. حتى القناعات التي يفترض أن يكتسبها من نتائج زميله هناك ما يقوضها، ويبقيها مزينة بفجوات من الشكوك. فلو كان جده مجرد نصاب لعب مع نعمان باشا ألاعيب الحواة بتوليد دفقات صغيرة من البرق في الهواء، فما حاجته للبرق الحقيقي؟ تسلا فعلها كثيرًا عبر ماكينته، وكان يستخدم أي نوع من الوقود العضوي، وبالتأكيد جده كان يمكنه توفير هذا الوقود في زمان بناء الماكينة، فلماذا البرق؟

منصور وضع رأسه تحت الماء المنهمر من الصنبور. لم يكن يغتسل، كان يتمنى فقط تبريد رأسه، ولكن الماء كان ساخنًا في هذا الصباح الحار. رفع رأسه إلى المرآة أعلى الحوض، يتأمل ملامحه وكأنه لا يعرفها. لن ندعي أن حالة كتلك أصابته لأسباب نفسية، أو نتاج لتساؤلات الهوية. الأمر ببساطة أن لحيته طالت بشكل لم يعتده في نفسه من قبل. لدرجة أنه اكتشف للمرة الأولى أن في لحيته شعيرات بيضاء عدة. لم يستطع أن يصل إلى يقين، إن كانت هذه الشعيرات موجودة منذ زمن، أم أنها وليدة الأيام المعدودة التي قضاها في قربتنا! مظهره غير اللائق أنساه أزماته، ووقف يحلق ذقنه بعناية، كما اعتاد أن يفعل دومًا. لما فرغ، بدل ملابسه. انتقى ملابس جديدة، أنيقة، وكأنما يعوض إهماله العارض لمظهره في اليومين الماضيين. وضع الظرف في جيب القميص الجديد، واتجه إلى حيث ينتظره العمدة على مائدة الفطور العامرة دومًا..

- bonjour.

منصور قالها وهو يتخذ مجلسًا. العمدة توقف عن الأكل ليجيبه:

- وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته.

شحتة كان واقفًا أمامهما، منتظرًا ما قد يستجد من الأوامر. منصور توجه إليه قائلًا:

- النسكافيه يا شحتة بعد إذنك.

غاب شحتة، وحضر الصمت. العمدة كان يتناول طعامه دون التفات إلى منصور، ومنصور كان يتأمله بلا رغبة حقيقية في الكلام. صمت العمدة غير المسبوق أضاف المزيد إلى شكوك منصور. يمكنه الآن أن يجزم أن التغير المحسوس في معاملة العمدة له متعمد. رغم فضوله للوقوف على الأسباب، إلا أنه فضل الصمت، فما يدور في رأسه كان أكبر من أن يدع مساحة شاغرة لمشاغل وأزمات إضافية.

العمدة فرغ من طعامه، حمد الله بصوت مسموع، مسح يديه وفمه في المنشفة أمامه، ثم نادى بصوتٍ عالٍ لتعبر كلماته باب الحجرة:

- الشاي يا شحتة.

تمهل العمدة حتى انتهى من إشعال سيجارته، ثم قال دون أن يلتفت إلى منصور:

- بالأمس، وأنا في البندر، حدثت البك الضابط بشأنك.. وأبلغني أن بإمكانك المغادرة إن أردت.

منصور لم يملك سوى الخوض في منطقة ما كان يتمنى خوضها..

- تبدو متعجلا رحيلي.

قالها مشفوعة بابتسامة تلطف وقع الكلمات..

- سبحان الله.. ألست أنت المتعجل؟! أنا فقط ألبي لك طلبك.

منصور لم يجد كلمات تقال. العمدة نفث دخان السيجارة، وقال كلمات بغير حماس..

- الدار دارك يا سيدنا.. ونحن قوم نكرم الضيف.. يشرفنا أن تبقى قدر ما يحلو لك.

أمام تلك المناورة لم يملك منصور غير قول..

- شكرًا يا حاج.. أنت رجل سخي.. وأنا سعدت في بيتك.

منصور لم يكن يكذب بالطبع، فهو حين قال تلك الكلمة تحديدًا كان يفكر في وردة!

- ولكنني مضطر للرحيل بالفعل.

شحتة عاد حاملا الشاي والنسكافيه. منصور استغل فترة الصمت، المبررة بدخول شحتة وبشرب قهوته، في التفكير في الخطوة التالية. كان عقله مرهقًا، يشعر أنه يلعب مباراة ملاكمة كلامية مع العمدة. مع رشفة القهوة - التي تعمد الإطالة فيها - تذكر أمرًا..

- فقط قبل الرحيل عليّ أن أتأكد من أمر ما.

- ما هو؟

- الرسالة.. الرسالة التي أحضرتني إلى هنا.

- ما بها؟

منصور أخرج الظرف من جيبه..

- انظر إلى الختم على هذا الظرف.. فربما كان دالا على مرسل الخطاب.

هل حقًا كما خيل لمنصور أن عيني العمدة التمعتا بمجرد أن أمسك بالظرف، وقبل حتى معاينة الختم؟ فلما نظر إلى الختم قال:

- من أين لك بهذا الظرف؟!

سؤاله كان حادًا، متشككًا، متلهفًا..

- هذا الظرف الذي كانت به الرسالة.

العمدة هز رأسه رفضًا، وكأنما يكذب منصور، أو يكذب عينيه ربما..

- ولكن هذا مستحيل.

- ماذا تقصد؟

- هذا الختم يحمل شعار نعمان باشا!

- نعمان باشا؟!

- أجل. الإقطاعي القديم.. صاحب القصر المسكون.

منصور كان عليه أن يتفكر قليلًا قبل أن ينطق..

- هذا يعني أن من أرسل الخطاب ربما أحد ورثته؟

لكن العمدة أجابه بما كان يخشى سماعه..

- نعمان باشا بلا ورثة.. الرجل مات وانقطعت أخباره. إلا من أخبار العفاريت التي تسكن قصره.

- ماذا تقصد؟

قالها منصور بنبرة استنكار أثارت غضب العمدة..

- أنا لم أقصد شيئًا.. أنت سألتني وأنا أجبتك.

منصور جرع كوب القهوة حتى آخر قطرة دون مبالاة بسخونته، ربما لمواراة توتره، وربما لاحتياج حقيقي وغير مسبوق للكافيين..

- أنت تقول إن ثمة شبحًا هو من أرسل لي الخطاب؟!

العمدة انفعل. لأول مرة منذ تعارفا، تحمل كلماته لمنصور هذا القدر من الحدة..

- لماذا لا تفهم؟! قلت لك أنا لم أزد على إجابة سؤالك.

ربما تأثر منصور في اتخاذه لهذا القرار المتسرع بطريقة العمدة الانفعالية، التي أدارت في روحه محركات التحدي. وربما كان القرار

تعبيرًا عن رغبة حقيقية، مهما اختلفنا حـول درجة تهورها. المهم هو ما حدث، ففـي الحكاية يبقى الحـدث دائمًـا أكثر قوة وأطـول عمرًا من مجادلاتنـا الفارغة حول مبرراته. منصور نهـض عن المائدة فجأة وقال:

- لا بد إذن من زيارة القصر.

شحتة شهق وبسمل. والعمدة ابتسم، ولم يعلق.

يحلو الكلام..

لعلكـم تفهمـون أن خبـر اعتزام منصـور زيارة القصـر - إن ذاع - يمكـن أن يهدم الكثير من أعمـدة النظام القائم فـي قريتنا. وهي كارثة - لا تسـاويها كارثـة - أن تنهـار ثوابـت مجتمـع ملتـزم بثوابتـه مثـل مجتمعنـا. العمـدة بصفته حارس للقيـم، والمعهود بحمايـة الثوابت، كان عليه أن يعترض، كان عليه أن يسيل الدماء دون حدوث أمر كهذا. ولكـن العمـدة لم يعترض! العمـدة - مخالفًا لـكل توقعات منصور- وافـق؛ وإن حـاول وضع موافقته فـي إطار الحالـة المغتصبة على غير رضا منه. لكـن منصور كان نبيهًا ليلاحظ أن العمدة مرحب في حقيقة الأمر بقراره. لاحظ أن العمدة استعاد حماسته وموقفه الإيجابي منه. هذا التحول كان طبيعيًا أن يهيج نفس منصور المتشككة، حتى إنه فكر لوهلة في العدول عن قراره؛ ولولا الخوف من إفساد الصورة المفاجئة للشجاعة التي يقدم نفسه من خلالها، لتراجع فورًا.

ما قاله العمدة لمنصور؛ أو تحديدًا ما يهمنـا، بعد تنقية حواره من مجموعـة الجمل التمثيلية القصيرة، على غـرار "وحد الله"، "لا تُضيع حياتك هباء"، "لا يجب أن نكسر عهد صخر مع العفاريت"؛ كان:

- إذا كنت مصرًا فلا مانع.. إن لم يكن ثمة مانع عند الشيخ ربيع.

منصور كان واثقًا أن العمدة قريبًا أو لاحقًا سيعود إلى الألاعيب؛ لذا لم يندهش..

- وهذا يعني...؟

- يعني أنه ليس من حق أحد أن يتساهل في مقدساتنا سوى شيخنا.. دعني أطلب رأيه أولًا.

- وكيف ستفعل هذا؟!

أطفأ العمدة سيجارته، ونهض عن طاولة الفطور.

- لأجل خاطرك.. سأذهب إليه الآن في خلوته، وسأعلن قراره في الجامع بعد صلاة الظهر.

- وماذا إن رفض؟

العمدة ابتسم مشفقًا من خيال الفكرة..

- ساعتها سيكون عليك أن تواجه غضب القرية كلها إن أردت تنفيذ قرارك.

منصور لم يعلق، لا على كلام العمدة، ولا على نصيحة همس له بها شحتة..

- تعقل يا سيدنا.

قبل أن يغادر في ذيل سيده.

***

منصور صعد إلى حجرته، عازمًا على قضاء وقت الانتظار برفقة تدوينات جده. عاد إلى جلسته أمام الكمبيوتر، محاولاً إرغام العقل على العودة إلى لغز الماكينة. لكن العقل كان محملا بالكثير من الارتباك والتوتر، والخوف ربما، والكثير الكثير من الخيالات غير السعيدة لما هو مقبل عليه. فكر أنه قد يكون نوعًا من التسرية إن ترك الماكينة جانبًا وعاد إلى مذكرات جده، على الأقل هو موضوع أكثر تشويقًا، دون إجهاد للفكر. بحث في الصور، حتى عثر على تلك التي ينتهي فيها تدوين الحكاية. ما كان يستطيع صبرًا للوصول إلى الخاتمة، فقرر أن يبدأ بها. استحضر من مفكرته صفحة بيضاء، ليترجم كتابة ما سيقرأه إلى العربية. بعض الكلمات العربية لم يعرف كيف يكتبها، فكتبها كما ينطقها بحروف فرنسية..

بت الآن أشعر أن كل شيء شيدته قد انهار. هل أنال جزاءً عادلاً؟ أهذا هو ما أستحقه بالفعل؟ ربما.. أحيانًا أظن أن سعيي وراء المعرفة، وراء القوة، لا يختلف عن أي طمع دنيوي لمال أو سلطة، طالما أنني ضحيت بإنسانيتي في سبيله؛ قدمت للباشا الكثير مقابل أمواله وتمويله لمعجزاتي، ولكنه شيطان لا يشبع، يريد دائمًا المزيد، والمزيد، وأنا لا أبالي طالما أن مفاتيح خزائنه تحت أمري؛ لا أبالي حتى بقسوته وما يفعله بالفلاحين، حتى عندما حدثني في جلسة ثمالة أن أهل قريته لم تقض عليهم الكوليرا كما اعتقدت، وكما أخبرني هو في أول لقاء، وإنما هو من أمر عبيده بقتلهم وإحراق جثثهم كي لا يكونوا جسرًا يصل عبره الوباء القاتل إلى قصره...

منصور هنا توقف قسرًا. للحظة ارتعش في يده القلم، وضربت صدره دفقة من نقرات سريعة من قلب عجز عن احتواء الصدمة لثوانٍ..

حتى عندما سمعت هذا منه لم أهتم، أو حتى أمتعض. أنا لا أختلف كثيرًا عن هذا الرجل. أنا وحش بذات القدر، ولن أدعي أنني أتمرد عليه الآن من أجل الحق أو الخير؛ بل من أجل سلامتي. فطالما أنا هنا، ستبقى حياتي وحياة حسونة ملكًا له. هو لن يكتفي إلا بموتي، وأنا لا أنتوي الموت الآن؛ ليس حبًا في الحياة، فقد عشت أكثر من اللازم، ولكن لا أريد أن أغادر الدنيا قبل أن أخرج حسونة من هنا إلى مكان آمن. لن أمنحه الوصفة، قد يكون قرارًا انتحاريًا، ولكنه حتمي. رغم هذا صنعت له كمية كبيرة كهدية أخيرة، وتركتها بجوار الماكينة. الليلة سأهرب أنا وحسونة، لا يهمني عبيده الذين يحرسون الفابريكة.. فلم يزل في جعبتي سحر فرعوني لا يخطر على بالهم. وهذه التدوينات أتركها تحت حماية تعويذة الكهنة - ربما هي آخر تعويذة أستخدمها من دفتري - كي لا تكشف الحجرة أسرارها إلا لمن يستحق المعرفة، فقد تكون الليلة نهايتي، فلا أريد أن تنقطع سيرتي، وتموت الحكاية معي. ربما في يوم ما، يأتي إلى هنا من يستحق أن يعلم بما حدث في ماضي تلك القرية. ربما شخص ما، في ظروف ما، قد يفيده هذا العلم في عمل عظيم. لهذا الشخص المجهول، أترك تدويني.

وفي نهاية التدوينة سطران كاملان يحويان رموزًا هيروغليفية، هي بالتأكيد التعويذة التي تحدث عنها الخواجة. ختام الحكاية أشعل

حماس منصور للعودة إلى بدايتها؛ تصفح الصور بحثًا، ولكن طرقات خافتة على الباب أوقفته، وصوت وردة يتسلل هامسًا:

- افتح بسرعة.

منصور استغرق عقله أجزاء من الثانية - زائدة عن المعتاد - للتعرف على الصوت وتذكر صاحبته. عجيب أمر وردة، لا تأتيه إلا في أوقات انشغاله عنها، وحين يتمناها لا تأتي؛ كأنما تسير على إيقاع مدروس مضبوط على ما يناقض حركة روحه.

فتح الباب فانسلت بخفة. وضعت رأسها على صدره، فضمها مستعيدًا شوقه إليها.

- أصحيح أنك تريد دخول القصر؟

تراخى ذراعاه حولها.

- كيف عرفت؟

- سمعت أبي وشحتة يتحدثان أثناء خروجهما.

- هما صادقان إذن.

سلطت زرقة عينيها على عينيه..

- انتبه لحالك.. ولا تخاطر أرجوك.

- ظننتك هنا لمنعي.

ابتسمت..

- أنا أثق بك، وبعلمك.. وأعرف أنك شجاع وقوي.. أنت تملك العلم.. وإن لم يهزم العلم الأشباح، فماذا سيهزمهم؟

كلماتها أسعدته وحمسته.

- أنت رائعة.

تلون خداها بمزيد من الأحمر.

- أما زلت تشتاق إليَّ بعد ما فعلناه؟

- في كل لحظة.

فاجأته باقتحام عنيف لشفتيه، ولما غادرتهما قالت:

- وأنا كذلك.

رغبته للمزيد اتقدت رغمًا عن هموم العقل. ففي لحظة كتلك على العقل أن ينطفئ تمامًا مفسحًا مقعد القيادة للقلب. وردة أحبطت رغباته لحظة أن قالت:

- يجب أن أذهب الآن.

تحركت لتقف أمام الباب..

- افتح وانظر إن كان هناك أحد في الردهة.

منصور نفذ ما طلبته. الردهة كانت خالية. أشار إليها، فخرجت مبتعدة برشاقة، وبقي هو محاولًا الخروج من النشوة التي تخلفها وراءها، فلم يخرجه منها سوى صوت أذان الظهر.

منصور لم يكن يحب الادعاء، وبخاصة في شأن روحي وعقائدي كالتعبد. هو كان مؤمنًا بالإله، ربما ليس على طريقة والده المسلم الملتزم، ولا حتى على طريقة والدته الكاثوليكية الملتزمة، لكنه كان مؤمنًا على كل حال. لذا فهو إن ذهب لحضور الصلاة، فعليه أن يصلي فعلًا، تمامًا كما يفعل من حوله، وبذات الحماس والخشوع، بلا أي ادعاء، أو كذب.

توجه إلى الحمام بمجرد سماع الأذان. توضأ مستعيدًا إرشادات العملة السابقة، ويضع صور مموهة من طفولته عن تعاليم والده، ثم خرج قاصدًا الجامع الكبير. في الطريق، مر أمامه واحد من الأولاد المقدسين - هو ريح ربما - كان أكثر قذارة مما يتذكره، ربما لأنه يراه في ضوء النهار لأول مرة؛ يحتضن لفافة من أوراق الجرائد، ربما تحوي طعامًا. تلاقت أعينهما، كاد منصور أن يلقي التحية، ولكن الولد أشاح بوجهه وأسرع خطواته، فتذكر منصور حديث صخر عن ضرورة ألا يعلم أحد عن علاقته بساكني الفابريكة.

دخل إلى الجامع، فدارت الرؤوس كلها نحوه، وتعالت الهمسات. وكأنما العملة كان ينتظره، رآه فأشار إلى شحتة أن ينهض إلى الإقامة. منصور اتبع الحركات. حاول أن يملأ فترات الصمت باستعادة أية آيات قرآنية كان يحفظها طفلا إرضاء لوالده، فلما فشل استغرق في الدعاء إلى الله أن يوفقه في مسعاه، ويرشده إلى الطريق الصحيح. بعد الصلاة، امتدت نحوه عشرات الأكف بالمصافحة، وقد استعاد الناس

نظرتهم القدسية له، بعد أن رأوه بينهم في الجامع من جديد. العمدة قاطع حرارة ترحابهم حين صعد إلى المنبر خاطبًا.

- يا أحفاد البقر والجاموس! لقد دعاني سيدكم وشيخكم ربيع، فلبيته في خلوته. أخبرني أن سيدكم منصور مسموح له بدخول قصر الباشا، فللرجل منزلة عالية في دين العفاريت كما هو في دينكم. وليكن في زيارته تلك خيرًا كثيرًا لنا ولقريتنا.

أنهى العمدة بيانه المقتضب، فضج الجامع بالتكبير والتهليل. السعار الجمعي عاد ينتشر بينهم كاملًا، تمامًا كأول لقاء، مستعيدين الشحنة الروحانية القصوى الموجهة نحو منصور. عاد تقبيل الأيدي - وتقبيل الأرجل في حالة أو حالتين - والمئات من لمسات التبرك. ولولا التدخل السريع من شحتة والخفر - بإشارة من العمدة - لربما سحقت عظام منصور تحت ضغط التدافع نحوه.

- اهدأوا يا بهائم يا أبناء البهائم.

هكذا ساهم العمدة من فوق منبره في جهد تفريق الحشود. في النهاية اكتمل سياج بشري محكم حول جسد منصور من الخفراء، يقودونه إلى خارج الجامع، شاقين طريقهم بين الناس بلسعات الخيزرانات.

***

منصور اجتاز المقابر وسط موكب هائل. عند بداية الطريق الصاعد إلى القصر، توقفت المسيرة، وكأنما صدمها حاجز زجاجي.

- الآن تتقدم وحدك.

قالها العمدة بصوت مسرحي مرتفع، لتبلغ كلماته كل الحشود التابعة المتضمنة ما يقارب نصف سكان القرية. انتشر بينهم صخب، هو تشكيل مجمع لهمسات المتحلقين المتوترة، قاطعها العمدة بإشارة من كفه، ثم مد كفين مبسوطتين إلى السماء، وبدأ يدعو، والجمع يهدر بالتأمين خلفه..

- اللهم يا مستجيب الدعاء، ببركة مولانا شيخ النور ربيع، وفقه..

- آااااااااااامين.

- واحفظه..

- آااااااااااامين.

- واجعل روح مولانا ربيع تحوم حوله تحرسه..

- آااااااااااامين.

- اللهم سدد رميه.. وبارك خطاه.. ونور طريقه..

- آااااااااااامين.

الموقف استمر على هذه الحال لفترة طالت، حتى امتلأ منصور بيقين أن الموت في حضن الأشباح أخف وطأة من هذا الموقف السخيف. وهي فائدة يجب أن تذكر بخير لتلك اللوحة الإيمانية التي صنعها العمدة وأهل قريته، فقد أشعلوا حماس منصور لإلقاء نفسه

في الأتون المنتظر. حتى وإن كان هذا الحماس لرغبة في الهرب منهم؛ فهو على كل حال شيء يحمد لهم! في النهاية، توقف الدعاء، مع حركة مسرحية جديدة من العمدة، حين مسح بكفيه على رأس منصور، ثم استدار مخاطبًا الجمع..

- والآن يا بهائم.. كل يذهب لحاله!

تفرق الناس بحماس مناسب لصوت الخيزرانات التي تقطع الهواء، يتبعهم الخفراء. العمدة لم يغادر إلا عندما اطمأن لقطع منصور مسافة مناسبة نحو القصر.

على جانبي الطريق الترابي مساحتان من الأرض البور، منصور يعلم أن الفلاحين أهملوا زراعتهما خوفًا من الأشباح. رغم هذا، كان يمكنه أن يرى بعين الخيال كيف كان هذا الطريق منذ مئة عام، وعلى جانبيه أشجار، وربما أحواض ورد تنشر رائحة خفيفة، أثناء صعود الباشا وهبوطه على صهوة جواده، أو معتليًا عربة يجرها فرسان قويان. الطريق ينتهي - بعد مشقة الصعود - ببوابة حديدية ضخمة، يحرسها أسدان رخاميان، لم يزالا في حالة جيدة رغم القدم. البوابة كذلك كانت قطعة أثرية مبهرة، يتوسط ضلفتيها نقشان لذات الشعار المرسوم على ختم الخطاب، تلك العين المحدقة. تجاور العينين على ضلفتي الباب أكسب البوابة شكل وجه ضخم يتأمل الواقف أمامه. الضلفتان كانتا مواربتين بمقدار فرجة تسمح لجسد منصور بالانسلال بينهما، دونما حاجة لبذل جهد دفعهما. بعد البوابتين، كانت أنقاض

حديقة خربة بمساحة شاسعة. تتوسطها نافورة ضخمة على الطراز الإيطالي، تعتليها حوريات بحر مرمريات. من النافورة يمتد طريق مرصوف يفضي إلى باب القصر، على جانبيه إثنا عشر تمثالًا، يمثلون آلهة الأوليمب الاثني عشر.

منصور لم يتعجل عبور البوابة. وقف قليلًا ينتزع أنفاسه من تعب الطريق الطويل الصاعد، مستغلًّا اللحظات في محاولة إذابة مخاوفه وتشجيع نفسه. في لحظة أدرك أن الانتظار طال لمرحلة عبثية. عليه الآن أن يقوم بما جاء للقيام به، أو يعود أدراجه معترفًا لنفسه - قبل الاعتراف للآخرين - بجبنه. ولأن العودة قرار مستحيل، فلا داعي لتأخير الإقدام أكثر من ذلك.

منصور عبر البوابة قاطعًا الحديقة نحو القصر. عبوره أمام آلهة الإغريق أجبره على تأمل وجوههم ونظراتهم المخيفة الموجهة إليه. وكأنما إثنى عشر حارسًا غاضبًا متحفزًا للقضاء على أي دخيل. مظهرهم وحده - حتى في ضوء النهار - كافٍ لإثارة الرعب وآلاف الأساطير عن الأشباح. ارتجف قلبه بشكل مباغت وهو يعبر تحت شوكة بوسيدون الثلاثية الموجهة إلى رأسه، وهو يعبر أمام سهم أبوللو المسدد نحوه عبر القوس مشدود الوتر بين أصابع إله الشمس، وهو يعبر تحت مطرقة هيفستيوس ذي الوجه القبيح. بعد اجتياز ممر الآلهة توقف متأملًا بناء القصر. لدقيقة، نسي مخاوفه أمام انبهاره بما يراه؛ شيء ما في عمارة القصر ذكره بكنيسة نوتردام، وكأنما هو نسخة مصغرة منها. ربما برج

القصر يشبه البرجين المربعين المتصبين عند واجهة الكنيسة. وحين رفع رأسه لأعلى، لمح بضعة تماثيل الجارجول تتأمله من أعلى، تشبه نظيرتها المنحوتة أعلى الكنيسة الشهيرة في باريس.

منصور تعلقت أنظاره بالتماثيل لفترة، فلم يتنبه لعبور الجسد الأسمر العجوز لباب القصر، ووقوفه أعلى الدرجات الرخامية الاثنتي عشرة. لم يتنبه سوى على الصوت الهادئ المتمهل يقول بفرنسية أنيقة:

- مساء الخير.

كانت لحظة يمكن بسهولة وصفها كاللحظة الأكثر رعبًا في تاريخ منصور. لم يكتف بقفزة المفاجأة، وإنما أرفقها بصرخة مبتسرة. حين انتبه للعجوز الأسمر، كان طبيعيًا أن يتشكك في وجوده المادي، لذا أفلتت منه صيحة قصيرة..

- شبح؟!

الرجل ابتسم - أو هكذا فسر منصور التغير الغريب الذي طرأ على تجاعيد وجهه المتغضن - ثم قال وكأنما صيحة منصور لا تعنيه:

- نعمان باشا في انتظارك!

منصور حاول - بتفكير علمي - ألا يستبعد من عقله احتمال جنونه. رغم المسافة الفاصلة بين الرجلين، منصور ظن أن تراجعه للخلف خطوات قد يعطيه مساحة أكبر من الأمان..

- من أنت؟ أو.. ما أنت؟

العجوز بجهد فائق قطع الدرجات هابطًا. كان يلهث، وبدا وكأنما يصارع الموت، حتى إن منصور فكر لثانية أن يتقدم منه ويعاونه على الهبوط؛ لكنه فضل في النهاية أن ينتظره عند منتهى رحلته. بعد وقت طويل، تواجه الرجلان، وبعد فترة استعاد العجوز قدرته على النطق..

- الباشا ينتظرك منذ زمن طويل.. أطول مما أستطيع إحصاءه.. فأرجوك لا تجعله ينتظر أكثر.

منصور بشكل ما شعر بالشفقة تجاه العجوز. أراد أن يقول له "كان بإمكانك أن تخبرني بهذا من مكانك!". ولكن العجوز ربما أراد بهذا القرب أن يثبت لمنصور حقيقة وجوده. الآن يبدو له العجوز كيانًا حيًا، يحس سخونة أنفاسه، ويشم رائحة عطره الدسم.

- عن أي باشا تتحدث؟!

العجوز هز رأسه..

- اسمع يا فتى.. رجل في مثل عمري، صدقني، لا يقدر على مجاراة الأغبياء.. لذا توقف عن الأسئلة البلهاء واتبعني!

استدار العجوز ليشرع في قيادة مسيرتهما السلحفائية. كان صعوده للدرجات أبطأ وأكثر مشقة من هبوطها. هذه المرة عرض عليه منصور فعليًا المساعدة، بقبضة لينة على ساعده الأيمن، لكن العجوز سحب

ذراعه بترفع، وسدد لمنصور نظرة لوم مخيفة. اختار منصور الصمت، والاكتفاء باتباع الخطوات المنهكة، وقد أعمى فضوله خوفه.

بلغا بعد عناء باب القصر. كان بابًا خشبيًّا عملاقًا، أشبه بباب قلعة من القرون الوسطى؛ لا باب قصر إقطاعي عاش في بدايات القرن العشرين. على ضلفتيه تشكيلان بارزان لذات الشعار، ومؤطر بعشرات الحلي المعدنية، تمثل طيور الهاربيز في أوضاع مختلفة، وإن أوحت كلها بالويل. وكأنما كل مساحة في عتبات هذا القصر مصممة لتوحي للزائر أنه واقف على باب للجحيم. من هنا كانت مفاجأة منصور بما رآه بمجرد اجتيازه للفرجة بين الضلفتين المواربتين. البهو العملاق - على عكس الطريق المؤدي إليه - كان أقرب لقطعة من سماء نورانية. لم يدرك منصور قبلًا أن هناك كل هذا العدد من الألوان المتدرجة بين الأبيض والسماوي، إلا عندما شاهد زينة وأثاث هذا البهو. كل شيء هنا واقع في منطقة حالمة بين اللونين. الأطفال الملائكة المجنحون يملؤون البهو في تشكيلات تكسبهم الحياة. تناثرهم في بروزات على الجدران، أو فوق قواعد رخامية متناثرة في كل مساحة البهو - وإن بدا عشوائيًّا - يمنحهم ذلك التشكيل النابض بالحياة، وكأنما يحلقون عابثين في سماء البهو، وبين أجساد الحاضرين. السقف كان لوحة مقتطعة من سقف كنيسة سيستين، حيث في المركز، وعند نقطة تدلي الثريا العملاقة، كان تقليد مثالي لصورة "خلق آدم" الشهيرة. منصور لن يندهش إن علم أن مايكل أنجلو ذاته قد مر من هنا!

- اتبعني من فضلك.

قالها العجوز الأسمر، ليخرج منصور من شرود الانبهار. منصور لاحظ أنه متوقف تمامًا على فم مفتوح كالأطفال، فاعتذر للرجل وعاد يتبع خطاه. عبرا بابًا في جانب البهو، قادهما إلى حجرة المكتب. حيث مكتبة يبلغ ارتفاعها الطابقين، ومكتب ضخم من خشب الصندل، لم يزل عطر الخشب يفوح منه.

العجوز توقف في صدر الحجرة، فتبعه منصور. ظن في البدء أن الحجرة خالية، قبل أن يبلغه صوت عميق مشروخ، يقول:

- شكرًا يا فيروز.. لا تنس واجب الضيافة أرجوك.

هز العجوز رأسه..

- حالًا يا سيدي.

ثم استدار مغادرًا الحجرة، بتلك السرعة التي تؤكد وقاحة كذبه على سيده حين قال "حالا"!

- تفضل يا منصور.

منصور وقف لفترة غير قادر على الاستجابة للدعوة بالجلوس. الرجل كان لم يزل يشير إلى المقعد الضخم المواجه لمقعده، وعلى وجهه - المتزاحم بالتجاعيد - ابتسامة ودود. كان من المستحيل تقدير عمر رجل يحمل مثل هذا الوجه؛ بدا وكأنما تجاوز مرحلة التجاعيد، ودخل في حالة تشبه الذوبان. هذا رجل كبر في العمر حتى بدأ ما

يشبه رحلة اختفاء تدريجي! كان ضئيلا، لا يكاد يظهر فوق المقعد، ربما لتشابه الألوان بين الروب المنزلي الذي يرتديه وقماش المقعد. يتكئ بكلتا يديه على عصاه، وكأنما الجلوس مهمة شاقة بدنيًا. يبقى شعره الأسود الطويل هو العلامة المناقضة لحاله. منصور اشتبه بدءًا في كونه شعرًا مستعارًا، ولكن منابت الشعر - المصفف إلى الخلف - كانت واضحة بلون أبيض يحد الرأس الصغير.

بفرنسية جميلة الإيقاع، قال الرجل:

- أرجوك.. لا تضطرني للإلحاح.

منصور انتبه للدعوة المعلقة، فتقدم وجلس. لحظة ملامسته للمقعد، وكأنما انفلت زنبرك حيرته، ففقد القدرة على كتم تساؤلاته أكثر من هذا..

- من أنت؟!

- أنت تعرف جيدًا من أنا.. فقط أنت لم تصدق بعد.

- هل تعتقد أن شيئًا كهذا يمكن أن يصدق؟!

- أنت مجبر على التصديق، فالتكذيب لن يغير الحقيقة.. حقيقة أنني بالفعل ذلك الرجل البالغ من العمر مئة وثمانين عامًا.. أنا مالك تلك الأراضي الشاسعة.. مالك القرية وخيرها وساكنيها.. ودون أن ننسى أنني الصديق المقرب لجدك الأكبر.. أنا نعمان باشا.

***

منصور - وحتى خمس دقائق مضت - كان يظن أن ما قضاه في قريتنا قد حصنه ضد الدهشة. كان يظن أنه رأى كل شيء، وسمع كل شيء، واحتك بخبرات تكفيه لما بقي له من عمر. لكن الآن - وهو يعيش لحظته المخيفة تلك - يدرك أن وعاء الحكايات لم يزل ممتلئًا بالعجائب.

- ولكن كيف؟

- سؤال غبي من شخص عاش جده الأكبر حتى تجاوز المئة والثلاثين عامًا!

بحماقة العناد قال منصور:

- أظنه كان معمرًا.

الباشا ضحك بصوت أعلى بكثير مما توحي به ضآلته ووهنه..

- معمر؟! أهكذا يعلمونكم في الغرب الآن؟ أن تنكروا الحقيقة الجلية لمجرد اختلافها عن الجمود السائد؟!

منصور - بدرجة ما - استشعر حرجًا..

- أية حقيقة؟

- حقيقة أن جدك كان يملك ذلك العلم الخارق.. العلم الذي مكنه من تحقيق أكبر أحلام البشرية، وأكثرها جنونًا.. أكسير الشباب.

في لحظة كتلك، تبدو أية محاولة من منصور للتشكيك، أو للبحث عن مبررات علمية تتماشى مع المألوف مضحكة. الباب الوحيد المتاح للخروج من الحيرة هو..

- ولكن ما أدراني أنك بالفعل نعمان باشا؟

الباشا ابتسم..

- ما من أحد له مصلحة في خداعك بادعاء أنه باشا ولد منذ قرابة القرنين، وبقي حيًا طوال هذه السنوات بفضل إكسير الشباب.. لا أحد من مصلحته أن يحيا محبوسًا في هذا القصر، محميًا بأساطير ريفية عن الأشباح، لأكثر من ستين عامًا، لمجرد أنه يحب المزاح الثقيل مثلا.

عندها نطق الباشا للمرة الأولى بالعربية..

- أنا نعمان باشا يا ولد.. وأنت تعرف هذا.

ثم عاد إلى الفرنسية..

- كف عن الألاعيب.. أنت لست طفلا.

منصور فكر أن في حديث الباشا الكثير من المنطق، ربما عليه أن يتوقف عن التصرف كأبطال حكايات الرعب، وليبدأ بالتصرف كبطل لرواية فانتازيا، تحكي عن عالم آخر مغاير لكل ما خبره.

- كل ما في الموضوع أن الأمر عسير التصديق.

الباشا هز رأسه أسفًا..

- أنت لا تعرف شيئًا عن جدك.

- هذا صحيح.. وما عرفته هنا ظننته محض أساطير، حتى دقائق مضت.

- جدك ذاته كان أسطورة.

ثم ابتسم تحية لحضور الذكريات..

- التقيته للمرة الأولى منذ أكثر من مئة عام. حل علينا في أوقات سوداء؛ كانت الكوليرا قد حصدت أهل القرية عن آخرهم؛ لم تترك حتى طفلا (هنا تذكر منصور ما قرأه في تدوينة الجد عن حقيقة تلك الواقعة، فارتجف خوفًا، مدركًا للمرة الأولى أنه جالس في حضرة وحش) فإذا به يطالع دفتره، ويخبرني أنه يملك الحل. في اليوم التالي عرض عليّ تصميم الماكينة. قال إن ما سيفعله يعتمد بالأساس على طاقة هائلة لن نحصل عليها سوى من البرق.. البرق، كما قال جدك، طاقة إلهية مقدسة.. قال إن آلته ستجذب الصواعق من السماء، وتحولها إلى صواعق صغيرة تضرب بشكل متتابع من، أو ما، يمر بداخل الماكينة. لم أفهم فيمَ يحتاج كل القوة تلك، ففاجأني بقوله إن تلك الطاقة لازمة لإتمام سحر التحويل.

الباشا صمت، ربما لالتقاط نفسه، أو للتفرغ لضحكة عالية مبحوحة، لم يدرِ منصور لها سببًا. ولما كف عن الضحك قال:

- تصور هذا.. جدك كان يقوم بسحر التحويل، وأنت تستكثر عليه معجزة تافهة مثل إكسير الشباب.

الباشا عاد إلى الضحك بعدها. احترامًا لسنه، لم ينطق منصور حتى كف عن الضحك..

- ماذا تقصد بسحر التحويل؟

- أرجوك.. أرجوك يا فتى.. لماذا تصر على التغابي؟ أنت تعرف ما أقصده جيدًا.. أنت رأيت بنفسك الرسم على جدار الحجرة السرية في الفابريك.

للمرة الثانية خلال دقائق معدودة يكتشف منصور أنه كان حمارًا، حين اعتقد أن ما من شيء قادر على إدهاشه بعد الآن. هذه المرة كانت الدهشة أعظم، أكبر بمراحل حتى من الذهول. علم الباشا بشأن كهذا لا يترك أمام منصور من خيار سوى الارتياب في صخر. أيعقل هذا؟ أيكون الوحيد الذي ائتمنه ووثق به بين كل أهل القرية، عميلا للباشا؟! ألهذا كان يريده أن يعيد تشغيل الماكينة؟ لحساب الباشا؟!

- الرسم على الجدار يصور البقر والجاموس والحمير وهم يعبرون باب الدخول إلى الماكينة على السير المتحرك، ثم يخرجون من الناحية الأخرى بشرًا يسعون على قدمين! أليس كذلك؟

منصور لم يقوَ سوى على هز الرأس بالتأييد..

- هذا هو سحر التحويل.. ماكينة جدك حولت بعضًا من قطعان البهائم التي امتلكتها إلى بشر. سكان جدد للقرية، أعادوا إعمارها. في الحقيقة هم كانوا أفضل بكثير من البشر الطبيعيين.. يتمتعون بدرجة عالية من الطاعة، ولا يطلبون شيئًا سوى الأكل والشرب والتزاوج. جدك جعل من القرية الميتة جنة طالما حلمت بها.

التماعة عين الباشا لحظتها كانت تشبه إما الدموع المحبوسة، أو شَرَه الصياد للحظة سقوط الفريسة..

- كان كل شيء مثاليا، إلى أن اختار جدك مغادرتنا دون أن يترك لي سر الإكسير. قبل مغادرته ترك لي قارورة ممتلئة، لكنها ما كانت تكفي. اخترت من بين عبيدي فيروز ليشرب معي. كان خصيي المقرب، وأكثر خدمي إخلاصًا، فأردته أن يبقى في خدمتي ما بقيت.. لكن ما بالقارورة ما كان ليبقى للأبد.. ولأنني لا أمد جسدي بالمزيد، فقد بدأ يذبل ببطء قاتل في حد ذاته.

لحظتها عاد فيروز يدفع أمامه طاولة الشاي. أوقفها بجوارهما، وتوقف ليسأل منصور بأدب:

- كم قطعة سكر؟

منصور استنتج أن الحديث عن الشاي. هو لم يكن يشربه، ولا يعرف أصلًا كيف يشرب، لكنه أجاب للخلاص من الموقف:

- واحدة.

فيروز أذاب قطعة السكر، ناول الفنجان الأنيق لمنصور، ثم عاد إلى فنجان سيده. منصور كان شاردًا في السائل الداكن في فنجانه، حين قال الباشا:

- الإكسير لم يكن يعيدك شابًا كما يتخيلون في الحواديت.. هو فقط يعطيك قوة وعنفوان شاب صغير، كما يحدث بالتأكيد تغيرات

على شكلك، ولكن ليس بالشكل المتطرف.. وكأنك مثلا صرت أصغر بضعة أعوام.. الإكسير يمنح خلايا الجسم قوى مهولة، وقدرة أعلى على التجدد، ليصبح هلاكها أمرًا عسيرًا.

صمت ليتناول فنجانه من يد فيروز المرتعشة، ثم أكمل:

- تخيل مدى العذاب. أنا وفيروز نحتضر منذ أكثر من ستين عامًا.. أليس كذلك يا فيروز؟

فيروز أجاب وهو يدفع طاولة الشاي مبتعدًا:

- هو كذلك يا سيدي.

منصور تبع بعينيه خطى فيروز البطيئة حتى غادر الحجرة، على وقع كلمات من الباشا تحمل شجنا..

- كنت أتعجب دائما لماذا لم يبق الفراعنة العظماء بيننا، يحكموننا حتى الآن، بفضل هذا الأكسير المذهل. وكان جدك يقول: ربما لأنهم أكثر حكمة منا. الآن وأنا أقاسي هذا العذاب، صرت أفهم ما كن يعنيه جدك منصور لم يبال سوى بالعثور على جواب لفكرة تشاكسه الآن، لذا لم يعلق على كلمات الباشا، وتساءل:

الباشا ابتسم..

- وقتها كانت تجارة العبيد مجرّمة. وحتى تهريبهم لم يكن يسير بشكل جيد، وأغلب الباشوات استبدلوا بعبيدهم الخدم، لكنني ما

كنت أثق بخادم.. العبد أكثر ولاء، كما تسهل السيطرة عليه. وأنا أثق في ولاء فيروز.. فهو مخلص ككلب عجوز.

منصور عاد يشرد في الفنجان المتروك في يده. الباشا كذلك صمت، ربما انتظارًا لمبادرة ما من ضيفه. لحظتها كان منصور يفكر في أنه طالما قرر التصديق، فلمَ لا يطلق العنان لفضوله؟ وكأنما هذا تحديدًا ما كان ينتظره الباشا، فبمجرد أن انتهى منصور من إلقاء سؤاله..

- كيف عشت طوال تلك السنين؟

وكأنما كانت إشارة للباشا ليحل عقال حكاياته..

- سافرت لفترة طويلة. خفت في البدء أن يثير العجوز الذي استعاد شبابه فضول المحيطين. خشيت أن أدخل في صراع مع أشقائي. فيمَ سيفكرون إن رأوني؟ ربما أنكروا أني شقيقهم طمعًا في إرثي.. لذا غادرت قصري.. سافرت مع فيروز لجزيرة في الكاريبي بحجة الاستشفاء بأجوائها.. كنت أتابع إخوتي طوال الوقت بالرسائل والبرقيات. أكثر من عشر سنوات وهم ينتظرون موتي.. ربما كذلك تشككوا في الأمر، ربما تخيلوا أن من يكتب لهم ليس شقيقهم؛ لذا أرسل أكبرهم ابنه لزيارتي بحجة الاطمئنان على صحتي. لم يكن من الصعب أن ألعب دور العجوز الواهن خلال الساعة التي قضاها معي. المهم أنه عاد إلى مصر ليؤكد لهم بقائي على قيد الحياة، وأن كل ما في الأمر أني عجوز معمر.

صمت ليلتقط أنفاسه. بحركة أنيقة ويد ثابتة أخذ رشفة من الشاي..

- عشت في الكاريبي حياة شاب عابث. عشت في الجنة لأكثر من ثلاثين عامًا. كنت أحافظ على نفسي برغم هذا.. فأنا أعلم أن الإكسير لا يحمي من المرض، ولا من موتة مؤلمة في حادث مثلا. مات أشقائي وبقي التواصل مع أبنائهم، الذين أصابهم الضجر لطول انتظار موتي. حتى لحظة خفت فيها أن تصبح عودتي إلى مصر مستحيلة، فكيف سأدخل البلد بأوراق تؤكد حقيقة أني جاوزت المئة بعشرات السنين؟! كان يجب أن أقرر.. إما العودة الآن، أو البقاء في مهجري إلى الأبد. آخر جرعة من الإكسير تناولتها، وبت واثقًا من ظلام الأعوام القادمة. كان يجب أن أعود.. ففي مصر سأعرف كيف أحمي وجودي. عدت إلى القاهرة كعجوز معمر على مقعد متحرك يدفعه فيروز.. الجرائد في اليوم التالي كتبت عن وصول أكبر معمر مصري من الخارج، يبلغ من العمر مئة واثني عشر عامًا.

ارتجافة جسده أكدت لمنصور أنه يقهقه. الباشا انخرط في ضحكة طويلة صامتة، حتى تخيل منصور أنه سيمسك صدره ويسقط ميتًا قريبًا جدًا. لكن الأزمة مرت بسلام، ليعاود العجوز - المشتاق للحكي - حكايته:

- عدت إلى قصري هذا، ولم أغادره مرة أخرى. عشت محميًا برجالي وأهل قريتي.. أغلب عبيدي ماتوا أثناء غيابي، ومن بقي منهم

مات خلال أعوام قليلة من عودتي.. بعد سنوات، كان عليّ أن أبحث عن خطة بديلة.. كنا في بداية خمسينيات القرن الماضي تقريبًا، عندما أطلقت شائعة موتي.. وبمساعدة من رجالي في القرية، دبر فيروز جنازة لي، واستخرج شهادة وفاتي، وبقيت حماية وجودي في القصر مهمة الأساطير التي سكنت عقول الفلاحين عن أشباح القصر.. الأساطير التي دعمناها أحيانًا ببعض المؤثرات المخيفة التي استقبلنا بها كل من حاول زيارة القصر.. سواء من أحفاد إخوتي الطامعين فيه، أو من فضوليي القرية.. وحتى من مغامرين يبحثون عن الإثارة.. حتى إن القصر، تخيل هذا، مسجل في أكثر من موسوعة عالمية تعنى بتوثيق الأماكن المسكونة وتاريخها.

الباشا عاد للضحك. هذه المرة جامله منصور بضحكة قصيرة، دارى بها ضجره من تلك الوقفات المرحة غير المفهومة!

- بعد سنوات من المحاولات المستمرة لتجذير الأسطورة والعناية بها، يئس الناس من القصر.. توقف المغامرون عن الاقتراب، وتوقف ورثتي عن محاولة الحصول عليه، وقد بات عددهم الكبير، على كل حال، عائقًا أمام تحقيق أية استفادة مادية مجزية من هذا الإرث بعد تقسيمه عليهم.. وهكذا عشت ستين عامًا أصارع تلك الشيخوخة البطيئة.. ليس لحياتي سوى هدف واحد.. العثور على جدك.

- جدي مات بعد عودته إلى فرنسا بقليل.

الباشا تنهد حزنًا..

- هذا ما علمته متأخرًا.. لقد كان محظوظًا لأنه لم يعش شيخوخة طويلة مثلي.

ببطء - وبحزن مرسوم على وجهه - تناول رشفة أخرى من الشاي، وكأنها إيماءة جنائزية..

- عشرات السنين وأنا أحاول اقتفاء أثره دون جدوى.. استأجرت المخبرين السريين.. أرسلت فيروز مرة إلى باريس، وقت أن كنا في الكاريبي.. استخدمت سحر اقتفاء الأثر.. وكل هذا بلا جدوى. وكأنما اسم رينار اختفى من الوجود.. حتى استقر بداخلي يقين أن جدك غير اسمه. فلما عثرت عليك، أدركت خطئي.. فاسم رينار لم يزل باقيًا.. إذن هو سحر جدك، ربما، ما أبقاه خفيًا عني طيلة قرن.. وربما زال السحر الآن، أو سحري أنا بات أقوى، فوجدتك.. وبطريقة ما كان بمقدوري أن أتخيلها.

الباشا صمت؛ ربما ليختبر مدى تركيز منصور في حكايته، فكان عليه لكي يجتاز الاختبار بنجاح أن يسأل:

- أية طريقة؟

- ذلك الشيء المدعو إنترنت.. أحد أعواني، من القليلين العالمين بوجودي، وجد اسمك أثناء عملية بحث يائسة على الإنترنت.. وجده كما فهمت على موقع المركز العلمي الذي تعمل به. أعرف أن اسم رينار منتشر في فرنسا، ولكن كم واحدًا منهم يملك اسمًا أولًا عربيًا؟ رجالي أجروا اتصالات بمخبر فرنسي متخصص في شئون كتلك..

بعد شهر عرفت كل شيء عنك، وأرسلت رسالتي لكي أغريك بالحضور.. وفي الباقي كان علي أن أعتمد على ذكائك وشجاعتك ليقوداك إلى هنا.

الباشا فتح ذراعيه بحركة ترحيب مسرحية..

- وها أنت ذا.

- لماذا؟ طالما، كما تقول، لك أعوان بالقرية.. لماذا لم تجعلهم يصحبونني إليك منذ لحظة ملامسة قدمي لتراب القرية؟ وما كنت كبدتني كل هذا العناء.. وكل تلك الألاعيب النفسية..

- وأغامر بأن أكشف للفلاحين حقيقة وجودي؟

- الفلاحون كلهم الآن يعلمون أني صعدت إلى هنا!

- لكنك صعدت كمغامر.. كمبعوث مقدس إلى الأشباح.. أنت صعدت إلى هنا لتدعم الحكاية، لا لتنقضها.

منصور ابتسم؛ واحدة من تلك الابتسامات التي تتسع تدريجًا حتى تتحول سريعًا إلى ضحكة قصيرة..

- إنه العمدة!

الباشا اكتفى بهزة رأس متسائلة، ولم يعلق..

- العمدة هو رجلك في القرية.. بالطبع.. يا لي من غبي! لهذا كان يطيل من فترة بقائي في القرية.. ولهذا بدا لي وكأنما يدفعني دفعًا للصعود إليك.. ولهذا صنع لصعودي غطاءً من حكاياته.

الباشا ابتسم..

- العمـدة حـارس للحكايـة.. وأنـا قلـب الحكايـة، وأحرفها الأولى.

منصور - برغم ما اسـتنتجه - امتعض لاعتراف الباشا السريع؛ هو لـم يفكـر حتى في الإنكار. تصـرف يليق برجل متغطـرس يدرك جيدًا قوته ويتباهى بها.

- والآن.. ها أنا هنا بين يديك.. دعني أفهم ما المطلوب مني.

الباشا رشف قدرًا ضئيلًا من الشاي أولًا..

- اعتبره سؤالًا أكثر منه طلبًا.

- وما هو؟

- دفتـر جـدك.. آخر أمل لي في العثور على وصفة الإكسـير.. أين هو؟

نوعًا ما توقع منصور أن يكون الأمر كله حول هذا الدفتر.

- أنت بنفسك قلت إني لا أعرف شيئًا عن جدي، وقد صدقت..

- ولكنك تعرف شيئًا عن الدفتر بالتأكيد.

الأكيد - هكذا فكر منصور - أن الباشا يعلم بأمر التدوينة، وبالتالي هـو يعلم ما دوِّن بها عن الدفتر، ويعلم أن منصور قرأه. فلا جدوى من المراوغة إذن..

- معلوماتي عن الدفتر عرفتها من هنا.. جدي دوَّن معارفه في دفتر ما.. هذا كل ما أعرفه. أما عن مصير هذا الدفتر فلا علم لي به.

الباشا هز رأسه بلا معنى، دون نطق.

- وما فهمته كذلك أن الدفتر مدوَّن بالهيروغليفية.. فحتى إن وجدته لن تفهمه.

الباشا ابتسم..

- دعني أنا أقلق بخصوص هذه النقطة.. ما أريده منك فقط هو الدفتر.

- صدقني، أنا لا أعرف مكانه، ولم أسمع عنه حتى طيلة حياتي سوى بالأمس.

- ولكنك وريث سيمون الوحيد.

- لا شأن لهذا بأي شيء.. ربما أحرق سيمون الدفتر.. ربما أخفاه.

الباشا احتد..

- مستحيل.. سيمون القوي المعتد بنفسه ما كان ليتنازل بتلك البساطة عن مصدر قوته.. حتى وهو على فراش الموت.. عندما اقتحمنا الفابريكة بعد رحيله، وجدنا رمادًا، وبقايا محترقة للدفتر، رغم هذا لم أصدق يومًا أن سيمون أحرق الدفتر بالفعل.. أنا واثق

أنه مرر علمه إلى حسونة.. ربما ترجم الدفتر إلى الفرنسية.. لا أعلم تحديدًا.. ما أعلمه أني عاشرت سيمون لعشر سنوات، وأنا واثق أن شخصًا في قوته لا يستسلم، ولا يلقي بأسلحته لأي سبب.

- ربما تحليلك له سليم.. لا أستطيع أن أجادلك، فأنا لم أعرفه مثلك.. أنا لم أعرفه أصلًا.. ولكن ما أؤكده لك، وأقسم لك بكل المقدسات، أن الدفتر ليس معي.

الباشا رفع الفنجان يجرع ما فيه دفعة واحدة، قبل أن يضعه جانبًا. لما قارب الدقيقة بقي على صمته يتأمل منصور. كان يفكر - هذا واضح - في الخطوة التالية. في النهاية قال بلهجة هادئة مستسلمة نوعًا:

- حسنًا يا بني.. أنا أصدقك.. وأرجو أن تغفر لي انفعالي.. فقد كنت أظنك أملي الأخير.

منصور لم يتخيل أن الباشا قد يستسلم بهذه السرعة، أراد أن يسأله "أهذا كل ما في الأمر؟!"، لكنه بدل السؤال بعد فترة صمت، ليصبح:

- والآن؟

الباشا ابتسم، وأشار إلى الفنجان في يد منصور..

- اشرب الشاي، وغادر إن شئت.

منصور بدا له الأمر وكأنما ينتهي بسلاسة غير متوقعة، وهذا يزيده ثقة بأن المزيد من التصعيد آت في الطريق. هو لا يستطيع مساعدة الباشا،

هـو لا يعرف شـيئًا عن الدفتر، هـو واثق كذلك أنه لن يستطيع - مهما فعل - إقناع الباشـا بصدقـه، لذا فالتحول في لغـة الخطاب لا يطمئنه، خاصة وهو لا يريد سـوى أن يتفجر الموقف بالمشـاعر الحقيقيـة، فهذا أفضل بكثير من أن يعيش ساعات قلقًا من مجهول ينتظره.

- وأنت.. ماذا ستفعل؟

- مـاذا سـأفعل؟! نفـس مـا كنت أفعله طوال سـتين عامًـا.. أنتظر الموت.

لـم يـزل أداء الباشـا غير قـادر على غـزو مناطق الاقتنـاع في رأس منصور. ربما عليه أن يشعل فتيلًا ما يفجر الموقف..

- هل تعني أنه بإمكاني المغادرة بسـلام؟! أنا لسـت طفلا لأصدق هذا.

- وماذا بيدي أنا، العجوز المتهالك، لأفعله؟!

منصـور انتبـه إلى تحـول قلقه لحالـة عصبية، حيـن لاحظ تصاعد الحدة في نبراته..

- ومـاذا عـن العمـدة؟ ورجالـه؟ واللـه يعلـم مـن أيضًـا يعمـل لصالحـك.. ربما ذلـك القاتل الطليق في البلدة.. ربما حتى الشـرطي الذي أصدر أمرًا، لا أفهم جدواه، بمنعي من مغادرة القرية.

- وهل أبدو لك بهذه القوة؟

منصور أظهر قدرًا من التهكم في ضحكة موجزة..

- بالطبع.. أنت بلا قلب كذلك.. من يجرؤ على إبادة قرية كاملة من باب الاحتياط، هو شخص لا أوليه ظهري، أو آمن جانبه.

الباشا صمت طويلًا؛ أطرق ببصره إلى الأرض حتى تدلى رأسه على صدره. لثانية ظنه منصور نائمًا، أو ربما ميتًا؛ وحين عاد ليرفع رأسه، كانت يده تنسل ببطء نحو جيب الروب، ثم تخرج حاملة مسدسًا صغيرًا. منصور توتر بلا شك؛ انفلت توتره في صيحة قصيرة..

- ما هذا؟

لكن الباشا طمأنه بابتسامة، وهو يضع المسدس فوق الطاولة القصيرة بينهما..

- هذا دليل كذب ظنك.. أنا أضعف بكثير مما تعتقد.. هذا المسدس أحمله في جيبي طوال عقود بهدف قتل نفسي والخلاص من عذاب الاحتضار البطيء.. قد تبدو خطة بديلة مناسبة في حال فشلي في إيجاد الدفتر.. رغم هذا حاولت كثيرًا من قبل.. آلاف المرات ربما.. أوجه المسدس إلى رأسي، حيث يتعلق خلاصي بضغطة واحدة.. لكنني لست قويًا كفاية لأفعلها.

يرفع يده، يمسح دمعة لم تزل تعبر حدود العين..

- والآن، كما ترى.. في هذا المسدس خلاصنا معًا.. إن كنت ترى أني أشكل تهديدًا لك، فلماذا لا تفعلها؟

- أفعل ماذا؟!

- تقتلني.. هكذا ببساطة.. لا جريمة في الأمر.. أنت تقتل رجلًا ميتًا منذ زمن.

- هذا جنون!

منصور قالها ونهض..

- سترتكب خطيئة كبيرة إن غادرت وتركتني حيًا.

منصور كان منفعلًا؛ غاضبًا لدرجة اعتبار القتل فكرة مناسبة.

- الموت قد يريحك.. وأنت لا تستحق تلك الراحة.

الباشا ضحك بصوتٍ عالٍ هذه المرة..

- لماذا تكرهني هكذا؟

منصور ذاته كان يتساءل عن سبب كل هذا البغض. لماذا أسقط عن نفسه أردية الدبلوماسية وجاهر بالكراهية بتلك الطريقة؟

- إنه أنت.. أنت سيمون.. بشكل ما أنت تحمل جزءًا من إرثه الروحي.. ربما لهذا أتيت إلى القرية.. ربما أنت لم تأتِ.. أنت في الحقيقة رجعت.

- أرجوك.. لا تحدثني بهذا الهراء.

- حسنًا يا سيمون..

الباشا قالها وضحك معجبًا بمزحته..

- أنـت لم تفهم قصدي.. أنا بالفعل، كمـا قلت أنت، لن أتركك.. ربمـا لم تزل فـي جعبتي بعض الألاعيب. وطالما أنـت هنا، فأنت في قبضتـي.. صدقنـي لا مهـرب لك مني سـوى بمـوت أحدنـا.. وها أنا أمنحك فرصتك الوحيدة.

منصور وجد بصره مأخوذًا نحو المسـدس. وجد نفسـه يفكر فيما ظـن أنـه يرفضه في البدء. هل يفعلها؟ في هـذه اللحظة لم يدر منصور إن كان يهرب من الباشا، أم يهرب من نفسـه، لكنه قال:

- افعل ما شئت.. أنا لست مجرمًا مثلك.

ثم غادر الحجرة.

بـاب القصر كان مفتوحًا. على عتبته يقف فيروز وكأنما ينتظره. لثانية توقف منصور متوجسًا، يتساءل إن كان فيروز سيحاول منعه من المغادرة، قبل أن ينفض عن رأسـه تلك السـخافات الطارئة؛ فماذا بيد هذا العجوز المسكين أن يفعل؟ تقدم منصور مجتازًا الباب، متجاهلًا الجسد الأسمر المتهالك. فيروز قبض على معصمه ليوقفه قبل إتمام الخروج..

- تمهل.. دعني أصحبك إلى الباب الخارجي.

منصور لم يفكر لحظتها سـوى في احتمـالات قوية لكونها مناورة جديدة من الباشـا، لكن شـيئًا في عين فيروز - شيئًا من الصدق ربما - جعلـه يذعن. تأبط فيروز ذراعه، عاونـه منصور على هبوط الدرجات الاثنتي عشرة، ببطء عبرا أمام أنظار آلهة الأوليمب، دارا حول النافورة،

لم ينطق أي منهما حتى بلغا الباب الخارجي. منصور لم يصدق أن ينتهي الأمر على هذا الصمت، لذا توقف ناظرًا إلى عيني رفيقه، منتظرًا أن تفصحا عما بداخله.

- كيف حال العالم؟

منصور لم يدر كيف يجيب سؤالًا كهذا..

- جيد!

فيروز ابتسم فيما يشبه الحرج..

- كل ما في الأمر أني أفتقده. منذ سنوات لا أعرف عددها لم أخطُ خارج هذا السور.

- لماذا تربط مصيرك به؟ لماذا اخترت البقاء معه؟

- اخترت؟!!

فيروز أعقب سؤاله الاستهجاني بضحكة عالية لمزيد من التأكيد على سخافة التساؤل.

- العبيد لا يختارون.

- ربما في البدء.. لكن بعد كل هذا العمر.. كيف لم تتح لك ولو فرصة واحدة للرحيل؟

الابتسامة المتجمدة على وجه فيروز سرعان ما تحولت إلى ما يشبه الحزن..

- مئات الفرص أتيحت لي.. لكنني ببساطة لا أعرف غيره.. ولا أعرف مكانًا غير هذا القصر.. أنا من عالم قديم جدًا.. لا أظن أني سأحتمل الحياة خارج هذا السور لأكثر من ساعات.

- ولكن ما خلف هذا السور، أيًا كان، هو الحياة.. أما ما تقاسيه هنا فهو أكثر من الموت.

فيروز تنهد..

- ربما لطول الأعوام صرت أحبه.. ربما ما يربطني به عاطفة لا أريد الاعتراف بها.. لا شيء يهم.. لقد اقتربت النهاية على أي حال.. فقط أريدك أن تتذكرني، فلا أحد باق لي ليذكرني.

منصور هو من ابتسم هذه المرة..

- لا أظن أن أيًا مما عشته هنا يمكن أن ينسى.

فيروز هز رأسه متفهمًا..

- فقط حين تتذكرني، لا تتذكر فيروز عبد الباشا.. حاول أن تنسى ذاك الاسم السخيف الذي يطلقه علي. بل تذكر "لاما" الابن الأصغر لزعيم قبيلة الزاندي.

منصور ربت كتف فيروز متعاطفًا..

- سأفعل.

بعدها، تردد لفترة، يقاوم جسده المشدود باتجاه القرية الساكنة أسفلهما. لا يعرف إن كان عليه أن يمضي الآن، أم أن الحوار لم يزل

له امتدادات. كاد أن ينتصر لاندفاعة جسـده حين استدار قاطعًا نصف الخطوة الأولى نحو الهبوط، لكن فيروز تكلم من جديد..

- إن لم تستطع سـوى أن تتذكر فيروز عبد الباشا.. فكل ما أرجوه منك لحظتها هو أن تسامحني.

- أسامحك على أي شيء؟!

فيروز تجاهل السـؤال. من جيبه أخرج ورقة صفراء صغيرة، دسها في يد منصور. من ملمسـها أدرك منصور أنها صـورة. تأملها؛ صورة بالغة القدم هي، ربما توافق زمن اختراع التصوير!

- من هؤلاء؟

كان يتساءل عن الأشـخاص الباديـن في الصورة، رغـم أنه يتوقع الإجابات..

- هذا جدك الأكبر.. مسيو رينار.. سيمون رينار.

فيروز كان يشـير إلـى ذلك العجـوز الذي يرتـدي بنطالًا واسـعًا، وقميصًـا قصيـر الأكمام. إصبعه السـمراء المرتعشـة، تحركت ليشـير إلى الرجـل الواقـف بجوار الجـد، عجوز آخـر، يرتدي حلـة فخمة، وطربوشًا، متكئًا على عصاه..

- وهذا سيدي نعمان باشا.

أمامهما يقف ذاك الطفل، مرتديًا جلبابًا ريفيًا..

- وهذا جدك حسونة.

الثلاثة يقفون أمام باب الفابريكة، لتبدو خلفهم اللافتة (فابريكة الخواجة رينار وولده حسونة)..

- الباشا أراد أن يكرم الخواجة، فصنع له هذه اللافتة، ووضعها على الفابريك، لتحمل اسمه ما بقيت.

منصور كادت عيناه أن تدمعا تأثرًا وهو يتأمل الصورة. كانت المرة الأولى التي يرى فيها جده سيمون..

- هذه الصورة هي الشيء الوحيد الذي امتلكته طيلة حياتي.. هي إرثي الوحيد.. والآن صارت لك.

- لي؟

فيروز هز رأسه..

- أنت أحق بها مني.. فلك بها اثنان من جدودك.. أما أنا فليس لي بها سوى ظل.

قالها وأشار إلى نقطة في الصورة، عند حدها السفلي، على الأرض الترابية، ظهر ظلان..

- هذا ظل الكاميرا والمصور.. فقد كان واقفا في اتجاه الشمس ليلتقط الصورة.. وهذا ظلي.. كنت واقفًا بجواره، أنتظر أن ينتهي لأحمل مظلة الباشا فوق رأسه.

منصور ابتسم. أشفق على العجوز لحظتها..

- اهبط معي إلى القرية.

فيروز شرد بصره نحو القرية البعيدة، لم يرد، ولم يبد على وجهه شبح رد. في النهاية استدار مبتدئًا رحلة عودته المتعبة إلى القصر..

- مع السلامة يا مسيو رينار.

خطواته بدت لمنصور أسرع من المعتاد، وكأنما يهرب منه، أو ربما يهرب من رغبة تحرقه للبوح بما لا يجب أن يبوح به.

***

منصور تمهل في رحلة الهبوط. ربما لأنه كان بحاجة لفرصة كتلك لتدبر أمره. ربما كان يتحاشى قدر الإمكان اللحظة المحتومة للقاء مع الناس، والعمدة تحديدًا. ربما طاب له جو التلة في وقت العصاري؛ رغم تصحر معظمها، إلا أن المرتفع لم يزل يجذب تيارات هوائية لطيفة في هذا الجو الحار. أثناء اقترابه من القرية، كان يرى المقابر في شرف استقباله، بينها صبية يلعبون، أحدهم لمحه فأطلق صيحة..

- الله أكبر.

ثم تبعه رفاقه، قبل أن ينطلقوا جميعًا باتجاه القرية مواصلين بلا انقطاع هتافهم. منصور أدرك أنه مقبل على سيرك جديد، فغير مساره متوجهًا بخطوات سريعة نحو حزام للأشجار بدا له من بعيد. سرعان ما

وجد نفسه على شاطئ الترعة. هنا أشجار ضخمة تصلح للاختباء. لن يتردد؛ حتى إن اضطر لتسلق أحدها، طالما ستوفر له العزلة المرجوة.

منصور الآن لم يعد يتحرك وسط بحر من الظنون غير المثبتة كما كان. الظنون صارت يقينًا، وبات واثقًا من كون العمدة عدوًا. ثقته في صخر اهتزت، وباتت أمامه حقيقة جلية: لا أحد في هذا المكان الملعون جدير بثقته. عليه أن يحذر الجميع، عليه أن يخشى الجميع، وحتى انعكاسه في المرآة، طالما تنتمي المرآة لقريتنا! يقين جديد تشكل في هذه اللحظة - وهو يستند إلى جذع شجرة ضخم، متأملا ماء الترعة - ألا بقاء له في تلك القرية أكثر من هذا. ربما التصرف الأكثر حكمة - كما فكر - هو أن يغادر لتوه؛ ليترك حقائبه ومتعلقاته في دار العمدة كتذكار يخلد اسمه في القرية. بالتأكيد العمدة سيجد حكاية ينسجها حول هذه المقتنيات. قد يحكي أن منصور صعد إلى السماء، أو حملته الريح إلى مكان بعيد، أو حتى التهمته الأشباح فصار منهم. ربما أصبح الكمبيوتر الذي تركه في دار العمدة مصدرًا للبركة، يشفي الأمراض، ويبارك الرزق، ويداوي العقم! منصور لا يبالي بما سيُحكى بعده، طالما سيتخذ أخيرًا قرارًا سديدًا؛ فمنذ أن جاء إلى قريتنا - هكذا يعتقد - وكل قراراته مائعة وغير مسئولة. عليه فقط أن يعثر على طريق السفر. ليست مهمة عسيرة، بقليل من التركيز يستطيع أن يجد الجسر الذي عبره عند مدخل القرية. الجسر سيعيده إلى الطريق، وهناك سيجد بالتأكيد من يقله إلى أقرب مدينة، ومنها

يعود إلى القاهرة، ثم إلى باريس، ثم إلى أوديلو، وربما إلى أحضان آنيت كذلك.

- ماذا وجدت بأعلى؟

السؤال المباغت حرمه متعة الشرود. صخر كان خلفه..

- Comment tu m'as trouvé?

- ماذا؟

منصور أشاح بيده بمعنى "لا عليك"، ولم يرد.

- سألتك، ماذا وجدت بأعلى؟

منصور لم يفهم لماذا -بمجرد أن رأى صخر- اختفى السخط الذي كان يصبه على رأسه منذ دقائق! هناك شعور صادق يربطه بهذا الفتى؛ هو لا يستطيع إنكار هذا. لكنه كذلك لم يحب أن يتخلى عن حذره بهذه السرعة..

- لا شيء.. مجرد خرائب.

- مستحيل.

كلمة صخر حملت معنى الرفض، لا معنى الدهشة. وكأنما يخبر حقيقة مؤكدة أن منصور كاذب. أيكون هذا مؤشرًا على علمه بما يدور في القصر، وبالتالي يكون لمنصور الحق في الاشتباه به؟

- لماذا؟ هل توقعت أن أجد الأشباح؟

- كلا بالطبع.. إنها مجرد حكاية أخرى من حكايات العمدة.

- ماذا كنت تتوقع إذن؟

صخر أبعد نظراته باتجاه اللا شيء. على وجهه خيبة أمل لا يمكن -كما قدر منصور- سوى أن تكون حقيقية..

- أتعرف حكاية صخر؟

- تقصد صخر الأصلي؟

الشاب ابتسم وهز رأسه، فأجابه منصور:

- نعم أعرفها.. حكاها لي شحتة.. هي مجرد أسطورة.

- بالفعل.. لكن لا أسطورة بدون أصل. العمدة لا يخلق الحكايات من عدم.. ما اعتقدته طوال حياتي أنه كان ثمة صبي صغير، واحد منا نحن الأولاد المقدسين، تحرك ذات يوم وراء فضوله فصعد إلى القصر. هناك رأى ما لم يكن يجب أن يراه، لذلك لم يعد.. ربما قتلوه، أو حبسوه.. المهم أنهم حولوه مثل كل حادث إلى أسطورة تخدم سلطتهم.

صخر استدار ناظرًا باتجاه القصر البادي بالكاد من فجوات في سياج الأشجار الذي يداريهما.

- هناك شيء ما بأعلى.. أنا واثق من هذا، لدرجة أني لا أصدقك.

منصور لحظتها كان عليه أن يسلم بصدق الفتى. يستحيل أن يكون كاذبًا، يستحيل أن يكون متواطئًا، بالتأكيد هناك نقطة ما مضيئة في هذا

المكان المظلم، وهذه النقطة - أو علـى الأقل هذا ما يتمناه منصور - هم الأولاد المقدسون.

- لماذا إذن لم تصعد لترى بنفسك خلال كل تلك الأعوام؟

صخر أعاد نظراته إلى وجه محدثه..

- لا أعـرف.. ربمـا لأنـي لـم أسـع فـي حياتـي سـوى إلـى حلم الخلاص.. وأنا ما اعتقدت أن الخلاص يسكن شيئًا غير الماكينة.

منصور قال بعد قدر من الصمت..

- ألـم يحن الوقت لتحدثني عـن مفهومك للخلاص؟ إذا افترضنا أن الماكينـة بالفعـل حولـت البهائـم إلى بشـر، فكيف يكـون في هذا خلاصكم؟

صخر بدا مترددًا. ربما هو لم يضع بعد كامل الثقة في منصور. ربما لا يثق في الظـروف المحيطة. وربمـا هو فقط مطبوع علـى الكتمان. المهـم أنه بقـي لفترة يجاهد النفس بيـن الإخفاء والبوح. فـي النهاية، كان الانتصار للبوح..

- إذا علمنا كيف تعمل الماكينة.. فربما نقدر أن نعكسها.

- ماذا تقصد بـ "نعكسـها"؟!

- أي نجعلها تحول البشر إلى حيوانات.

منصور لم يصدق أن صخر بالفعل يفكر في شيء كهذا..

- تقصد أن خلاصكم في تحويل الناس إلى بهائم مرة أخرى؟!

صخر جلس على الأرض الطينية، ضم ركبتيه إلى صدره فبدا كطفل خائف، طفل عاجز، لحظة انهيار، ما عاد فيها ذلك الشاب الموفور قوة حاضرًا، وإنما آخر نحيل، زائغ العينين، مشتت العقل، ينظر نحو ماء الترعة بعينين على وشك البكاء..

- هو حلم قديم.. منذ أن اكتشفت تلك الحجرة السرية.. منذ أن أدركت نقطة التحول المنسية في تاريخ القرية.. حلم بأن يعود كل شيء لما كان عليه.. هم بهائم منحوا ميزة الإنسانية فلم يقدروا قيمتها.. فلماذا يستحقونها؟

منصور يرى بيقين عينيه حال الشاب الممزق، وكأنما تقرحات روحه طفت في لحظة صراحة على السطح، لترسم على جسده تصدعات لوحة متهرئة. لكن منصور لم يكن راغبًا في التلطف معه، كان راغبًا في التعبير بكل وضوح عن سخطه من سخافة ما يسمعه..

- Et c'est Quelle follie?! كيف يكون في هذا خلاصكم؟!

بعناد طفل أجاب صخر:

- سنكون نحن أسياد القرية.. وسينالون هم ما يستحقونه!

- أتعرف؟ هذه أسخف خطة سمعتها في حياتي.

صخر لم يحاول مداراة غضبه وهو يصرخ..

- هذه خطتي.. ولا أعرف غيرها.. أنا أطلب منك مساعدتي على تنفيذها.. عدم رغبتك في المساعدة لا يعطيك الحق لتسخر مني.

منصور أشفق على صخر؛ هذا الفتى يملك الكثير من الغضب. الكثير من الطاقة السوداء تغلي بأعماقه. الكثير، مما لا يعرف كيف يصرفه. منصور ظنه في البدء ذكيًا، وعامله من هذا المنطلق، لكنه لم يتخيل أنه في الحقيقة يائس إلى هذا الحد. هذا الفتى لم يزل طفلا بقدر أكبر مما يبدو عليه!

- هذه ليست سخرية.. هذه نصيحة.. إن كنت لا تجد سبيلا للخلاص سوى هذه الخطة الطفولية.. فلماذا تحاول الخلاص؟! ارحل يا صخر.. غادر أنت والأولاد القرية.. اتركوها لهم.. وضعوا حدًا لتلك اللعبة السخيفة.

صخر هز رأسه بالرفض، نهض واقفًا وقد استعاد هيئة الشاب القوي، المفعم حماسة وإصرارًا. وإن كان منصور بات واثقًا الآن أن كل هذا ليس أكثر من غلاف واهٍ.

- لا مجال للنصح في هذه المرحلة.. ما أريده منك هو كلمة أخيرة.. هل ستساعدني أم لا؟

منصور تنهد. ربما عليه أن يحمل الحوار إلى اتجاه آخر..

- المسألة ليست متعلقة فقط برغبتي.. بل بقدرتي. ما دوّنه جدي على الجدران يساوي لا شيء.. أنا أستطيع أن أجعل الماكينة تعمل..

ولكـن لا أعرف مـاذا بعد.. هناك شـيء ناقص.. شـيء لا أعرفه، ولم يدوّنـه جدي على الجـدار.. ربما كان في دفتره الخـاص.. ولكن هذا الدفتر ليس بحوزتي.

- هل قرأت كل التدوينات؟

- باقٍ لي جزء صغير.

- ربما كان ما تحتاجه مدوَّنًا في هذا الجزء.

- لا أظن.. المدوَّن ليـس أكثر من حكايات.

- دعنا نحاول على الأقل.

- حسـنًا دعنا نحاول.. وبفرض أننا سـنصل لفهم كامل للماكينة.. وسـتمكن بالفعـل من عكـس عملية التحويـل الغامضة تلـك التي لا نفهمهـا.. كيـف سـيمكننا أن نجعل سـاكني قريـة كاملـة يدخلون إلى الماكينة ليتحولوا إلى بهائم؟!!

- سـنجد طريقـة.. الأمـر ليـس صعبًـا.. حكايـة واحـدة يمكن أن تقودهم.. هم قطيع في النهاية برغم سيرهم على قدمين.

صخـر لا يفهم، ومنصـور لا يبغي في هذه اللحظـة وضع الحقائق أمامـه، فهو إن كان منذ لحظات يعتريه شـك في نوايا صخر، فهو الآن يعتريه شـك فـي قواه العقلية! وفي الحالتيـن لا تبدو خطوة حكيمة أن يواجهـه بما صار يعلمـه. منصور فضل الاحتفاظ بمـا يملكه من يقين

باستحالة مـا يطلبه صخـر، لكن الغريـب أنه فكر لحظتهـا أن ربما لن يخيبه إن حاول. حتـى وإن كانت محاولة في سـبيل فضوله العلمي. منصور لم يزل يضع أمام عينيه رغبته في الفرار من القرية بكل ما فيها؛ لكن في عيني صخر ما يعجزه عن رفض مساعدته. في الأيام الماضية، تخلى منصور عن أوهامه القديمة، عن الرسـالة والمهمة القدرية التي تسـعى إليـه. لكنـه أمام صخر يسـتعيد جـزءًا -ولـو ضئيـلًا- من هذا الإيمـان. ربما هو ضعيف، سـلبي، وربما بالفعل يمشـي وفقًا للمقدر له، وربما كان مقدرًا له أن يتبع هذا الشـاب. أو ربما فقط كان يسـتغله، ويستغل جنون أحلامه، لإشـباع روحه التي باتت ـ رغمًـا عنه ـ تتوق لنهاية الحكاية.

- أنا لن أرجع إلى دار العمدة.

- لا ترجع.. تعالَ معي إلى الفابريكة.

- كيف؟ أنا واثق أن القرية كلها الآن خارجة لاستقبالي.. والعمدة لن يتخلف عن هذا الجمع بالتأكيد.

- الليل اقترب.. يمكننا أن نبقى مختبئين هنا، وفي الظلام سأعرف كيف آخذك إلى الفابريكة دون أن يرانا أحد.

***

منصـور كان بإمكانه أن يسـمع الهمس الدائر فـي الطرقات. هناك حالة توتر، أمكنه ملاحظتها من مخابئـه المتتالية. الناس يبحثون عنه.

الدهشة تأكل أركان القرية لغيابه المفاجئ. هذه هي النتيجة التي توصل إليها منصور. ربما كان ما يعتقده صحيحًا، وربما هو فقط يلوي عنق الشواهد ليدعم استنتاجه الناتج عن تخيل مسبق في رأسه. فلوهلة، وهما يغادران مخبأهما بين الأشجار، ظن منصور أنه سيجد كل خفراء القرية في طريقه، يمشطون الشوارع بحثًا عنه. لكن هذا لم يحدث، وربما أحبط هذا استمتاعه الخفي بكونه مركز الأحداث، والشخصية الرئيسية في الحكايات، فالواضح - وهو ما يخشى الاعتراف به - أن غيابه لم يترك في القرية ذلك الأثر الكارثي الذي توقعه.

تسللهما كان سلسًا نسبيًا، عبر حارات ضيقة مظلمة، وجدران خشنة تسلقاها إلى أسطح الدور الواطئة، وعبور واثب من سطح إلى آخر، ثم إلى الأرض الترابية، ثم تكرار ذات الحلقة في مسارات أخرى. مثل الأبطال الخارقين، مثل لصوص الحكايات الخيالية، مثل النينجا في الأفلام اليابانية، هكذا شعر منصور في مغامرته الليلية تلك. صخر كان بارعًا بحق، خبيرًا في ليل القرية ومخابئها، حتى إنهما قطعا مسافة كبيرة غير مرئيين. آخر وثبة هبطت بهما على أرض زقاق بالغ الضيق. منصور لم يتعرفه سوى بعد قول صخر المقتضب..

- وصلنا.

لحظتها أدرك منصور أنه الزقاق الملاصق للفابريكة. صخر أطلق صفيرًا طويلًا من فمه. بعد ثوانٍ كان الوعاء الصدئ يتدلى أمامهما من النافذة العالية..

- بعدك.

قالها صخر وتراجع خطوة مبتعدًا عن الوعاء. منصور الذي - نوعًا ما - بات خبيرًا بركوب هذا المصعد المرتجل، تقدم ليصعد أولًا. بعد دقائق كان يعاون بدوره الأولاد على إدخال صخر عبر النافذة.

- ما الأخبار؟

صخر تساءل بمجرد أن لمست قدمه الأرض، فكانت سحاب هي من أجابه..

- القرية كلها تقريبًا خرجت باتجاه المقابر، ثم عادوا وهم يتحدثون عن اختفاء الخواجة.. هناك بعض الأقاويل ترددت.. منها أنه خاوَى الأشباح.. ومنها أنه غادر القرية سرًّا.

- والعمدة؟

- لا خبر عنه.. عاد إلى داره مع خفرائه.. ولكن لم يتحرك منهم أحد.. ولم يخرجوا للبحث عن الخواجة.

منصور عند هذه النقطة فقط فهم أنه المقصود بالـ "خواجة"! اللقب كان غير معتاد لأذنيه، فلم يناده به أحد قبل الآن. !

- اسمي منصور بالمناسبة.

سحاب أجابته متعمدة إغاظته..

- حسنًا يا خواجة منصور.

صخر سحب منصور من ذراعه..

- لا وقت للعب العيال.

هبطا إلى الحجرة السرية. صخر أشعل شمعة وهو يقول:

- والآن.. أين الجزء الناقص؟

منصور ما كان ليتكئ على ضوء الشمعة الشاحب، أضاء كشاف هاتفه وهو يمسح الجدران بحثًا..

- ها هو..

ثم بدأ يقرأ:

طوال عشرة أعوام، لم أبخل على الباشا بشيء من تعاويذ وصلوات الكهنة الملونة في دفتري.. صلوات تنزل المطر.. وصلوات تضاعف الزرع.. تعاويذ لحمايته وحماية أمواله. حتى أهم أسراري، والذي ما ظننت أنني سأشاركه أحدًا أبدًا.. بعد أعوام لي في قصره، وبعد وعكة صحية شديدة ألمت به وكادت تودي بحياته، أهديته ما زاد جنونه اشتعالا.. إكسير الشباب.. العقار الذي احتفظت به لنفسي طوال سنوات وسنوات.. لكن سخاء نعمان باشا معي هو ما دفعني لذلك الفعل، الذي أدرك الآن حجم حماقته.

في المقابل، كنت أستغل الماكينة لتجارب جديدة.. تعاويذ في دفتري كانت تحتاج لطاقة البرق، لم أكن جربتها من قبل لعدم

توفر الإمكانيات.. الآن بات بمقدوري تجربتها بفضل أموال الباشا، فكان يجب أن أحفظ له الجميل. والأهم، أنني كان يجب أن أحافظ لنفسي على حياته، كي لا أفقد بموته مصدر تمويلي. الباشا لم يكن له ولد، وإنما عدد من الأشقاء المتلهفين لموته، والذين قد يركلون مؤخرتي حتى فرنسا بعد دقائق من وفاته. لكن تصرفات الباشا بعد تناول الإكسير تبدلت؛ بدأ يحدثني عن تفاصيل التعاويذ والوصفات، وفاتحني مرة صراحة أنه يتمنى أن أعلمه بعض أسراري، وهو ما كان من المستحيل أن أقبله. رفضي في البدء أخذ شكل المراوغة، قبل أن يجبرني إلحاحه على الرفض الحاسم الصريح.. لم يُبدِ رد فعل.. ولكن ذات ليلة، عدت إلى حجرتي فلاحظت بضع قطع الأثاث ليست في مكانها الصحيح، فأدركت أن هناك من فتش الحجرة في غيابي، فهمت أنه يحاول العثور على الدفتر. في الصباح، أخذت حسونة وذهبنا لنقيم في الفابريكة. أغضب هذا الباشا، لدرجة أنه جاءني بنفسه، وكانت من المرات النادرة التي يهبط فيها إلى القرية. تواجهنا أمام الماكينة.. طلب مني صراحة أن أمنحه وصفة الإكسير بإرادتي، أو يأخذ مني الدفتر ملوثًا بدمي أنا وحسونة.. ماطلته مدركًا قوة موقفي؛ فحتى إن أخذ الدفتر، فسيبقى في حاجة لوجودي لفك طلاسم الهيروغليفية المكتوب بها، وكنت تعمدت طوال أشهر مضت أن أخفي عليه أني صنعت من الدفتر نسخة مترجمة إلى الفرنسية ليتعلم حسونة منها. الباشا حاول العودة إلى المداهنة، فأخبرته أنني سأغادر القرية مع حسونة في الصباح، وفوق الجسر - ضمانًا لسلامتي -

سأمنحه ترجمة لوصفة الإكسير؛ فوافق، مع ترك بعض من جيله لحراسة الفابريكة طوال الليل، حتى لا أهرب.. بت الآن أشعر أن كل شيء شيلته قد انهار...

منصور توقف عن القراءة..

- لماذا توقفت؟

- لقد قرأت الجزء الباقي.. لا شيء فيه سوى حديث عن عزمه الهرب.

- فقط؟

- على الأقل استفدنا معلومة هامة.. ما نحتاجه لجعل الماكينة تعمل موجود بالفعل في الدفتر، والذي توجد منه نسخة فرنسية.. وهو أمر في صالحنا.

صخر بحماس سأل:

- وأين هذا الدفتر؟

- لا علم لي!

- كيف؟! جدك أخذه معه عندما هرب.. ربما ورثه لأبنائه.. ألم يقل إنه كان يعلم حسونة التعاويذ؟

منصور جلس غير مبال بالتراب. عليه أن يعصر ذاكرته؛ أيكون رأى الدفتر في طفولته، ربما رآه في مكتبة والده، ربما رأى والده

يطالعه ذات يوم، فسأله: "ما هذا يا أبي؟"، فربت أبوه رأسه، وابتسم قائلًا: "ستعرف حين تكبَر"!

ربما ترك له والده أدلة مخفية تبلغه مخبأ الدفتر، أو أي شيء من هذه الأشياء التي تحدث في السينما! منصور زفر غضبه؛ لو كان فيلمًا، فهذه هي اللحظة المناسبة للتذكر؛ ولكنه لا يتذكر شيئًا. ليس في رأسه أي صورة عن دفتر، أو أدلة مخفية، أو كنز تتوارثه العائلة سرًّا.

- الحقيقة أني لم أكن يومًا ضعيف الذاكرة.. بالعكس.. أنا أتذكر تفاصيل عدة من طفولتي.. لذلك لا يعتريني أي شك حين أقول إنني لم أسمع أبدًا عن هذا الدفتر غير هنا.

ربما نبرة يأس في صوت منصور هي ما دفعت صخر للإشفاق عليه. ربت كتفه وهو يقول:

- قم لترتاح قليلًا.. لقد كان يومك مجهدًا.

مستسلمًا نهض منصور متبعًا صخر. غادرا الحجرة السرية. في رأسه كثير من التساؤلات، أطلقها وهما يصعدان السلم إلى الطابق الثاني..

- والآن.. ماذا ستفعل بشأن مخططاتك؟

- سننتقل إلى الخطة البديلة.

- وما هي الخطة البديلة؟

بلغا الطابق الثاني. مرا بجوار تجمع الأولاد. تعلقت بهما الأعين منتظرة تصريحًا ما. أشار إليهم صخر بأن يبقوا في أماكنهم، وواصل حتى بلغ موضع النافذة. جلس تحتها، فتبعه منصور..

- كما قلت أنت.. سنغادر القرية.. أرض الله واسعة.

- بهذه البساطة؟!

- لا يوجد حل آخر.

نبرة الحزن في صوت صخر لم تقنع منصور بالتعاطف معه؛ فهو يرى أن الخطة البديلة في الحقيقة أكثر منطقية من الخطة الأصلية..

- لا تحزن هكذا.. الرحيل هو الحل الحكيم.. أنا حتى لا أفهم لماذا لم ترحلوا من البداية؟ لماذا تلك التوهمات عن الخلاص، وسيادة القرية؟ أنت بنفسك قلت إنه من الطبيعي أن يرحل الأولاد المقدسون عند بلوغهم سن الشباب.

- الرحيل استسلام.. أما السيادة فهي الانتصار.. أتفهم هذا؟ الانتصار هو الخلاص. أن نحكم هذه الأرض.. لا أن نهرب منها.. نحن لسنا مثل من سبقونا.

صخر بعدها قرب وجهه من وجه منصور، وقال همسًا:

- دعني أخبرك سرًا.. أنا بالفعل ابن مريم الملاك ذات المئة ثدي.

بنفس الهمس أجابه منصور:

- مريم حكاية يا صخر.. وأنت لا تؤمن بحكايات القرية.

صخر بدا من اتساع عينيه وكأنما صدم بكلمات منصور..

- مريم ذات المئة ثدي هي ذاتها مريم زوجة حكيم.

منصور لم يبذل جهدًا ليتذكر الأسماء، فقد قفزت الأحداث في رأسه دفعة واحدة..

- مريم؟! القتيلة؟!

- بلى.. مريم هي أمي الحقيقية.

- كنت أظن أنكم لا تعرفون أمهاتكم!

- هو كذلك.. ولهذا أنا مميز.

منصور تجاهل لمعانًا في عيني صخر، يشبه لمعان الغرور..

- ولكن كيف عرفت؟

- شمس حكت لي.. مريم كانت تزورنا هنا لترضعني.. كانت تخترق القوانين والمحرمات لأجلي.. كانت تحضر الطعام والحكايات للأولاد.. هي من أسمتني باسم صخر.. بعدها تزوجت، وأنجبت ابنًا آخر اسمه صخر أيضًا.. استبدلتني كقطعة ملابس بطلت صيحتها.. ما فعلته غيّر شيئًا بنفس شمس، لهذا ربتنا على الغضب وعلى الكراهية.. ربتنا لنعتز بأصلٍ متعالٍ عن باقي الخلق.. فنحن أبناء مريم الملاك.

صخر - لحظة أن صمت - كان قادرًا على قراءة التساؤلات المندهشة في عيني منصور، لذلك تابع:

- أعلم أن مريم الملاك مجرد أسطورة أخرى.. أسطورة أعرف أصلها، وأعرف مخترعها.. لكنني أحتاجها.. ولشدة ما أحتاجها أصدقها أحيانًا.

منصور لم يجد بدًّا من الإفصاح عما يدور بذهنه..

- حسنًا.. ما أراه الآن هو أنك تجر الأولاد وراءك نحو حلم مجنون، من أجل ثأر شخصي.

- شخصي؟! ما عانيته أنا ما هو إلا ملخص لمعاناتهم.. بل وقد لا يساوي شيئًا أمام ما يعانونه هم في هذا المكان.

- ولكنك تحمل فوق ألمهم ألم النبذ.. وهذا هو ما يحركك.. لا رغبة الخلاص.

صخر تحرك بشكل مفاجئ، مغيرًا وضعية جلوسه لترتفع قامته فوق قامة منصور، وكأنما يتأهب للانقضاض. كان غاضبًا، ولم يبالِ بعلو صوته..

- هل تريد أن تلعب معي ألاعيب نفسية أيها الخواجة المدلل؟ ماذا تعرف أنت عما نعانيه؟ بل ما هي خبراتك مع المعاناة أصلًا؟

في هذه اللحظة، انزرع جسد سحاب بينهما. أمسكت رأس صخر..

- اهدأ.. لا تفقد أعصابك.. أنت لا تريد منه شيئًا.. كفانا غضبًا ودماءً.. دعنا نرحل، وننهي الأمر.

صخر تأمل وجه زوجته بعينين متسعتين لا تريان تقريبًا. جسده تراخى للمساتها، وتنفسه هدأ. التفت إلى منصور..

- على كل حال، لقد فسد المخطط..

ثم عاد لزوجته..

- سنرحل.. فلم يعد لنا طريق آخر.

قطع حديثه مقبلا جبهتها..

- أحضري لنا شيئًا لنأكله.. لا أظن أن الخواجة أكل شيئًا منذ الصباح.

- أنا لست جائعًا.

صخر أجابه..

- ستأكل معنا.. عندنا، لا رابط أقوى من رباط العيش والملح.. كل معنا، لتتذكر ما حدث هنا ما حييت.

لماذا يريده الجميع أن يتذكر؟! هكذا فكر منصور..

- أنا لا أريد سوى الرحيل.. فما عاد وجودي في القرية ذا فائدة. سأرحل حالًا.. حتى أغراضي عند العمدة سأتركها.

- بت ليلتك هنا.. وفي الصباح الباكر سأصحبك إلى الطريق الأسفلت.

ثم عاد إلى زوجته مذكرًا..

- الطعام يا سحاب.. وفرش نظيف للخواجة.

سحاب قامت لتلبية الطلب. الصمت صاحبهما لفترة، قبل أن يتخلى صخر عنه..

- طالما فشل مشروعنا المشترك، وقررت مغادرتنا.. دعني أسألك لمرة أخيرة.. ماذا وجدت في القصر؟

منصور لم يتعجل الجواب. أخذ وقتًا لتدبر القول الصحيح، حتى بدا له أن صمته طال عن اللازم، وربما بات في حد ذاته موحيًا بإجابة محددة..

- لا شيء.. كما أخبرتك من قبل.. مجرد خرائب.

صخر هز رأسه متفهمًا، بعدها لم يتبادلا كلمة. تناولا في صمت بعض الخبز والجبن. منصور لم يستسغ طعم جبن القرية، لكنه كان سعيدًا بوجبة خفيفة، بعيدة عن الدسم المعتاد على موائد العمدة. صخر هيأ - بعد الطعام - لمنصور فراشًا، ثم غادره. أمر الأولاد ألا يقترب أحد من الضيف، فأطاعوه مقاومين فضول اللحظة التاريخية، فهو أول غريب يبيت في الفابريكة. منصور تمدد على الفراش، عبث قليلًا في هاتفه بلا غرض محدد، وهو يتساءل كيف يأتيه النوم والساعة

لم تتجاوز التاسعة. لكن أفكاره ربما استفزت النوم، فباغته بهجمة واحدة أجهزت عليه!

لم يعرف منصور أنه نام، إلا في صباح يومه السادس في القرية؛ حين فتح عينيه، ليجد ضوء الشمس يضربهما من خلف رأس قبيح منكفئ فوقه. تنبه ليدرك أن لبيب منحنٍ عليه، يهزه ليصحو؛ فلما تأكد من صحوه، قال بشيء من حدة:

- قم معي.. سآخذك إلى دار العمدة.. شيء هام حدث.. والعمدة يريدك.

***

في وقت متأخر من الليل؛ وقت أن كان منصور يغط في النوم، مستنشقًا تراب الفابريكة مع الأنفاس العميقة الهادئة، يخوض حربًا شرسة مع حشرات لا يدري كنهها؛ كانت جلسة عمل تجمع كلًّا من الحاج عبد النعيم والمقدس ديب في بيت الثاني. في المدينة قطعة أرض تعود ملكيتها لوزارة الإسكان، موقوفة منذ عشرات السنوات باسم المشروع القومي لإسكان الشباب. اللافتة المرفوعة أعلى السور المحيط بقطعة الأرض صدئت وتآكلت، وحجر الأساس، الذي تشارك في وضعه الوزير والمحافظ، اختفى بلا أثر، مع احتمال لا يمكن إنكاره أن يكون سُرِق، والأرض لم تزل كما هي. لعاب الحاج عبد النعيم يسيل على هذه الأرض. الاستيلاء على أرض مملوكة للدولة ليس بالأمر العسير إن علمت الطريق، والمقدس ديب

- بحكم علاقاته داخل الوزارة - كان يعرف الطريق. خلافهما الوحيد الآن حول مستحقات ديب نظير إنجاز الصفقة. هو يريد حصة في المشروع الإسكاني والتجاري الضخم الذي سيبنيه عبد النعيم على الأرض، بوصفه شريكًا. في حين يرى عبد النعيم أن نفحة ذات خمسة أصفار تكفي وتزيد. لهذا نلاحظ بعض الحدة في لغة نقاشهما تلك الليلة، رغم حرصهما على مستوى صوت منخفض، فالوقت متأخر، وأهل البيت نائمون. في هذه الأجواء وقعت الحادثة.

مينا، ابن المقدس ديب، قام قرب الفجر إلى الحمام. رغم أنه قطع المسافة ركضًا ليسبق انفجار المثانة الممتلئة، إلا أن ضوء المضيفة المتسلل من تحت بابها المغلق أثار فضوله؛ أيعقل أن يكون اجتماع أبيه بضيفه لم يزل قائمًا حتى هذه الساعة؟! الفضول ضاعف قدرته على إمساك مثانته، فهدأ إلحاح النداء وهو يطرق باب المضيفة..

- بابا.. أنت هنا؟

لم يجب أحد طرقته الأولى ولا الثانية. لقد ذهب الضيف إذن، ونسي أبوه إطفاء الأنوار. مينا فتح باب المضيفة، ليكتشف أن تخمينه لم يكن في محله، فأبوه وضيفه كانا ما زالا في الحجرة، فقط ما كانا في ذات الحالة المعتادة لهما؛ كانا متناثرين في كامل مساحة القاعة، في قطع متفاوتة الأحجام والأشكال. لحظتها، سال في بنطال مينا ما حبس طويلًا في مثانته.

***

شحتة استلم منصور من لبيب عند باب الفابريكة، ليقوده إلى دار العمدة. صمت شحتة وتجهم وجهه، غير المعتادين، وذلك الخفير الذي يسير خلفهما بخطوتين صدرا لمنصور شعورًا بأنه رهن الاعتقال. لم يسأل، ولم يخرق الصمت بأي شكل، تاركًا للدقائق التالية مهمة تفسير الأمر. منصور يعرف أن لا مكروه قانونيًا يمكن أن يطاله. في النهاية هو من رعايا دولة أجنبية؛ عند أية بادرة غير مطمئنة سيطالب بمهاتفة سفارة دولته. طمأنته أفكاره لدقائق، حتى عاوده القلق أمام بوابة دار العمدة، حيث كانت سيارات الشرطة متوقفة؛ سيارات كثيرة، بينها ناقلات جنود ضخمة. هل يحتاج اعتقاله إلى قوة بهذا الحجم؟! هكذا فكر منصور في ذات لحظة انفلات السؤال..

- ماذا حدث؟

شحتة لم يجبه. قد تكون هي بادرة الشر التي يتوقعها منصور، فهو أمر جلل أن يرفض شحتة محادثته. لكن لحظة عبورهما باب الدار الداخلي، تحدث شحتة بنبرة حزن:

- لماذا يا سيدنا؟ أنت تخرق عهودنا، وتدنس مقدساتنا الواحد تلو الآخر.. أهذا جزاء حسن ضيافتنا؟!

منصور فهم أنه يتحدث عن المبيت في الفابريكة. كاد أن يقول أمرًا، ربما يفلت السؤال الذي ما كان يطيق صبرًا لإطلاقه من صدره: كيف عرفتم أني في الفابريكة؟! ولكن الرجال المتجمعين في صالة الدار،

الرجـال الذين قطعـوا أحاديثهم، والنظرات التـي تفحصته، وتعبيرات الصرامة التي لاقته لحظة اجتياز الباب، أخرسته.

العمدة قال لضيوفه..

- ها هو سيدنا منصور قد حضر.

هـل حقًـا في نبرته قـدر من التهكـم، أم أن أفكار منصـور هي التي فرضت على مداركه هذا الالتقاط؟

- نعرفه بالطبع.

قالهـا ذلك الرجل المهيب، الذي تذكر منصور لقاءه الأول به على طاولـة غداء العمدة. الرجل تقدم من منصور مصافحًا. شـدة قبضته ما كانت توحي بأي قدر من الود..

- تفضل.

أجلـس منصـور فـي مركـز حلقتهـم، بين رجـال بملابـس مدنية، وآخرين بزي الشـرطة، مع عدد كبير من النجوم على الأكتاف، تعكس في عينيه ضوء الشمس.

- أين كنت ليلة أمس؟

هكذا بدأت الأسـئلة بشكل جاف حاد. هو تحقيق رسمي إذن، بلا أيـة محاولـة لتجميل تلك الحقيقـة، وهو ما يؤكده ذلـك الرجل الذي أمسـك بقلـم، على ورقـة خالية مـن دفتر مسـنود على فخذيـه منتظرًا الجواب.

- كنت في الفابريك.

- فابريك؟!

- يقصد مصنع مهجور وسط القرية.

كان التدخل التوضيحي ذاك من العمدة..

- وهل قضيت ليلتك هناك.. في مصنع مهجور؟!

- نعم.

- هل من شهود؟

- ليب وشحتة.. هما أحضراني من هناك.

- وماذا عن حدود الساعة الثالثة فجرًا؟

منصور لم يفهم السؤال. هز رأسه، فأوضح الضابط مقصده..

- أين كنت في حدود الثالثة فجرًا؟

- كنت نائمًا في الفابريك.

- هل من شهود؟

- الأولاد المقدسون.

رئيس المباحث بدا على وجهه عدم فهم، فتبرع العمدة بالشرح..

- أولاد مشردون يا باشا.. أولاد شوارع يسكنون الفابريكة المهجورة.

منصور لم يستطع أن يكبح غضبه. سدد للعمدة صرخة..

- أولاد شوارع؟! الآن هم أولاد شوارع؟!

واحد من حملة النجوم تدخل محتدًا..

- لا تخرج عن التحقيق.. أجب عن الأسئلة الموجهة إليك فقط.

منصور نهض. بفرنسية غاضبة قال:

- أنا لن أنطق حرفًا إضافيًا إلا في وجود موظف من سفارة بلدي.

تبادل الجمع النظرات..

- لا داعي لهذا.. دعنا ننهي عملنا بلا أزمات أرجوك.

رئيس المباحث لم يفهم ما قيل، وإنما خمنه. لهذا كان رده يحمل رائحة التهديد. منصور أخرج جواز سفره من جيبه الخلفي ملوحًا به..

- أنا مواطن فرنسي.. ولن أتحدث إلا في وجود من يمثل بلدي.

رئيس المباحث قام من مجلسه. بهدوء قال:

- في هذه الحالة أتوقع أن تأتي معنا إلى القسم حتى ندبر الأمر مع سفارتك.

لحظتها تدخل العمدة جسدًا وقولًا؛ تحرك ليقف بين الضابط ومنصور، وكأنما يتوقع محاولة لإيذاء منصور بدنيًا..

- لا داعي يا باشا.. سيدنا منصور، مهما كان، واحد منا.. وأنا أقدر على التعامل مع هذا الموقف.

منصور ما كان ليستسلم للمزيد من خبث العمدة، فواصل التحدث بالفرنسية..

- أريد أن أتصل بسفارتي الآن.

العمدة التفت إليه..

- يا سيدنا، لا أحد يفهم ما تقول.. وفر جهدك، ودعني أتولى الأمر.

منصور تحدث بالإنجليزية هذه المرة..

- لي الحق في طلب مترجم؛ أليس كذلك؟

الضابط وجه حديثه إلى العمدة..

- أرأيت؟ أتريدني أن أبتلع غطرسته تلك؟

- هو فقط متوتر من الأجواء.

- أية أجواء؟! إنه مجرد تحقيق طبيعي.. نحن لم نوجه إليه أي اتهام بعد.

الضابط سدد نظرة جانبية لمنصور، وهو يتابع..

- إن شاء، يمكنني إحالته للنيابة ليتولوا هم أمر التفاهم مع سفارته.

العمدة تأبط ذراع الضابط، برفق قاده إلى ركن يعزلهما عن الأسماع..

- واضح أنه مصر على موقفه.. وأنتم لم يزل أمامكم وقت لإنهاء التحريات واستجواب باقي المشتبه بهم.. اتركوه إلى النهاية، واعتبروه محجوزًا هنا في بيتي.. في النهاية أنا واحد منكم.. والدار أمان.

رئيس المباحث قال:

- أليس هو من يريد تطبيق القانون؟ كيف تتوقع مني إذن أن أخالفه؟ آسف يا عمدة.. لم يعد من مجال للخواطر الآن.

- يا باشا.. لماذا نسعى بأيدينا لتعقيد الأمور؟

- هو من يعقدها.

- دعه لي.. وأنا له.. المهم أن نتجنب الدخول في مشكلات دولية وتعقيدات ستعوق التحقيقات.. خاصة وهو ليس متهمًا بشيء.. ولا شيء ضده حتى الآن، سوى بعض الشكوك الواهية جدًا. دعنا إذن نلعبها فيما بيننا مثل المرة السابقة. هو لا يفقه شيئًا في القانون المصري.. أخبره بأنه تحت الإقامة الجبرية في بيتي، وسيصدق، كما صدق من قبل أنه ممنوع من مغادرة القرية.

الضابط فكر قليلًا، ثم هز رأسه موافقًا..

- حسنًا يا حاج رضوان.. لكن إن تركته يرحل قبل أن أسمح لك.. أو فشلت في السيطرة عليه.. فستواجه معي مشاكل أنت في غنى عنها.

العمدة ابتسم..

- اطمئن يا باشا.. أنت تحدث رضوان الهلالي.

العمدة تركه وسعى إلى منصور. جذبه برفق إلى بعيد وهمس له..

- أنت الآن في حوزتي حتى ننهي الإجراءات التي طلبتها.

- ماذا تقصد؟

العمدة لم يفهم إن كان منصور لم يزل يتعمد التحدث بالفرنسية، أم إنه فقط انفلات اللسان من الغضب..

- لا داعي لهذا.. حدثني بالعربية، فأنا الآن صديقك الوحيد.

منصور أعاد ضبط لسانه..

- صديقي!

- تهكم كما شئت.. ولكنها الحقيقة.. لولاي لكنت محتجزًا الآن في زنزانة، مع مجرمين لن يتورعوا عن فعل أي شيء بك.. وأنا لا أمزح حين أقول: أي شيء. الضابط، كثر خيره، وافق على إبقائك في بيتي تحت الإقامة الجبرية لحين الانتهاء من التحقيق.

- أنا لست متهمًا بشيء.

- دعنا نناقش هذا فيما بعد. اصعد الآن إلى حجرتك، حتى ينهي هؤلاء الرجال عملهم، فقد استفززتهم بما يكفي.

منصور هم بالابتعاد..

- أنا سأصعد فقط لأجمع أغراضي وأرحل.

بوقاحة قبض العمدة على ذراعه ليوقفه..

- أنت لا تدرك ما تقول. إن رحلت ستصبح هاربًا من الشرطة.. أنت بالفعل لست متهمًا بشيء حتى الآن، ولكن إن رحلت فستصبح كذلك. ولن ينفعك أحد.. لا أنا، ولا سفارة بلدك، ولا أصدقاءك المشردين.

- لن ترهبني أكاذيبك.

العمدة تنهد..

- فقط اصعد إلى حجرتك، وفكر في الأمر بهدوء.. ورجاء.. استحم.. فرائحتك لا تطاق.

***

تحت ماء الدش، تساءل منصور هل كان العمدة حقًا يشم منه رائحة كريهة، أم أنه قالها فقط ليدفعه إلى إهدار بعض الوقت في الحمام؟!

أيًا كان غرض العمدة، وأيًا كان وضع منصور الانفعالي وقتها، فالقول أتى بثماره. منصور ما كان ليتجاهل قولًا كهذا، فهو لم يسبق أن أُعطي تعليقًا على رائحته إلا بالخير.

غسل جسمه أكثر من مرة بعناية فاقت المعتاد. خرج عاريًا، ليغمر نفسه بمعطر الجسد. ارتدى ملابس نظيفة، فاكتمل له شعور بالابتهاج أثناء تونره. بهدوء جمع حاجياته. الكمبيوتر كان ساكنًا في وضع النوم، أيقظه استعدادًا لإغلاقه، فاستقبله تنويه برسالة جديدة. ولج إلى صندوق رسائله، الرسالة وردت بالأمس من مركز آلزهايمر في باريس. متوقعًا السوء، تعالت دقات قلبه، لتصاحب صوت نقرات على باب الغرفة.

قبل أن يفتح، كان يعرف أنها صاحبتها؛ وردة اندفعت إلى حضنه فور انفتاح الباب..

- قلقت عليك كثيرًا.. أين كنت؟

منصور لم يكن ليخبرها. نوعًا ما كان يشعر في تلك اللحظة بفتور حماسه لها..

- لا تقلقي.. أنا بخير.

وردة قبلته..

- لا تفعل هذا بي مجددًا.

- لن أفعل.

تراجعت نحو الباب..

- سأزورك في المساء.. عندما ينامون.

- قد لا أنتظر إلى المساء.. فأنا أنتوي الرحيل.

وردة - بشكل ما - انطفأ وجهها..

- ترحل؟!

منصور لا يعرف كيف اندفع ليقول..

- تعالي معي.

دعم عرضه باحتضان كفيها..

- أنتِ لست ابنة هذا المكان.. تعالي معي إلى حياة أفضل، وعالم نحيا فيه حبنا دون خوف أو تدخل من أحد.

على وجهها لم تخفت الصدمة؛ بل زاد عليها ما يشبه الحزن..

- أتطلب مني أن أهرب من أهلي؟

- نعم.. هذا ما أطلبه.

تراجعت حتى بلغت الباب. عيناها التمعتا بدموع..

- لا أستطيع.. أبي وأمي قد يقتلهما هذا.

صمتت وكأنما انتهت، ثم عادت فجأة، وكأنما تذكرت المزيد..

- هنا أستطيع أن أفعل ما أفعله، طالما لا أحد يدري به. طالما لا تجد ألسنة الناس فضيحة لتنهشها، فشرف أبي في أمان. أما الهروب، فهو العار المؤكد.

منصور استراح لقرارها، رغم أنه لم يبدِ شيئًا على وجهه، فهو لم يزل يلوم زلة اللسان على العرض المتهور..

- هو وداع إذن.

- لماذا لا تبقى أنت؟

- لأمور عدة، لا أريد أن أشغلك بها.

لحظتها تذكر شيئًا..

- ثم هناك تلك الرسالة.. أنا لم أفتحها بعد، لكن أراهن أن بها كارثة تستوجب عودتي.

- أية رسالة؟

منصور تحرك إلى الكمبيوتر. قال وهو يفتح الرسالة..

- رسالة من مركز رعاية مرضى ألزهايمر، الذي تقيم فيه أمي.

صمت ليقرأ المكتوب. أعاد رأسه للوراء قليلًا وعيناه تتسعان أمام الرسالة دون أن تريا شيئًا. هو كان يتوقع هذا المحتوى تحديدًا؛ لكن التوقعات شيء، والحقائق القاسية المكتوبة بكلمات حاسمة محايدة شيء آخر.

- لقد ماتت.

مفجوعة، سألت وردة..

- من؟!

منصور في المعتاد يكره الأسئلة الغبية، وفي مواقف كتلك، يصير يمقتها كالسرطان..

- أمي. ماتت منذ يومين.. يقولون إنهم حاولوا مهاتفتي أكثر من مرة، لكن هاتفي كان مغلقا.

وردة ربتت كتف منصور. احتضنت رأسه وقبلته. قالت:

- البقاء لله يا حبيبي.

منصور لم يفهم ما ترمي إليه. عقله لا يدرك كيف يكون في قول كهذا أي نوع من المواساة أو التخفيف من وجعه! رغم هذا قبل خدها وقال:

- لا عليك.. لقد انتهت معاناتها. هي في عالم أفضل الآن، وفي حال أفضل بالتأكيد.

وردة أحكمت العناق أكثر. دفنت رأسه في نهديها الصغيرين لثوان، ثم تركته يرتد وحيدًا، مشتاقًا للمزيد، طامعًا في رحلة أخرى إلى هناك، أطول زمنًا، وأكثر مجونًا..

- يجب أن أغادر الآن.

عند الباب استوقفها..

- لا تخبري أحدًا بأمر أمي.

وردة ابتسمت شاحبة..

- لا أستطيع، حتى إن أردت.

فتحت الباب بقدر ضئيل، مررت عبره بصرها تستكشف الردهة، قبل أن تنسل خارجة، تاركة الباب يرتد برفق إلى وضع الإغلاق.

لما استوت بمنصور العزلة في الحجرة المغلقة، لم يكن ليستغل ذلك الوقت في ممارسة قدر من الحزن على الأم الراحلة، فقد كان لديه ما هو أكثر أهمية. ربما منصور قاسي القلب بشكل لم نكن نتوقعه. ربما هو أكثر عملية، وأقل تقديسًا للعاطفة منا نحن الشرقيين. وربما كان الأمر الجلل أكثر جذبًا لفضوله من فاجعة الأم الراحلة. المهم، أنه انكفأ على الكمبيوتر يعيد قراءة الرسالة..

المحترم، السيد رينار..

يؤسفنا إبلاغكم بأن السيدة ريجي رينار قد توفيت بالأمس، في تمام الساعة 1:36 صباحًا، إثر أزمة قلبية داهمتها أثناء النوم. وقد حاولنا الاتصال بكم، فكان هاتفكم مغلقًا، لذا قمنا بإجراءات الدفن وفقا لما هو متفق عليه في الإقرار الموقع من قبلكم. نرجو أن تتواصلوا معنا في أسرع وقت، لترتيب حصولكم على متعلقات السيدة رينار الشخصية. وبخاصة المغلف الذي تركته لكم.

مرة أخرى أعاد القراءة.. ثم مرة أخيرة. في كل مرة يتوقف أمام حاجز الغموض في كلمة "المغلف". عن أي مغلف يتحدثون؟ فتح

برنامج الاتصال عبر الإنترنت، أوصل سماعة الرأس والميكروفون، اتصل برقم المركز، فأجابه الصوت الأنثوي البارد..

- مرحبًا.. أنا منصور رينار ابن السيدة ريجي رينار، التي توفيت منذ يومين.

- أجل.. تعازينا مسيو رينار.

برود صوتها يؤكد أنها لا تقصد أي تعاطف حقيقي..

- أنا قرأت رسالتكم الإلكترونية، وكنت أتساءل عن كنه هذا المغلف الذي تقولون إنها تركته لي.

- لا علم لي يا مسيو رينار. ستعرف كل شيء حال حضورك لاستلامه.

منصور لم يكن عليه في هذه اللحظة سوى الرهان على أدائه العاطفي، لاستمالة قدر من تعاطفها..

- آنسة... ما اسمك؟

- لا أظن أن لاسمي دخلا في الموضوع.

يبدو أن المهمة ستكون أصعب مما يظن!

- ربما أنت محقة.. لكن تخيلي أرجوك موقفي.. أنا هنا على بعد آلاف الكيلو مترات من الوطن.. وحيد في غرفة صغيرة.. بين قوم لا أفهم لغتهم، ولا يفهمون لغتي.. وأفجع بخبر رحيل أمي الحبيبة..

في هذه اللحظة، أنا لا أنتظر منك تعاطفًا أو مواساة صادقة.. أنا فقط أريد أن أشعر أني أتواصل مع إنسان؛ لا مع صوت آلي مسجل.

منصور دمعت عيناه؛ لا يدري إن كان هذا إتقانًا لأدائه، أم أن كلماته أحيت بالفعل في صدره منطقة للعاطفة، كان يظنها ميتة.

- حسنًا يا مسيو رينار. أنا مدام دوترو.. أم تراك ترغب في معرفة اسمي الأول؟

وضوح نبرة التهكم في سؤالها هو ما دفع منصور للقول:

- كلا.. سأكتفي بهذا الكرم منك مدام دوترو. كما كنت أقول.. أنا الآن في بلد بعيد في العالم الثالث، لا أعرف متى سأرجع.. ولا أعرف حتى إن كنت سأتمكن من مهاتفتكم مرة أخرى. أنتم تمتلكون شيئًا يخصني.. شيئًا ربما كان هو الأثر الباقي من ميراث أبي وأمي. فلا تحرميني حتى من إرواء فضولي.

لم يأته عبر الهاتف لفترة سوى صوت أنفاسها. كانت تفكر، وكان هو يصلي كي يلين رأسها قليلًا..

- حسنًا يا مسيو رينار.. ماذا تطلب مني؟

منصور شكر الله في سره..

- أريد أن أعرف تحديدًا ما هو الشيء الذي تركته أمي لي.

- إنه مغلف مغلق.

- هل هو قريب منك؟

- إنـه فـي إحدى خزائـن الأمانـات.. قريب مـن يـدي اليمنى في الحقيقة.

- رائـع.. مـدام دوتـرو، أنـت لديك تصريـح مني لفـض المغلف وإخباري بما يحتويه.

- لا أستطيع أن أفعلها سوى بتصريح مكتوب.

دارت فـي عقـل منصور سـبة، أعاقتـه مقتضيات الدبلوماسـية عن تحريرها..

- سـيدتي، أرجوك، أنا في موقف لا يحتاج لمزيد من التعقيدات، ولا أريـد سـوى تفهمك.. خذي بيدي إلى النـور، وتجاوزي بي ظلام البيروقراطية.

منصـور - لما طـال الصمت - تسـاءل إن كانت جملته الشـاعرية الأخيرة تلك مبالغ فيها إلى حد السخافة!

- حسنًا.. ها هو المغلف في يدي.

قدر من الصمت، ثم...

- إنـه كتـاب.. بـل دفتر صغيـر.. قديم جـدًا.. يحتـوي كتابة بخط اليد.

مـع كل كلمـة نطقـت بهـا تعالت فـي صـدره ضربـة. إيقـاعٌ قلبيٌّ متصاعد، لم يملك منصور في نهايته سوى أن يكرر وراءها..

- دفتر قديم تقولين؟

- هذا ما قلته بالفعل.

كان عليه أن يهدأ ليحسن الخوض في خطوته التالية. مفاجأة كتلك إن اكتملت كما يتوقع يمكن أن توقف قلبه؛ ربما فرحة، وربما دهشة، وربما خوفًا من ثقل مسئولية امتلاك هذا الدفتر. عليه فقط أن يتأكد أنه الدفتر المنشود..

- مدام دوترو.. أتوسل تعاونك مرة أخرى، فما تمسكينه بيديك قد يكون إرثا عائليًا هامًا جدًا.. إرثًا بحثت عنه لسنوات، ولم أكن أعرف أنه ملك والدتي.. أنت لا تتخيلين حجم اللهفة والفضول المشتعلين بصدري الآن.

تنهدت..

- وما المطلوب مني لإطفاء حريق صدرك؟

رغم السخرية في قولها، إلا أنه بات واثقا من تعاونها..

- أريدك أن تأخذي من صفحات الكتاب صورًا رقمية، وترسليها الى بريدي الإلكتروني.

تأخر ردها لم يخف منصور. هو كان واثقًا من أنها بعد الصمت ستقول:

- حسنًا.. امنحني فقط ثلاثين دقيقة.

- أشكرك سيدتي.. أنت قديسة.

لأول مرة يجد منصور في صوتها قدرًا من مرح وهي تقول:

- سأنسخ كذلك الرسالتين.

- أية رسالتين؟

- رسالتان كانتا داخل الظرف بصحبة الدفتر.. إحداهما تبدو بالغة القدم كذلك.

- سيكون هذا كرمًا بالغًا منك.. سيدتي..

بيالغ الثقة، وبنبرة مرحة سألها:

- هل لي الآن بمعرفة اسمك الأول.

صمتها لحظتها كان يحمل أصداء باهتة لضحكة مكتومة..

- إنه فينيسا.. فينيسا دوترو..

- أرأيت كم أن الأمر بالغ السهولة.

هذه المرة كانت ضحكتها جلية..

- سعدت بمعرفتك سيدتي.. وداعًا سانت فينيسا.

***

صغيري مسيو..

لا أعرف إن كان إخفائي أمر هذا الدفتر عنك طوال كل تلك السنوات هو عين الحكمة، أم دربٌ من الحماقة. أوقات ألوم نفسي

لأني لم أعطه لك حين بلغت رشدك، كما أوصاني أبوك، وأحيانًا ألوم نفسي لأني لم أحرق الدفتر وأتخلص من لعنته. إذا قرأت الخطاب القديم المطوي داخل صفحة الدفتر الأولى، هذا الخطاب المخطوط بيد جدك الكبير حسونة، فستلاحظ أني أمر بنفس مراحل الحيرة التي مر هو بها؛ وكأن في الدفتر روحًا تسعى للنجاة؛ وكأنه قادر بشكل سحري على الحفاظ على حياته، وقذف محبته في قلب من يمتلكه فيتعلق به. لست متأكدة. فقط أنا واثقة من أن قرار الخلاص منه صعب، بل مستحيل. حتى وأنا أدرك بكل ذرة عقل أمتلكها أن الخلاص منه هو الطريق الأفضل لإنقاذك من لعنته.

لن أحدثك عن الدفتر، فأنت ستفهم كل شيء من خطاب جدك. أنا الآن في حالة مزرية؛ عقلي بات يتشوش لأوقات أطول، وذاكرتي تخونني كثيرًا. لا أظنه الكبر يا صغيري؛ أخشى أن يلم بعقلي خطب ما، لذا أكتب لك رسالتي، حتى إذا ما وجدت الدفتر ذات يوم، فهمت لمَ أخفيته عنك.

هذا الدفتر هو إرث عائلتك. كتابهم المقدس، إن غفر لي الرب هذا التشبيه. هناك فتنة ما فيه تبتلعهم. رغم أنه أقرب إلى كتاب حكايات خيالية، إلا أنهم يؤمنون به. أبوك كان مؤمنا به بكل ذرة في قلبه؛ تقريبًا كان يحفظ كل كلمة، كل تعويذة، وكل وصفة كيميائية، أو معادلة فيزيائية وردت به، رغم أنه كان ينكر هذا طوال الوقت. ربما تدينه هو ما كان يعوقه عن الاعتراف الصريح بإيمانه هذا. ربما يكون حاول تجربة

بعض التعاويذ سرًا؛ لا أعرف يقينًا، لكني في مرحلة من طفولتك كنت أخشى عليك منه ومن جنونه السري ذاك. أبوك اعترف لي أنه ارتحل إلى مصر في شبابه البكر، بحثًا عن القرية التي عاش فيها جده. لكنه عاد بالخيبة والفشل. وكم خشيت أن يكون إصراره على تعليمك اللغة العربية، جزء من مخطط لإرسالك إلى هذا البلد البعيد لمطاردة هذا الجنون. أنا أحببت أباك بالفعل، ووثقت في أخلاقه وحكمته، لكني لم أثق يومًا في الدفتر. لهذا ربما تتفهم لماذا أخفيت أمره عنك، ولماذا لم أمنحه لك حين بلغت الرشد كما أوصاني أبوك في احتضاره.

لا أعرف - صدقني - إن كنت فعلت الصواب أم لا. أوقات كنت أتأمل روحك القلقة، روحك التواقة لشيء ما، وكأن قدرًا من الفقد يعوق اكتمال فهمك لذاتك، فكنت أخشى أن يكون الدفتر هو السبب. أنا لا أدري ما خطبكم يا آل رينار، ولكنكم تبدون وكأن الدفتر يكمل جزءًا ناقصًا من ذواتكم. هكذا كان الدفتر لأبيك، لكنه لم يعرف يومًا ما يفعل به، وأنا كنت واثقة حينها أنك كذلك لن تعرف، ولن يصدر لك هذا العلم الزائد على الحاجة - إن افترضنا صحته - سوى المعاناة! لكن الآن يعتريني الشك. هل أخطأت في حقك؟ ربما أنت يا مسيو با صغيري مختلف عن أبيك وأجدادك، ربما تدرك أنت ما عجزوا هم عن إدراكه. رغم هذا ليست بي شجاعة لمنحك إياه، لكنني سأسهل لك الحصول عليه بعد وفاتي. وأنا أصلي أن يكون هو القرار الصائب.

أمك المحبة

***

منصور دمعت عيناه أمام كلمات أمه. قرأها مرات ومرات، وهو لا يستطيع أن يمنع عن عقله فكرة أن الأم تخاطبه من مستقرها الناعم في العالم الآخر. عندما تمكن أخيرا من تخطي موجة الحزن، توجه بمؤشر الكمبيوتر إلى الرسالة الثانية؛ كانت في ورقتين كبيرتين صفراوين، مكتوبة باللغة العربية بخط رديء. الحبر القديم بهت في مواضع عدة؛ وإن بقي قابلا للقراءة. لم تكن قدرات منصور على قراءة العربية متكاملة، ولكنها تبلغ الحد المناسب لفهم ما قرأه. الرسالة من جده حسونة، كتبها -كما يبدو- في أواخر أيامه، وتركها مع الدفتر لذريته من بعده، لعلهم يفهمون منها ما حدث. رسالة مفتوحة، لا تقصد فردًا بعينه، أشبه بمذكرات موجزة لوقائع حياة حسونة مع الخواجة. الجزء الأكبر منها كان منصور يعلمه من تدوينات الجد سيمون. والجزء المتعلق بقصة هروبهما من القرية، وكيف أخفى حسونة الدفتر عن أبيه مدعيًا ضياعه، أنتم تعرفونه. ما يهمنا إذن هو خواتيم الحكايات.

أبي كان سعيدًا وهو يراني أتأقلم يومًا بعد يوم مع الحياة الباريسية. كل تفكيره كان مركزًا على كسب صداقات مع عرب باريس، ليكونوا لي سندًا بعد رحيله. من ناحيتي، اندمجت في الحياة الجديدة ونسيت الدفتر في مخبئه. حتى الآن لا أعرف لماذا أبقيت عليه. هدفي كان إبعاده عن يد أبي، فلماذا لم أحرقه أو أتخلص منه؟! حتى الآن، وبعد كل ما عشته، لا أعرف لماذا لم أزل أحتفظ بالدفتر، ولا لماذا أعطيته لابني أسامة في شبابه، وكأنه إرث هام. ربما تعويذة ما ألقاها أبي على الدفتر لتمنحه بقاءً أبديًا. لكن إن صح هذا، فكيف صدق هو أن الدفتر

غرق؟ أوقات يقودني التفكير إلى أن أبي علم طوال ما بقي له من عمر أن الدفتر في حوزتي، وأن خداعي لم ينطلِ عليه، لكنه - ببساطة - لم يبالِ، لأن الدفتر معي في النهاية، وهو ما خطط له. وربما فقط أكون ورثت - دون إدراك واعٍ - عن أبي تقديس القوة الموجودة بالدفتر، لذا لم أشأ حقًا تدميره، رغم أني لم أحاول أبدًا تجربة تلك القوة، ولا أعرف إن كان أسامة سيفعل أم لا. لكن كلمات الولد لي كانت مقنعة بشكل ما. قال لي: تدمير قوة كهذه حماقة، الصواب هو أن تمنحها لمن يستخدمها في الحق والخير.

لا أظن أن ما بقي لي من عمر سيكون كافيًا لأعرف كيف سيستخدم أسامة تلك القوة. أرجو يا بني أن تكون - وكل ذريتك - على قدر حمل هذه الأمانة الثقيلة.

منصور لم يشعر بأية راحة بعد أن قرأ ما قرأه؛ حتى وهو يعثر على الجواب لسؤال حياته الأكبر. الآن عرف لماذا رباه والده هكذا. الآن عرف نوع الرسالة التي كان يعد لحملها. لكنه الجواب الذي يزيد عبء الحيرة، ولا ينتقص منها. الدفتر معه الآن، الأمانة في يده الآن، فلا يعرف ماذا يفعل بها. ينتابه فضول ليعرف كيف استخدم أجداده الدفتر. ربما لم يستخدموه، وإلا كانت ستبلغه أصداء ما حدث من معجزات، فلماذا عليه هو أن يستخدمه؟ ربما لأنه في حاجة إليه، ربما لأنه من أعاد الدفتر إلى موطنه، وإلى حيث قوم على استعداد للقتل للحصول عليه. ربما الدفتر عاد الآن من أجل صخر تحديدًا. الدفتر، وحلم صخر الطفولي، والرسالة الموكل بها منصور؛ الآن تصطف

عناصر المعادلة الثلاثة في خط مستقيم، يخترق عقله، يحرقه بسؤال عن صخر وخلاصه المزعوم؛ أيكون هو أوان تحقيق حلمك الأكثر جنونًا أيها الولد المقدس؟!

***

منصور عمل بسرعة؛ نقل صور صفحات الدفتر إلى هاتفه، ثم أزالها - وصور الغرفة السرية - من الكمبيوتر، قبل أن يغلقه وينزع بطاريته ويدسه في الحقيبة. في الدقائق التالية، أنهى منصور حزم حقائبه. جواز سفره وهاتفه ونقوده دسهم في جيوبه. كان يعتزم مغادرة دار العمدة خفيفًا، على أن يترك حقائبه في الحجرة كنوع من الخداع، عله يستطيع استعادتها بطريقة ما قبل الرحيل عن القرية.

منصور فتح باب الحجرة عازمًا الارتجال. برغم رؤيته للعمدة كعلو لئيم، إلا أنه لم يتوقع أن يجد شحتة جالسًا أمام باب الحجرة..

- إلى أين يا سيدنا؟

منصور دفعته المفاجأة للانفعال..

- ماذا تقصد؟ أنا لست محبوسًا هنا!

- العفو يا سيدنا.. أنت فقط لا يصح أن تغادر الآن حتى لا تسبب للعمدة أزمة مع الحكومة.

كلمات شحتة ما عادت مغلفة بالتوقير. ربما لهذا هيئ لمنصور أن ملامح شحتة تغيرت، وأن هذا ربما كان آخر يتقمص شخصيته!

- لا شأن لي بهذا.. ليذهب العمدة إلى الجحيم.

شحتة اتكأ على عصاه ووقف. هناك في حركته شيء من عنفوان غير معهود منه..

- هذا الكلام لا يصح أن يكون ردك على كرم العمدة وحسن ضيافته.

منصور خاف لحظتها. ليس هذا شحتة الوديع الذي عرفه. كلماته وهيئته توحيان بخطر وشيك..

- ادخل حجرتك يا سيدنا، وانتظر عودة العمدة.. تكلم معه بما تشاء.. أما أنا فعبد مأمور.

منصور أذعن دون إضافات. دخل حجرته، وأغلق الباب بعنف خلفه. لفترة راوده عقله على الهرب عبر النافذة. هو لا يعرف كيف يمكن لشخص أن يهبط من نافذة عالية دون أن تُكسر رقبته، لذا لم تزد أفكاره على خيالات طفولية لعقل يائس. رغم هذا، ألقى عبر النافذة نظرة لمعاينة الارتفاع، ليكتشف أن خفيرًا مسلحًا ببندقية رابض تحت النافذة. يبدو أن العمدة تحسب لكل شيء، وحتى لأن ينبت لمنصور جناحان يطير بهما!

***

الوقت مر على منصور بطيئًا، لم يفعل شيئًا سوى الانتظار الممل. ترك حقائبه كما هي، لم يحاول حتى الاطلاع على صور الدفتر المخزنة

في هاتفه. بشكل ما كان يشعر أن العمدة يراقبه، طالما هو في هذه الدار سيبقى إحساسًا خانقًا يؤلمه بأن هناك من يعد عليه الأنفاس.

الغداء أتاه على صينية عامرة حملها شحتة. لم يكن منصور يتخيل أنه يمكن أن يقبل على طعامنا الدسم بهذه الشراهة. أكل وكأنما يخوض ملحمة الثأر من العمدة. أكل حتى بلغ مرحلة الندم، وكأنما اقترف إثمًا. أكل حتى قضى وقتا لا بأس به من النهار في الحمام! وهو على هذه الحال، سمع طرقًا على الباب. تحرج أن يرفع صوته من الحمام طالبًا من الطارق الانتظار، فاكتفى بالإنصات العاجز للطرقات المتالية، والتي أعقبها صوت باب الحجرة يفتح، وصوت العمدة يسأل:

- أين ذهب؟!

وصوت شحتة يجيبه:

- ربما في الحمام.

الطرقات هذه المرة كانت على باب الحمام..

- دقيقة يا عمدة.

- خذ وقتك.. أنا منتظرك في المضيفة.

منصور غادر حجرته بعد وضع حد لمعاناته الفسيولوجية! كان شحتة لم يزل جالسًا بالخارج. شحتة نهض وتبعه طوال المسافة نحو

المضيفـة. هنـاك كان ينتظره العمـدة. منصور لم يسـتطع أن يتخيل ما يمكـن أن يقال في هذه اللحظـة، ولا أين تقع مداخل الأحاديث، فقرر ترك مهمة إدارة الحوار للعمدة، ولمقتضيات الأمور..

- شفيتم!

هكذا بادره العمدة بمجرد أن دخل عليه المضيفة..

- ماذا تعني؟!

- لا عليك.. اجلسْ.

منصور اتخذ من مقعد مواجه للعمدة مجلسًا..

- ماذا تنوي أن تفعل الآن؟

العمدة هو من سأل، تاركًا لمنصور الارتباك، ومحاولة التسلل إلى مغزى السؤال..

- أنوي العودة إلى بلدي.

- الأمر بسيط.. إذا تعاونت معنا.

منصـور أدرك أنـه وقـت إسـقاط الأقنعة كمـا يبدو. العمـدة صار يتحدث بلغة وقحة للتهديد..

- أعتقد أنه وقت المصارحة.

العمدة أجابه وهو يشعل سيجارته..

- كما تشاء.

انتظر لينفث دخان أول أنفاس السيجارة، ثم قال:

- نحن لنا عندك طلب بسيط.. نفذه، فتصبح حرًّا للمغادرة.

- هذا اعتراف منك إذن أني رهن الاحتجاز؟

- بالعكس.. أنت هنا تحت الحماية.. أنا أحميك الآن من غضب أهالي القرية، الذين دنست مقدساتهم.. وأحميك من ضابط الشرطة ذي النفوذ، الذي اكتسبت عداوته عن استحقاق. ما أطلبه منك هو أن تلبي لي طلبي، كمقابل بسيط لحمايتي لك.

- وما هو طلبك؟

- الدفتر.

- أنا لا أعلم شيئًا عن الدفتر.. لماذا لا تصدقون؟

العمدة تحدث بقدر محسوب من الحدة..

- على الأقل أنت تعرف الآن كيف تشغل الماكينة..

منصور في هذه اللحظة بلغ الضغط على عقله الحد اللازم لتخرج كلماته على شكل صراخ:

- كيف تعرفون كل هذا؟

العمدة ابتسم. أخذ من سيجارته نفسًا عميقًا، مستمتعًا به..

- أنا مدين لك ببعض الشرح، على الأقل لأني سئمت براءة نظرات التعجب في عينيك. منذ اللحظة التي وطأت فيها أرض القرية وأنت في قبضتي، أرى كل ما تراه، وأسمع كل ما تسمع. كل خطوة قطعتها، كل كلمة قلتها أو سمعتها، كنت أعلم بها بعد دقائق. فيروز كان يبلغني بكل شيء.

منصور احتاج بضع ثوان ليتذكر الاسم..

- فيروز؟! عبد الباشا؟!

- أجل.. فيروز ليس مجرد عبد، ونعمان باشا لم يختره ليهدر عليه كمية من إكسير الشباب بسبب رقة قلبه.. فيروز ساحر أفريقي قوي.. سحره ساعد الباشا كثيرًا.. لولا أن سحره ما كان ليتفوق على علم جدك. جدك بالنسبة لفيروز كان كتابًا مغلقًا، لم يستطع يومًا غزو عقله، أو معرفة أسراره، أو اتباع أثره.. لكن الحال لم يكن هكذا معك، بمساعدة بسيطة مني أصبحت كتابًا مفتوحًا أمام فيروز، حول عينيك وأذنيك إلى أجهزة تجسس ضدك.

- كيف؟!

العمدة أخرج من جيبه منديلًا مطويًا، لوح به أمام منصور..

- ماء الوضوء من أقوى الآثار التي تعين الساحر على سحر صاحبه.

منصور تذكر تلك الواقعة، تذكر المنديل، تذكر كيف ظن وقتها أن العمدة مجرد إنسان مقزز! لكن الآن يفهم كيف كان ضحية خطة

تسير بنجاح منذ اليوم الأول. إحساس الفريسة يتعاظم في هذه اللحظة فيخنقه.

- الباشا إذن كان يعرف من البداية ألا علم لي بالدفتر.

- لا لم يكن يعرف.. سحر التتبع هذا يجعلنا نرى ما تراه ونسمع ما تسمعه.. لكن لا نفتش داخل عقلك.. المشكلة الأخرى التي اكتشفناها ان سحر التتبع لا يفلح معك وأنت داخل الفابريكة.. وكأنك في نطاق حماية ما.. ولولا الصور التي التقطتها من داخل الحجرة السرية في الفابريكة لما علمنا عنها أي شيء.. لهذا نحن مضطرون لأن ننتزع منك ما تعلمه عن الدفتر بأية وسيلة.. وأظنك تفهمني.

منصور كان يمكن في وقت آخر أن ينتبه للتهديد المفضوح. كان يمكن أن يخيفه، أو يغضبه. لكنه حاليًا تقريبًا لم يسمعه. عقله كان شاردًا في منطقة أخرى، فالتساؤل مرهق؛ إذا كان فيروز يسرق منه المعرفة، فكيف لا يعرف العمدة أن الدفتر بات في حوزته بالفعل؟!

- كيف أجعلكم تصدقون أني لا أعرف شيئًا عن الدفتر؟

العمدة هز كتفيه..

- عن طريق وضعك في اختبار حقيقي..

- بالتخويف؟

- بأية وسيلة ممكنة..

العمدة نهض، اقترب من منصور، ربت كتفه. بشكل ما شعر منصور أن العمدة يقلد مشاهد التحقيق في الأفلام الأمريكية!

- صدقني، أنت بلا حيلة أمامنا.. إما أن تظهر الدفتر.. أو على الأقل تساعدنا على إيجاده.. بالتأكيد لديك وسيلة.

العمدة بدأ يتمشى أمام منصور ويداه مشبوكتان خلف ظهره. توقف قليلًا أمام النافذة، أخذ نفسًا طويلًا من السيجارة، ثم ألقى ما بقي منها من النافذة. وقتها فكر منصور أن العمدة يحب ما يفعله حقًّا، يحبه إلى درجة المبالغة في الأداء!

- لماذا تطيعه؟

العمدة التفت إلى منصور..

- ماذا تقصد؟

- الباشا لا حول له ولا قوة دونك.. أنت قوته الوحيدة ربما.. فما دافعك لاتباعه؟ بالتأكيد أنت لا تخاف منه مثلا.

العمدة ابتسم..

- الحكاية يا منصور حمل ثقيل.. تحتاج جهدًا وبراعة.. تحتاج صبرًا لتراها تكبر أمام عينيك مثل طفلك، يومًا بعد يوم، وعلى لسان بعد لسان.. الحكاية تخضع الرقاب كما لا تفعل بنادق الخفر.. والباشا هو الحكاية الأولى.. أم الحكايات.. أنا لا يعنيني كثيرًا بقاؤه أو موته.. هي

حكاية ورثت حقيقتها عن آبائي، كما ورثت أصول كل الحكايات التي لم أضعها بنفسي.. كحكاية الشيخ.. الشائعات.. الأولاد المقدسين.. أنا أرعى حكاياتهم جميعًا كأبنائي، وأخفي الحقائق في جب سحيقة. لهذا أرعى الباشا.. دعه في قصره مختبئا طالما الحكاية معه بأمان.

- لكن إن حصل على الإكسير واستعاد عافيته.. ما يدريك أنه لن يخرج من قصره؟ ما يدريك أنه لن ينزع عنك السلطة والمكانة لنفسه؟

- بأي حق؟ هو ميت.. والموتى لا سلطان لهم. افهم.. الباشا أسير حكايتي.. لا يستطيع الخروج منها.. أقصى ما يرجوه حين يتم مراده، أن أدبر له حياة جديدة باسم جديد ليستمتع قليلًا.. وربما جعلته بذرة لحكاية جديدة.

- ألن تكتفي من الحكايات؟

عاد العمدة إلى مجلسه..

- الحكايات وليدة الاحتياج.. والناس في بلدنا في حاجة دائمة للحكايات.. السلطة في حاجة للحكايات. أبي ذات ليلة اشتهى الزانية التي اقتادوها إليه عارية مع شريك جريمتها، فخلق حكاية الشائعات، ليعاشر البنت دون تأنيب. في ذات الليلة، زار منزل الشيخ ربيع فوجده ميتًا، فخلق حكاية الشيخ الذي تحول إلى نور، ليبقي السلطة الدينية في يديه. وحين خرجت للناس رائحة جثة الشيخ الذي أغلق أبي عليها

باب الدار، خلق أبي حكاية عن الشياطين التي تحترق عند عبورها من أمام باب خلوة الشيخ.

منصور كان مسحورًا بما سمعه من العمدة. أخذه الإحساس بأن الأساطير تتهاوى أمامه بشكل ما، فأثار هذا طمعه للمزيد..

- لماذا اصطحبتني إلى خلوة الشيخ إذن، وسط مئات الشهود، طالما أنه لا وجود له؟

- لخلق حكاية جديدة.. تعلق الناس بقدسيتك سيخنقك.. سيحولهم إلى سوار حول رقبتك.. محبتهم لك ستصبح خط حصارك الأول.

- ولكني كنت سأكتشف داخل الخلوة كذبك بالتأكيد!

العمدة ابتسم ولم يعلق، وكلما جارى منصور صمته انتظارًا للكلمات، اتسعت ابتسامة العمدة، وامتلأت نظراته بالثقة، حتى أدرك منصور أنه لن يجيب.

- والأولاد المقدسون.. كيف كانت بدايتهم؟

العمدة بدا مستمتعًا بممارسة هذا القدر من الكشف، ولذلك أطلق لسانه دون حسابات..

- في يوم، جاء أبي أحد الأعيان، ليخبره أنه عاشر شائعة وحملت منه، وتريده أن يعترف بالابن القادم. فخلق حكاية الأولاد المقدسين ليخرج صديقه من ورطته.. كما قلت لك.. الحكاية تحضر حين تحتاجها.

- وماذا عن صخر الذي حارب العفاريت؟

- صخر كان مجرد ولد فضولي وقح.. تجرأ وصعد إلى القصر، ورأى الباشا.

اكتفاء العمدة بهذا القدر الضئيل من المكاشفة أثار ارتياب منصور..

- قتلتموه؟

العمدة تجهم..

- صخر هو أول حكاية خلقتها.. وعمره كان ثمنًا زهيدًا لبقاء الحكاية.

منصور لم يندهش. ربما شعر بأصداء حزن متأخر عشرات السنين لواقعة لم يشهدها؛ لكنه لم يندهش، فقد بات يعرف أي وحوش يتعامل معهم. رغم هذا كرر وراء العمدة..

- المهم أن تعيش الحكاية.

- هذه هي وظيفتي يا بني.. أنا الذي أخيف الناس وأطمعهم.. أفرحهم وأغضبهم.. أقنعهم أن الباشا لا وجود له، رغم أنه موجود.. وأن الشيخ موجود، رغم أنه غير موجود.

منصور، بعد دقيقة تدبر، قال:

- أنتم قوم سوء.. إذا كنت تريد الدفتر، فخذه ودعني أرحل بلا رجعة.

العمدة ابتسم منتصرًا..

- هو معك إذن!

منصور هز رأسه نفيًا..

- الدفتر في فرنسا.. أمي تركته لي قبل موتها أمانة في مركز رعاية مرضى ألزهايمر حيث كانت تقيم.

العمدة أشعل سيجارة أخرى، مستهلكًا بعض الوقت في ابتلاع كلمات منصور على مهل..

- وكيف السبيل لإحضاره؟

منصور مال بجذعه للأمام، ضيق عينيه، وعقد حاجبيه، وكأنما أراد مجاراة العمدة في مسابقة للمبالغة في الأداء!

- سأرسل إلى شخص أعرفه تفويضًا لاستلام الدفتر، وأجعله يرسله لي هنا.

- وكم سيستغرق هذا من وقت؟

- قد يستغرق يومًا.. أو يومين.. أو ربما ثلاثة على أقصى تقدير؛ حسب مشاغل هذا الشخص. نحن نتحدث عن تراسل إلكتروني، لذا فالأمر سريع كالبرق.

التماعة عين العمدة طمعًا جعلت منصور يدرك أنه التقط الطعم. الآن بإمكانه أن يحصل على بضعة أيام إضافية لإخراج نفسه من هذه

القرية. عليه فقط أن يماطل. اللعبة الآن -كما فكر منصور- هي لعبة وقت.

- حتى يتم الأمر، ستبقى ضيفي هنا في الدار.. ولا تنس أنك ما زلت مطلوبًا للتحقيق في جريمة قتل.

منصور نهض متأهبًا لمغادرة المضيفة..

- كما تشاء.

استدار ليغادر، لكن العمدة أدركه..

- ولا تنس أن جريمتك الأكبر لم تزل في طي الكتمان..

منصور التفت إلى العمدة متسائلا..

- ماذا تقصد؟

- أقصد أن في عرف بلدنا.. انتهاك الشرف جريمة، عقوبتها الموت دون محاكمة.

منصور لم يرد، ولم يشأ أن يرد، وحتى إن أراد أن يرد، فما كان من الممكن أن يجد ردًا!

***

وردة؟! وردة؟!! وردة؟!!!

بالضبط هذا ما كان يدور في عقل منصور، طوال الساعات التي قضاها في حجرته وحيدًا. مرة جديدة - ما عاد بإمكانه إحصاء عدد

المرات! - يكتشف كم هو غبي، حين ظن أنه فهم كل شيء، وكشف كل الحقائق. لحظة أن أخبره العمدة عن سحر التتبع، لحظة أن شرح له كيف أنهم يرون كل ما يراه، لم يستحضر ذهن منصور لحظاته المسروقة مع وردة، إلا حين تحدث العمدة عن جريمة انتهاك الشرف. لحظتها انتبه منصور؛ العمدة يعرف بما دار بين الأجنبي ووحيدته. لكن هذا ليس هو مصدر الحيرة، وإنما التساؤل البديهي من عقل بات يعرف الكثير عن عاداتنا وتقاليدنا؛ كيف يمكن أن يعلم العمدة بأمر كهذا ويسكت عنه؟ كيف يمكن أن يتجاهل الأمر، ويبقيه في جعبته، ككارت لعب لوقت الحاجة؟ تلك التساؤلات تقود إلى منطقة أكثر خطورة؛ فإذا كان العمدة قادرًا على التساهل بهذا الشكل مع قضية شرف - شرفه هو تحديدًا - بل وأن يتعامل معها كنقطة في صالحه؛ فلماذا لا نفترض أن العمدة هو الذي خطط للأمر منذ البداية؟ وأنه هو الذي دفع بابنته إلى فراش منصور، لترسم حول رقبته قيدًا جديدًا؟ إلى هذه المنطقة ذهب عقل منصور، ولهذا كان شعور الدهشة ممتزجًا بقليل من مشاعر الخيانة، والكثير جدًّا من الاشمئزاز.

منصور لم ينعم بتلك الوحدة لتأمل الموقف، إلا بعد أن أرسل أمام العمدة الرسالة التي وعده بها. منصور كتب نص الرسالة تمامًا كما اتفق مع العمدة، يطلب فيها من صديق له أن يذهب إلى مركز ألزهايمر، لاستلام الدفتر. العمدة طبعًا لم يعرف أن منصور أرسل الرسالة إلى نفسه، عبر إيميل مهجور كان يستخدمه قديمًا! بعدها كتب بخط يده

تفويضًا باسم هذا الصديق - الوهمي بالطبع - ووقعه. العمدة أعطى الورقة لشحتة، وأمره أن يأخذها بنفسه إلى مقهى الإنترنت، ليصنع منها صورة إلكترونية، لإرسالها مع الرسالة. بعد هذه الخطوات، لم يبقَ سوى انتظار الرد من الصديق. العمدة احتفظ بكمبيوتر منصور في حوزته - منعًا للألاعيب - حتى يأتي الرد، وما عاد أمام منصور سوى انتظار فرصة ما، لا يعرف كيف ولا متى ستأتي، للهرب.

وحيدًا في الحجرة درس منصور خياراته. خفير قابع أمام باب الحجرة، وآخر تحت النافذة، وخفير إضافي يرافق شحتة في سهرته أمام بوابة الدار الخارجية. يمكن أن نتفق على أن عدد الخفراء ليس بالكثير إذا كان الأسير جيمس بوند! لكن منصور، الشاب المسالم الذي نعرفه، الذي لم يخض في حياته عراكًا واحدًا، يكفيه نصف خفير لإبقائه في هذا الأسر إلى الأبد؛ فما هي الفرص المتاحة أمامه؟ إذا استمر الوضع على حاله، فربما يقضي منصور الساعات التي نجح في اكتسابها بفضل لعبته اليائسة تلك، في التفكير في طريقة للخلاص بلا جدوى. عند أطراف الحيرة تمدد منصور على فراشه معلنًا الاستسلام، توقف عن التفكير في طريق الهرب، أو في احتمالات خيانة وردة. غفا قليلًا دون جهد يذكر، فقد تذكر جسده وعقله بغتة كم هما متعبان. وعندما استيقظ، كان صخر يقف فوق رأسه. منصور قفز جالسًا، محاولًا ابتلاع المفاجأة. ربما أفلتت منه شهقة عالية، هي ما جعلت صخر يقول همسًا:

- اهدأ.. لا تفضحنا.

- كيف دخلت إلى هنا؟

صخر - رغم توتر الموقف - وجدها فرصة ملائمة للتباهي، فرسم ابتسامة فخر..

- هذا سؤال لا يوجه لشخص مثلي.

- ولكنه سؤال لا بد وأن يسأله شخص مثلي!

- دخلت من النافذة.

- هناك خفير تحت النافذة!

- كان..!

منصور أخرج رأسه من النافذة، لينظر للمساحة الفارغة أسفلها..

- ماذا فعلت به؟

صخر تناول حبلًا طويلًا كان معلقًا في ربطة صغيرة حول كتفه اليمنى. بسرعة حل الحبل، وبدأ يربط طرفه حول خصر منصور..

- لماذا تهتم؟ لا تقلق.. أنا لم أقتله.. هو يعيش أحلام الإغماء الآن في مخبأ ما.. بعد فترة سيصحو بصداع شديد.. ويتساؤل بلا إجابة عمن فعل هذا به.

صخر انتهى مما يفعله، ثم تناول حبلًا آخر كان مربوطًا حول كتفه اليسرى، حبلًا يحتوي عقدًا موزعة بطوله، لتساعد على التسلق، وفي

نهاية الحبل خطافٌ، شبكه صخر في طرف النافذة، ثم دلى الحبل إلى فناء الدار..

- هيا.. انزل على الحبل.

البساطة التي أصدر بها صخر أمره أدركها منصور كنوع من الغباء..

- مستحيل ما تطلبه!

- المستحيل أن تبقى محبوسًا هنا.. وأن تضيع الجهد الذي بذلته لإنقاذك.

صخر أمسك طرف الحبل المربوط بخصر منصور..

- أنا سأمسك هذا الحبل كنوع من الأمان.. لن تسقط، لا تخف.

منصور آمن سريعًا - وبحسابات عقلية بحتة - أن هذه هي الفرصة المنتظرة للهرب. لكن بقي الخوف المحتشد في قلبه عائقًا بينه وبين اغتنام الفرصة..

- أسرع.. ليس أمامنا الليل كله.

حمل الرسالة ليس بالأمر الهين، ولن يتم بلا معاناة؛ هكذا فكر منصور وهو يضع أول قدم خارج النافذة. رحلة الهبوط استلزمت منه جهدًا بدنيًا كبيرًا، لكنه أتمها بنجاح. عندما لامست قدمه الأرض، كانت ذراعاه وكتفاه تؤلمانه، لكنه كان سعيدًا، وفخورًا - بشكل صبياني -

بنفسه. فك الحبل المربوط حول خصره. بمجرد انتهائه، كان صخر يقف بجانبه. هبوط صخر لم يستغرق سوى ثوان معدودة، بدد هذا - بشكل ما - الزهو الذي ملأ نفس منصور. صخر حرك الحبل بقوة، ليسقط الخطاف المعلق بالنافذة. بسرعة لف صخر الحبلين، حملهما وهو يتحرك بخفة، يتبعه منصور نحو سور الدار. سارا مع السور، حتى أوقف صخر المسيرة عند نقطة حددها سلفًا..

- أيمكنك تسلق السور؟

- بالتأكيد لا.

إجابة منصور أجبرت صخر على الاستعانة مرة أخرى بالحبل المعقود. ألقى الخطاف إلى طرف السور، فاشتبك به. صعد هو أولًا، ثم تبعه منصور مستهلكًا وقتًا وجهدًا بلغا أضعاف ما استهلكه صخر.

أعلى السور، اكتشف منصور أنهما عند بقعة تطل على شارع جانبي مظلم. بالاستعانة بالحبل هبط منصور إلى الشارع متبعًا صخر.

- خفراء العمدة يملؤون الطرقات.. لن يكون تحركنا يسيرًا.. عليك أن تتبعني كظلي، حتى أخرجك من القرية.

- أنا لا أريد الخروج من القرية.. أنا أريد الذهاب إلى الفابريك.

صخر اندهش..

- لماذا؟

- دفتر جدي معي.. ربما أستطيع أن أجد طريقة لخلاصكم.

صوت صخر تهدج فرحة..

- اتقصد تشغيل الماكينة؟!

- نعم.. سنفعلها، وبأقصى سرعة ممكنة.. ليس أمامنا وقت طويل.

صخر بدا مرتبكًا، هز رأسه رفضًا..

- اسمع.. لا داعي.. أنا انتهيت من تلك الأوهام.. سأغادر القرية أنا والأولاد.. لقد كنت بحاجة لشخص مثلك يواجهني بجنوني.

- لا تحاول إقناعي بأني أكثر منك حماسًا.. بالطبع أنا لم أغير رأيي في خطتك.. هي بالفعل سخيفة.. ولكن دعنا نحاول فعل أي شيء.. أنا لن أقف هنا.. وبين يدي كل هذا العلم ولا أجربه حتى.

صخر ابتسم، ربما سعادة، وربما مجاملة. لكنه بعد تفكير خاطف قال:

- اتبعني.

***

منصور لم يتخيل يومًا أنه قادر على بذل كل هذا الجهد البدني. كان يتحرك بسرعة، فهو لا يدري مقدار الوقت المتاح أمامه، قبل أن تنقلب الدنيا على رأسه. في ساعات كان قد انتهى، وقف على تراب

الفابريكة يلهث، في صدره كميات من التراب الذي تنفسه، تصلح - كما تخيل - لبناء جبل صغير في فناء دار العمدة! سعل وتمخط بشكل جنوني، ضايقه صوت الحشرجة المصاحبة لتنفسه؛ لكنه إجمالا كان فخورًا بما فعله..

- يمكن أن نقول إننا انتهينا من المرحلة الأولى.

منصور قالها محاولًا الابتسام..

في قلب الماكينة درجات معدنية للصعود، وأفاريز ضيقة تتيح قدرًا من الحركة للتنقل بين مكوناتها. الخواجة رينار وضعها في تصميم الماكينة، ليسهل عليه إصلاحها، أو إبدال ما يتلف من أجزائها. منصور لم يكن يملك اللياقة البدنية للتنقل بين الأفاريز، وبين درجات السلالم، التي بدت له مناسبة للقرود أكثر من البشر، برغم أن صخر كان يتحرك خلفه بخفة وسرعة. في النهاية، وبعد ما زاد على الساعتين، تمكن من حصر كل قطع الماكينة، وسجل في دفتره الأجزاء القابلة للعمل، والأجزاء التي تحتاج لاستبدال..

منصور مد يده بالدفتر إلى صخر..

- نحتاج لهذه الأشياء.

صخر تأمل المكتوب ثم أعاد الدفتر إلى منصور..

- لا مشكلة.. فقط أنا لا أفهم الفرنسية!

منصور لعن غباءه..

- سأحاول أن أترجمها لك.. على كل حال هي أشياء من السهل إيجادها عند أي محل يبيع معدات الكهرباء.. وربما قطع غيار الأجهزة الكهربائية..

- لا مشكلة كما قلت لك.. قبل الفجر سنسرق لك ما تحتاج.

منصور لم يملك في هذه اللحظات ترف التمسك بالفضائل، لذا لم يعترض. بعد دقائق، كان صخر ومعه ثلاثة من الأولاد ينطلقون في مهمتهم، التي بدت لمنصور مستحيلة، لولا الثقة الكبيرة في كلمات صخر التي طمأنته بقدر سمح له بالاسترخاء قليلًا، فجلس أرضًا، متكئًا بظهره إلى الحائط، يتأمل الماكينة المنتصبة أمامه. كان هو الوقت المثالي لإلقاء نظرة على ما في دفتر الجد. فتح هاتفه، أخرج صور الصفحات، وبدأ يقرأ:

- ماذا تفعل؟

منصور باغته الصوت، فأجبر وعيه على انفصال مؤلم عن استغراقه فيما يقرأه. لم يدرك تحديدًا مقدار الوقت الذي مر عليه؛ لكنه يدرك أنه قرأ الكثير قبل أن تباغته سحاب، التي تربعت أمامه، وعلى وجهها ابتسامة ودود، لم يتوقعها منصور. في تلك اللحظة، أدرك أن سحاب جميلة حقًا؛ بملامح رقيقة منمنمة، مخبأة تحت طبقة من النظرات الحادة القاسية، وبعض البقع الرمادية، التي لا يعرف إن كانت جزءًا من تكوين بشرتها، أم أن وجهها فقط لم يغسل منذ زمن!

- أبحث عن التعويذة المناسبة.

- لأي شيء؟

منصور فكر لحظتها إن كانت سحاب على علم بخطة زوجها الجنونية..

- لا أعرف تحديدًا.. لكن يمكن أن أستخدم ذات اللفظ الذي يستخدمه زوجك.. الخلاص.

سحاب هزت رأسها متفهمة.

- وما رأيك أنت؟

سحاب هي من سألت، فتعجب منصور، لأنه كان يعتزم أن يسألها نفس السؤال..

- فيمَ؟

- في هوس صخر بالخلاص.

- لا أعرف.. ربما كان حكمي قاسيًا، كما يليق بحكم لا يحيط علمه بعمق تجربة المحكومين.. لكن أنا أخبرت صخر أن رحيلكم هو الحل الأمثل.

- وهو اقتنع بالأمر.. لكنك أنت الآن من أعدته إلى هنا.

منصور أدرك أن صخر حكى لزوجته كل التفاصيل، فلماذا الأسئلة؟ ربما سحاب تبغي فقط فتح بوابات لعبور التحاور، وربما هي تحاول محاصرة منصور لسبب ما. لما طال صمت منصور، سألت:

ـ وهل تظن أنك قادر على اكتشاف وسيلة سحرية للخلاص؟

منصور اقترب من سحاب، أخذ يعرض عليها صور صفحات الدفتر..

- جدي ترجم بالفرنسية كل التعاويذ، وكل المعادلات الكيميائية والرياضية التي تعلمها من كهنة المصريين القدماء. هناك تعاويذ يجب أن تقال، جدي كتب بحروف فرنسية كيف تلفظ بالهيروغليفية.. تعاويذ لمباركة الزرع.. أو للحماية.. أو للتحكم في الطقس.. هناك تعويذة تستدعي البرق.. ربما استخدمها جدي لتشغيل ماكينته.. طبعا هناك تعويذة التحول، التي استخدمها مع بهائم الباشا.. هناك أكثر من شكل لسحر التحويل، كلها تستخدم طاقة البرق باعتبارها طاقة إلهية مقدسة.. من بينها مثلا تعويذة تحول البشر لحيوانات مفترسة.. يقول جدي في دفتره إن الملك رمسيس الثاني استخدمها على جنوده المخلصين، ليحصل على كتائب من الأسود قاتلت الحوثيين إلى جانبه؟!

منصور قطع الجريان الحماسي للكلمات ليبتسم..

- الغريب أن جدي وضع أمام هذه التعويذة تحديدًا ملحوظة أنها مجربة.. تخيلي هذا؟ جدي حول رجل إلى حيوان مفترس!

سحاب لم تنبهر، لم يبدُ على وجهها حتى أنها فهمت الجانب المبهر في تلك المعلومة. لكنها ابتسمت؛ وهو أمر نادر، مع الكثير من شرود التفكير..

- لا شيء في هذا يمكن أن يكون خلاصًا.

قالتها ونهضت بخفة..

***

عند الفجر، سيصحو العمدة، مثل كل يوم. ستوقظه امرأته وقد جهزت له جلبابه وعباءته، مثل كل يوم. العمدة سيتوضأ وهو يتثاءب، مثل كل يوم! أمعاؤه في هذه اللحظة ستتذكر العشاء الدسم، فتطلق ثلاث دفقات متتالية من الريح! العمدة سيسب ويلعن لا أحد، ثم سيعيد الوضوء من بدايته. سيرتدي ملابسه على مهل، وبعناية بكل تفاصيل مظهره، مثل كل يوم. ستحضر له زوجته العطر من حيث تحتفظ به على رف الغيارات الداخلية في الدولاب، سترشه بنفسها بالعطر، قبل أن يضع طاقيته على رأسه، ويستغرق أكثر من عشرين ثانية في هندمتها، وضبط حافتها في وضع التوازي مع حاجبيه. أخيرًا، سيحمل عصاه، ويغادر الحجرة تحت ستار من دعوات زوجته له بالسلامة وسداد الخطى.

سيخرج العمدة من باب الدار، ليجد شحتة والخفير في انتظاره - مثل كل يوم - في الفناء. شحتة سيلاقيه مثل المعتاد..

- ما شاء الله.. ما شاء الله.. الشمس طلعت على طلتك يا حاج.

هذه الليلة سيتحدث العمدة بسؤال خارج عن الروتين اليومي..

- ما أخبار ضيفنا؟

شحتة لن يفهم مغزى محددًا للسؤال في البدء، فقد استيقظ للتو من نومه، وليس في عقله بعد متسع لما هو أكبر من الأفكار والأقوال الروتينية المحفوظة..

- بخير!

الإجابة المائعة لن تعجب العمدة..

- ألم تطمئن عليه طوال الليل؟ ألم تمر على الخفيرين الموكلين بحراسته؟

تساؤل العمدة الحاد سيزرع في عقل شحتة صورة للخطيئة التي ارتكبها..

- السماح يا حاج.. لقد كنت متعبًا، فغفوت طوال الليل.

بعصاه سيشير العمدة إلى الخفير المتأهب لأي أمر..

- اذهب واطمئن على زميلك في الفناء الخلفي.

الخفير سينطلق إلى حيث أمره العمدة. ربما النباهة، وطول الخبرة، واعتياد الإتقان في العمل، هي ما كانت تقود هواجس العمدة ومخاوفه المبهمة في تلك اللحظة. الخفير - بعد ثوان - سيعود ليعلن:

- لا أحد هناك.

العمدة لن ينطق بحرف إضافي، ولن ينتظر ليسمع حرفًا إضافيًا. سينطلق عائدًا إلى الدار، سيصعد السلالم قفزًا، أمام حجرة منصور

سيرفع كفه ثم يهبط بها كقنبلة على قفا الخفير النائم على كرسيه. الخفير سيقفز واقفًا لمَّا ينتبه لحضور العمدة..

- لا مؤاخذة يا حاج.

- نائم يا جاموسة؟!

- والله يا حاج غفلت للتو.. اطمئن.. لم يخرج من الحجرة.

العمدة سيفتح الحجرة وهو واثق مما سيجده. الحجرة خالية. لحظتها سيدركه شحتة وهو يلهث..

- خير يا عمدة؟

شحتة سيحتاج لحوالي الدقيقة ليتمكن من نطق الكلمتين!

- خير؟! المسجون هرب يا بهائم.

العمدة في قمة ثورته سيمسك الخفير من تلابيبه، ليدفعه بقسوة باتجاه السلم..

- اذهب وابحث عن زميلك الذي كان يحرس النافذة.

الخفير سينطلق ركضًا، وصوت العمدة يلاحقه..

- ابحث عنه تحت كل حجر.

شحتة سيتجرأ ويضع يده على كتف مولاه..

- اهدأ يا حاج.

- اهدأ؟! كيف أهدأ وأنا أعتمد على حفنة من البقر؟!

في تلك اللحظة، سيتذكر العمدة أمرًا، سينظر إلى ساعته، ثم سيلقي لشحتة بأمره..

- اذهب أنت إلى الجامع وأذن للفجر.

شحتة وهو يتلقى الأمر هاتفًا..

- أمرك يا حاج.

سيشعر بكل بهجة الدنيا، لأن الله رزقه مخرجًا يبعده عن غضب العمدة في هذه اللحظة السوداء.

العمدة سيعود إلى الفناء. هناك سيلاقيه أحد الخفر معلنًا..

- وجدناه يا حاج.. مكبلًا ومكممًا في الزريبة.

إلى هناك سينطلق العمدة. الخفير جالس على الأرض، بجواره زميل يفك أربطته..

- ماذا حدث؟

بوجه متجهم خجلًا، وعينان تنظران إلى الأرض، وصوت بالكاد يُسمع، سيقول الخفير:

- لا أعرف.. أنا كنت أحرس النافذة، ولم أشعر بنفسي إلا وأنا أفيق في الزريبة.

العمدة بصعوبة سيسيطر على أعصابه، كي لا يقتلهم جميعًا. إن نجح منصور في الهرب من القرية، فهذا يعني أن العمدة خسر المعركة. هكذا سيفكر العمدة وهو يعود إلى داخل الدار. سيفكر أن منصور قد يكون الآن في الفابريكة. هذا هو الاحتمال الأكبر، فالعمدة لا يتخيل أن يستطيع منصور مغادرة القرية ليلًا، وسط الحراسة التي وضعها على مخارج القرية. سيبتهل العمدة إلى الله ألا يخيب ظنه، فوجود منصور في الفابريكة يعني أنه لم يزل في قبضته.

الوقت متأخر، لكن الظرف الاستثنائي سيجبر العمدة على مهاتفة الباشا..

- مرحبًا يا باشا.. منصور هرب.. أعرف.. أعرف.. هم بالفعل حفنة من الأغبياء.. لكن.. أعطني فقط الفرصة للتصرف.. اجعل فيروز يتتبعه ويخبرني بمكانه.

بعد هذه المكالمة، لن يشعر العمدة بمرور الوقت. سيشعل سيجارة، ويشرد مع دخانها منتظرًا الخبر اليقين من فيروز. هاتفه سيرن، متلهفًا سينقض عليه، قبل أن يكتشف أن شحتة هو المتصل..

- الجامع امتلأ يا سيدنا.. الكل يسأل عنك.. ألن تصلي بنا؟

- ليس الآن يا شحتة.. صلِّ أنت بهم.

العمدة سينهي المكالمة ساخطًا. المرة الثانية التي سيرن فيها الهاتف سيكون الباشا هو المتصل. سيخبر العمدة وهو يصرخ غضبًا

أن منصور غادر القرية. فيروز شاهده في سيارة على الطريق إلى القاهرة. في هذه اللحظة، سينهار العمدة. سيتساءل كيف أضاع بهذه السهولة جهد التخطيط، بعد أن لامس بأطراف أصابعه النجاح.

العمدة في سعيه وراء الدفتر لم يكن يبالي برغبات الباشا. لم يكن يفكر وهو يبذل كل هذا الجهد، ويقدم كل هذه التضحيات سوى في مصلحته الخاصة. فليذهب الباشا إلى الجحيم. العمدة لا يريد منه سوى المساعدات الهامة التي يقدمها له سحر فيروز لبلوغ الدفتر، ولولا فيروز لما جارى الباشا في أحلامه. وفي اللحظة الحاسمة، لحظة أن يمسك الدفتر بيديه، سينسى الباشا وإكسيره، وربما حتى ساعده على الرقاد أخيرًا بسلام، وسيجد مئات الأشياء التي يمكن أن يفعلها بسحر الدفتر؛ سيحول التراب إلى ذهب، ويحول الماء إلى بترول، سيجعل أراضيه تطرح ألماسًا! سيفعل الأعاجيب. كل القوة والثروة له وحده. لكن الآن، انهارت الأحلام الوردية، فقد رحل منصور، ورحل معه الحلم الذي لاح في الأفق القريب.

***

في صباح يومه السابع في قريتنا، فتح منصور عينيه وضوء الشمس يملأ الفابريكة. لا يعرف متى نام، ولا كيف. عندما استعاد كامل وعيه أدرك أنه نائم على الأرض داخل الماكينة، بجوار السير المعدني، وحوله المعدات وقطع الغيار مبعثرة. رفع رأسه، فوجد واحدًا من الأولاد أمامه، قال وكأنما ينتظر صحوته:

- لا تخرج الآن.. سأنادي صخر.

الولـد خرج مسـرعًا. توتره انتقل إلى منصـور، مختلطًا بخوف من المجهـول يملؤه منذ هروبـه من دار العمدة. منصور طـوال الليل كان يتوقـع اقتحـام الفابريكة في أية لحظـة، فكان هذا دافعـه لإنهاء العمل بأقصى سـرعة ممكنة. لكن لا شـيء من هذا حدث؛ لا خفراء العمدة اقتحموا الفابريكة لإخراجه، ولا هو تمكن من إنهاء العمل.

صخر دخل عليه في قلب الماكينة. كان متوترًا كذلك وهو يقول:

- اتبعني.

منصور نهض متبعًا خطوات صخر..

- ماذا يحدث؟

- العمدة قادم إلى هنا.. يجب أن تختبئ في الحجرة السرية.

صخر فتح الباب السري. منصور قبل أن يهبط قال:

- لا جدوى من الاختباء.. العمدة سيحرق الفابريكة لإخراجي.

- العمـدة لـم يأتِ من أجلـك.. هو أصلًا لا يعـرف أنك هنا.. لقد تتبعت الأنباء منذ الصباح.. العمدة يعتقد أنك غادرت القرية.

- لماذا هو قادم إذن؟

- لبيب اختفى.

- اختفى؟!

- أجل.. ألم تلاحظ أن باب الفابريكة لم يزل مغلقًا؟

- كيف؟

- لا وقت لهذا.. يجب أن تختبئ الآن.

في مخبئه، تفرغ عقل منصور لحيرته. كيف لم يعلم العمدة أنه في الفابريكة؟ يُفترض أن يخبره فيروز. أهي حيلة منه للمناورة؟ وكيف اختفى لبيب؟ وأية مصادفة جعلته يختفي الآن؟ أم تراها ليست مصادفة؟ منصور أخرج هاتفه ليقرأ قليلًا في دفتر جده. كان يستخدم الهاتف بحذر، فهو يعرف ألا سبيل له هنا لإعادة شحنه إن نفدت منه الطاقة. لم يدرِ كم من الوقت مرَّ عليه، حتى فتح باب الحجرة السرية، وهبط عبره صخر حاملًا شمعة..

- لقد رحل العمدة.

- ماذا حدث؟

- سألنا عن لبيب.. بالطبع أجبنا بأننا لم نره.. وأننا لا نراه كل ليلة منذ أن يُغلق علينا الباب عند الغروب، وحتى يفتحه صباحًا..

صخر جلس أمام منصور، ثبّت الشمعة على الأرض..

- العمدة بدا لي يائسًا.. أنا لم أره بهذا الاضطراب من قبل.. يبدو أن هروبك أصابه في مقتل.

- ألم يسأل عني؟

- كلا.. يبدو أنه لا يتوقع أصلًا وجودك هنا.

- أمر عجيب.

- لماذا؟

منصور لم يكن قد حدَّث صخر بحكاية الباشا، ولا عبده فيروز الساحر، لذا لم يرد أن يفصح الآن عن حقيقة أفكاره..

- لقد توقعت أن يفتش الفابريك.

صخر هز كتفيه..

- هو لم يدخل أصلًا.. لقد اكتفى بالوقوف على الباب لأن الدخول محرم كما تعلم.

منصور لم يُعلِّق على غرابة تصرف العمدة، الملتزم إلى أقصى حد بأكاذيبه..

- على كل حال يبدو أن الظروف تساعدنا لإتمام عملنا.

صخر بدا على وجهه قدر من الحرج..

- هذا صحيح.. ولكن دعنا لا نستأنف العمل قبل الغروب..

الحرج على وجه صخر تضاعف قبل أن يُكمل..

- وحتى هذا الوقت من الأسلم أن تبقى مختبئًا هنا.. باب الفابريكة مفتوح.. ولا نعرف أية حيلة قد يكون دبرها لنا العمدة.

منصور لم يعجبه الأمر؛ الحجرة السرية مكان خانق وكئيب. لكنه لم يعترض..

- سأبقى معك هنا لتسليتك.. فربما تخاف من الظلام.

صخر قالها وابتسم..

- بل أخاف من الوحشة.. والمكان هنا موحش جدًّا.

- الوحشة هي عنوان حياتنا في هذا المكان.

على وقع تلك الكلمة استعاد منصور ارتيابًا حاول طويلًا أن يحبسه وراء قلبه..

- الوحشة تخلق الوحوش.

قالها منصور بشكلٍ محايد، وكأنما يُلقي بتعليق حكيم على ما قيل. صخر هزَّ رأسه موافقًا ولم يُعلق. لحظتها قرر منصور أن يُفصح..

- من قبل قالت لك سحاب أمامي: كفانا دمًا..

منصور صمت، ليس لتشويق السامع - على طريقتنا في الحكي - وإنما لقراءة ملامحه. صخر ابتسم؛ ابتسامة باهتة تُخفي وراءها شرودًا، أو ربما توقعًا لما هو آتٍ..

- إلى ماذا ترمي؟

- إلى ما كانت تقصده سحاب.

- وماذا كانت تقصد في رأيك؟

منصـور شـعر أن صخر يلاعبه. بشـكلٍ ما بينهما ذلك الإحسـاس المبهم بأن كلًّا منهما يفهم الآخر.

- Je vous connais tueur.

جمدت ملامح صخر لفترة. ثم كان هذا التخاطر كما يبدو؛ وكأنما انتقلـت الترجمة إلى عقله مباشـرة. ربمـا قرأ لغة الملامـح، ربما كان ينتظـر هذا التصريح، كتصاعـدٍ حتمي للحوار الدائر. لـن نعرف يقينًا. المهم أنه فهم..

- أنت تعرف.. أليس كذلك؟

منصور ابتسم، ربما إعجابًا بفطنة صخر..

- الأمـر واضح جدًّا.. حتى إنني لا أفهم كيف لم يُدرك العمدة هذا حتى الآن.

- العمـدة يظن أننا موتى.. لا يسـتطيع عقله أن يتصور أي قدرة نملكها على المقاومة.

- لكن هذه حماقة لا مقاومة.

رغـم الجملة التي حملت معنًى هجوميًا جليًا، لكن صوت منصور بدا محايدًا؛ لا غضب فيه، أو حزن، أو اشمئزاز. ربما بدا له فعل صخر - بشكلٍ ما - على قدرٍ من الاتساق مع طبيعته، وطبيعة نشأته..

- ربما لن تفهم.. أنا أعرف أنك متعاطف معنا.. أثق في صدق رغبتك في مساعدتنا.. لكني في النهاية أعرف أنك لم تُجرِّب حياتنا.. فكيف ستفهم؟!

- أنا لا أحاكمك.. ومستعد للتضامن معك.. لكني لن أقتنع. بماذا سيفيدك الدم؟ وإن كان فيه فائدة، فلماذا لا تستمر في ذات الطريق، وتتجاهل أفكارك السحرية عن الخلاص.

الإضاءة الباهتة لم تُتح لمنصور الفرصة للتأكد من كون الالتماعة في عين صخر بفعل الدموع أم لا..

- الغضب يا خواجة.. الغضب المعجون بروحك.. أنا خُلقت من غضب.. شمس صنعتني على هذه الحال.. مريم التي أذاقتني حنانها ثم نبذتني.. حكيم الذي حرمني من أمي.. العمدة مغيب العقول والقلوب.. الأعيان المتغطرسون.. لبيب الخنزير وماضيه القذر مع بنات مقدسات في عمر الطفولة.. أهالي القرية الجهلاء.. كيف أكون أنا وإخوتي في الدرك الأسفل تحت أقدام أولئك جميعًا؟ نحن مَن يستحق الحياة.. مَن يستحق المستقبل.. نعيش في النبذ، وأولئك يعيشون في نعيمهم؟! هؤلاء الأغبياء الذين ما انتبهوا للموت القادم من تحت أرجلهم.. الموت الذي صنعوه بأيديهم.. وغضبي يكبر يومًا بعد يوم.. الغضب يا سيدنا.. كفاك الله شره.

- ولكن ماذا كنت ترجو من أفعالٍ كتلك؟

- لا شيء.. مجرد تنفيث عمّا بداخلي.. على كل حال هم مجرد بهائم.. هذا ما صرت أدركه، فما عدت أنظر إليهم كبشر.. وبالتالي صار ذبحهم أمرًا هينًا.

- ولبيب؟ لماذا الآن؟

على وجه صخر بدا ما يُشبه الحرج، كطفلٍ على وشك الاعتراف بشقاوته!

- لا أعرف ما قد يحدث لنا غدًا.. لم أتصور أنني يمكن أن أغادر القرية دون أن أنعم بمتعة قتله!

منصور نظر إلى الأرض هاربًا من انفلات كلمات في غير محلها. لم يكن يظن أن لكلماته - إن قيلت - أية جدوى الآن، فجاهد للصمت.

- والآن.. سحاب حدثتني عن حواركما بالأمس.

منصور استجاب لابتعاد مسار الحوار عما يُقلقه، فابتسم معلقًا:

- لقد كانت لطيفة معي بالأمس، على غير العادة.

- ما يهمني هنا صدق ما ذكرته عن قدرة الماكينة على تحويل البشر إلى حيوانات مفترسة.

منصور ظنَّه حوارًا عن فضول، أو طلب للعلم، فأجاب بحماس:

- الأمر مذكور في الدفتر بالفعل، التعويذة.. وطريقة عملها.

صخر هز رأسه عن فهم..

ـ أنا أفكر طوال الليل في أمر.. لماذا لم ترَ في هذا سبيلًا للخلاص؟

منصور تجهَّم..

ـ أي سبيل؟

ـ أن نتحوَّل نحن الأولاد المقدسين إلى حيوانات مفترسة.

منصور فكر إن كان من اللائق أن يُخبر صخر بأن خطته الجديدة تلك أكثر غباءً من القديمة!

ـ هل حقًّا تعني ما تقول؟! أنت بحاجةٍ إلى أن تسمع نفسك.

ـ أسمعها جيدًا.. طيلة الليل أحدثها وتجيبني! وهذا ما وصلت إليه عن رضا واقتناع.

ـ وما الذي ترجوه بهذا؟! كيف يكون خلاصك في تخليك عن إنسانيتك لتصير حيوانًا؟!

ـ ليس هذا ما أتحدث عنه.

بانفعالٍ صرخ منصور:

ـ عمَّ تتحدث إذن؟!

بانفعالٍ مُشابهٍ جاراه صخر..

ـ أنا أتحدث عن الدم.. عن القوة والشراسة القادرين على إغراق القرية بدماء أهلها.

- أية قوة؟! حتى أعتى الحيوانات المفترسة تقتلها رصاصات الخفر!

- لن يحدث.. هم أجبن ممّا تظن.. لا يعرفون غير توجيه الرصاصات إلى الهواء للتخويف.

منصور حاول أن يهدأ ليُرتب حجته..

- وماذا بعد نهر الدم؟ هل تتوقع أن تعودوا بشرًا؟

- كلا بالطبع.. لكن أتوقع أن تُصبح القرية لنا وحدنا.. أتوقع أن نحكم الأرض والبراري.. سنسكن القصر لنزيد أساطيره واحدة جديدة.. سننشئ مجتمعًا جديدًا، نحن فيه السادة بلا منازع.

منصور لم يُجب لحظتها. احتاج وقتًا طويلًا ليُقرر إن كان عليه مجاراة الجنون، أم الوقوف في مهب تياره العنيف متحديًا.

***

العمدة لم ينم بقية الليل، منذ أن علم بكارثة هروب منصور. كلمات الباشا، التي أكدت أن منصور غادر القرية، نزلت على رأسه كمطرقة حديدية محماة على النار حتى الاحمرار. لم يستطع أن يمنع نفسه من التفكير في وقوع خيانة. صورة منصور في عقله لم تزل صورة لشابٍّ رخوٍ مُدللٍ لا يقوى على التخطيط والتنفيذ لعملٍ جللٍ مثل هروبٍ ناجحٍ كهذا؛ لكن مَن عساه ساعده؟ مَن هو الخائن بيننا؟ رغمًا عنه ذهبت ظنونه صوب البنت وردة. أتكون - بنت العاهرة -

عشقته حقًا؟! وردة من صلبه، لكنها كلبة شبقة كأمها. العمدة وثق حقًا في ابنته. ليس لأنه أحسن تربيتها، وإنما لأنه يراها مثله؛ تُدرك رسم مساراتها، وتحديد أهدافها، والسعي نحوها. وردة لن تدع شيئًا سخيفًا كالحب يُفسد ما خططاه سويًا للإيقاع بحفيد الخواجة. وردة ليست ابنة شرعية. هي ثمرة لعلاقة عابرة مع عاهرة في البندر. لكن الأم عرفت كيف تستغل لقاءين أو ثلاثة فقط بالعمدة المُتخم بالأموال، كفرصة عمر نادرًا ما تأتي. هددته بالفضيحة في قلب داره، مصطحبة ديوثًا في بذلة ورابطة عنق، قدَّم نفسه باعتباره محامي المدعية! هدَّده بالمحاكم وقضية نسب. العمدة كان بإمكانه أن يُنهي تلك الفتنة في مهدها، ولو بقوة نيران الخفر. لكن الزوجة تدخلت حين بلغتها الأصداء سريعًا. الزوجة العاقر اليائسة من انتفاخ الرحم بحياةٍ وليدة، قالت لزوجها المثقل بندم ما بعد الفضائح:

- امنحها ما تشاء من نقود.. واحصل لنا على الوليد. ليكُن لنا ابنًا شرعيًا.

الأم لم تعترض، والصفقة تمت بمباركة ورضا كافة الأطراف، فصار لوردة نسب معتبر، كابنة للعمدة، وللحاجة زوجته الموقرة. لكن وردة لم تكن بقدر مسئولية حمل هذا النسب، وبدت وكأن جينات عهر في دمائها تُحركها، أو هكذا يراها العمدة. لكن الحقيقة أن وردة فتاة مثقلة بأحلام أكبر من وعود القرية الخانقة. وردة ابنة البندر. ابنة التلفزيون والحياة الرغدة المتيسرة في الأفلام الأمريكية. ابنة أضواء

المدن، وزحام السيارات. ابنة التجارب الحياتية الجريئة القافزة فوق سخافات العادات والأعراف؛ بداية من تجارب طفولية غير مكتملة، إلى علاقات عرضية بزميلات في حمّام المدرسة، وحتى التجربة الأكثر اكتمالًا مع مدرس الثانوي، والتي تركتها بوصمة أبدية عن الشرف المُهدر، وشكل جديد من علاقة الأب بابنته الوحيدة. المدرس نام في وحل قاع الترعة عندما بلغ الخبر العمدة. لم يُصدق ابنته حين ادَّعت له أن التجربة كانت مغتصبة، وصدق المدرس حين تحدث ـ دفاعًا عن حياته ـ عن غواية البنت البكر، ولولا تدخُّل الحاجة للدفاع عن البنت لكانت الآن نائمة بجوار المدرس. العمدة تقبَّل على مضض، طالما أن رائحة البنت لم تغادر حدود علم أنفارٍ ثلاثة: اثنان منهم هما والداها، والثالث هو شحتة، والذي يضع فيه العمدة ثقة عمياء. حتى كان يوم لقائه بمنصور، عندها علم العمدة أن امتلاكه ابنة كتلك، ربما هي هبة من الله إن أحسن استغلالها. ربما منحه الله وردة فقط لأجل أن يكتمل له مخططه هذا، لأن يجد بين يديه سلاحًا بهذه القوة يستطيع أن يُسدده نحو منصور، ويقوده نحو قصر الباشا، وهي المهمة الأصلية التي كان يوكلها إلى وردة، بعد أن تكتسب ثقة الخواجة الشاب بأية وسيلة. لكن مسار الأحداث، وقرار منصور بالصعود إلى القصر، أعفى وردة من تلك المهمة. السؤال الآن الذي لم يزل يقلق العمدة؛ إلى أي حد قد يصل جنون البنت الملعونة؟

العمدة أيقظ ابنته ليُبلغها بخبر هروب منصور. فزع البنت بدا له طبيعيًّا لا اصطناع فيه. وردة ولولت بصوتٍ تملؤه الحسرة، ولعنت قلة

حظها على ضياع ما بذلته من جهد لأداء دورها في خطة أبيها. العمدة غادر حجرة وردة دون أن يُقرر بشكلٍ باتٍّ إن كان سيصدقها أم لا. دخل إلى فراشه الدافئ وهو لم يزل يحاول ابتلاع حيرته، والشكوك التي تتشعَّب في عقله لتتجاوز وردة وتشمل كل المحيطين به، حتى راح في نومٍ مفاجئ، مشحون بأحلام عن خيطٍ من لهب خرج كثعبان من تحت الفابريكة، أثناء محاولة العمدة حفر نفق إلى قلبها، ليلتف حول بدنه ويعصره بألمٍ حارق.

في الصباح، نسي العمدة كل هذا، عندما وضع الخفراء بين يديه قضيتين جديدتين. في البدء حملوا له خبر اختفاء لبيب. خبر كهذا لا يترك خلفه الكثير من الاحتمالات، فلبيب إن لم يكُن في كشكه، ولا في الفابريكة، فهو لن يتواجد سوى في مكانٍ واحد؛ الخلاء، وبالتأكيد إن ذهب إلى الخلاء فلن يغيب كل هذا الوقت، لذا فغيابه لا يمكن إلا أن يكون نتاج فعلٍ إجرامي. الخفراء - بأمر العمدة - انطلقوا للبحث في كل الحقول والخرائب حول القرية. الخبر انتشر بين الناس، ولم يُقدم أحدهم أية معلومة تفيد عملية البحث. وفي قرية يحب ناسها الظهور في دوائر الاهتمام، أمر كهذا يعني أن الناس بالفعل لا يعلمون شيئًا عمَّا حدث للخفير المخضرم.

وهو على هذه الحالة من التوتر، جاءه الحاج عباس الأحمدي، ليُخبره أن دكانه الصغير لقطع غيار الأجهزة الكهربائية قد سُرق ليلة أمس..

- الأولاد المقدسون يا حاج.. ألا يجب أن نفتح عليهم باب الفابريكة؟

العمدة مدَّ يده إلى جيبه مخرجًا سلسلة مفاتيحه. حلَّ أحدها وناوله إلى شحتة..

- ابعث بمَن يفتح الباب.

شحتة تلقى المفتاح متلهفًا، فقد كان حلم حياته أن يمتلك تلك القطعة المعدنية الصغيرة ويُصبح أمينًا عليها..

- سأذهب لأفتحه بنفسي يا حاج.

بمجرد أن استدار ناداه العمدة..

- انتظر.. سأذهب أنا.

في هذه اللحظة. ولأول مرة منذ توليه العمودية، يدخل الأولاد المقدسون في دائرة شكوك العمدة لأي سبب. فجأة وجد نفسه يتساءل: ولِمَ لا؟ الولد صخر كبيرهم قليل الربايـة والاحترام للقرية ومقدساتها. منصور غاب أكثر من مرة داخل الفابريكة، ولم يعرف العمدة بما دار بينه وبين الأولاد المقدسين. العمدة لم يعرف سوى أن صخر طلب من منصور المساعدة عند أول لقاء لهما. الآن يكتشف العمدة أنه كان حمارًا! هو علم مبكرًا أن الأولاد المقدسين يخططون لشيء لكنه لم يكترث. ولماذا يكترث بحفنة أولاد حمقى؟ يذكر أنه قال للباشا حين حدَّثه عن الحوار الذي دار بين صخر ومنصور..

- لا تُبالِ بهم يا باشا.. هم حفنة من المشردين، إنهم مشغولون دائمًا بتسول طعامهم.. فلا تتوقع معجزة ممَّن يتسول طعامه.

منصور الآن يعرف كيف يشغل الماكينة، العمدة واثق من هذا. لكن منصور هرب! حتى وإن اتفق مع صخر على مساعدة الأولاد المقدسين بطريقةٍ ما، فقد تركهم في النهاية وهرب. وما يظن العمدة أن الأولاد بوسعهم فعل شيء دونه سوى البكاء كالنساء. لكن لماذا يختفي لبيب الآن تحديدًا؟!

دوائر الأسئلة كانت أكبر من أن يتجاهلها العمدة؛ في هذه اللحظة التي قرَّر فيها أن يمد نطاق بصيرته، وأن يخرج من سجن خداعه لنفسه، قرر زيارة الفابريكة. لم يدرِ يقينًا ما عليه أن يستكشفه في هذه الزيارة، سوى أنه يُدرك الآن أن عليه صياغة معادلة جديدة تتضمن كل المعطيات الممكنة، لا يتجاهل شيئًا، أو يستهتر بشيءٍ، ولا حتى حفنة من الأطفال المشردين. يعلم أن دخول الفابريكة مُحرَّم عليه. نعم هو مَن اخترع هذا التحريم، لكنه يعرف كذلك أن بقاء الحكاية يعتمد في المقام الأول على احترامه لها.

زيارة العمدة للفابريكة لم تُسفر عن شيء. لم يستطع أن يضع الأولاد المقدسين بعد في خانة الاتهام بشكلٍ صريح، كما لم يستطع أن يبرئهم بشكلٍ تام. لم يزل عقله يتأرجح بين الاحتمالين كبندول أبدي الحركة. لكن عنصرًا آخر سيُضاف إلى عناصر الحيرة، حين يأتيه الأسطى إبراهيم كهربائي السيارات ليشتكي من سرقة بعض الأدوات

من ورشته ليلة أمس. في أعقابه، سيحضر سعيد الحداد ليُبلغ عن سرقة أسطوانة اللحام. هكذا تتلاقى المسارات، لتقود إلى الماكينة.

ليس في يد العمدة الآن سوى فعل واحد منطقي؛ مهما كان الثمن، عليه أن يدخل الفابريكة ويقلبها رأسًا على عقب. العمدة فكر في هذه اللحظة أن عليه اللجوء للشيخ ربيع لمنحه تصريحًا بالدخول، يحمي به أسطورة الفابريكة من الانهيار في أعين الناس. لكن أفكاره لم تبلغ مواطن التنفيذ، فقد عاد إليه الخفر معلنين أنهم وجدوا لبيب مصلوبًا بين نخلتين في حقل التمر جنوب القرية.

***

وقت الغروب، فُتح باب الحجرة السرية. أطل منه رأس سحاب..

- الباب أُغلق.. بإمكانكما الخروج.

صخر صعد الدرجات خارجًا، ومنصور في عقبه. الفابريكة كانت سابحة في ضوء شاحب للغروب، يتسلل من النافذة في الطابق الثاني، ومن الكوة المفتوحة في السقف.

- ما الأخبار؟

هكذا سأل صخر، فأجابه أحد الأولاد:

- القرية مقلوبة.. الشرطة جاءت بأعداد مهولة.. وسمعت خفيرًا في السوق يتحدث مع بائعة الجبن بأن الشرطة ستبقى.. يقول إنهم سيتركون قوة كبيرة لحفظ الأمن.

على وجه صخر بدا ارتباك لم يغب عن إدراك منصور..

- أنت لم تُخطط لهذا.

صخر أجابه:

- لن يُغير هذا شيئًا في الخطة.

- كيف؟! أتطمح في مواجهة نيران الشرطة بحفنة من الـ..

صخر قاطعه قبل أن ينزلق لسانه أمام الأولاد:

- ليس الآن.

منصور أدرك خطأه، فابتلع لسانه مكتفيًا بالإنصات للصمت الذي خلفه تجهم وجه صخر في آذان وقلوب الحاضرين. بعد استراحة للتفكير، اقترب صخر من منصور. كان لم يزل متوترًا، لكن كلماته استعادت الكثير من ثقتها وهو يقول:

- مستحيل أن يسمح العمدة ببقاء الشرطة.

- وما أدراك؟

- أنا أعرف العمدة كما أعرف ظهر يدي.

منصور كاد أن يُلقي تعليقًا ساخرًا عن الثقة الفارغة، لولا أن منطق صخر كان على شيء من الصواب في رأيه..

- العمدة لن يسمح بأي تدخل حكومي في القرية، يكشف أسرارنا، ويُخرج أساطيرنا إلى ما وراء حدودنا.. هذا ما فعله العمدة

طوال حياته.. وما فعله أبوه من قبله.

صخر أنهى كلماته، لتستعيد ملامحه الثقة المعهودة، وكأنما كلماته اقنعته هو قبل أن تُقنع أحدًا..

- دعونا نبدأ بالعمل.. نحن لا نعرف ما يُخبئه لنا العمدة.

ثم التفت إلى منصور..

- أبإمكاننا أن نُنهي العمل الليلة؟

منصور هزَّ رأسه..

- أعتقد هذا.

- دعونا نبدأ إذن.. لكن أولًا...

توقف صخر عن المتابعة حتى احتوى بناظريه وجوه الأولاد جميعًا..

-هناك ما يجب أن أُخبركم به.

صخر جلس على الأرض، فتبعه الأولاد. لدقائق تالية صخر شرح للأولاد ما ينتويه. حاول أن يُبرر لهم بكل جهده لماذا عليهم أن يتحولوا إلى حيوانات مفترسة، بدلًا من مغادرة القرية، سعيًا وراء الحياة، والأمان، كما فعل سابقوهم. طوال حديثه لم ينطق منهم أحد. لم يتحرك منهم أحد. وربما حتى لم يرمش منهم أحد. وعندما انتهى وضع سؤالًا فوق رؤوسهم، كحملٍ ثقيلٍ معجز..

ـ مَن منكم معي؟

الصمت لم تقطعه سوى سحاب بعد مرور دقائق:

ـ أنا معك.. أتبعك ولو كان إلى الجحيم مصيرنا.

الأولاد تبادلوا النظرات، ثم تطورت النظرات لإيماءات حماسة، ثم إلى أصوات خافتة تسري بينهم تدريجيًا معلنة الموافقة، ثم إلى موجة من الأصوات العالية، تحمل سبابًا في القرية وقاطنيها، الذين يستحقون موتًا لا رحمة فيه. لكن الموجة تحطمت عند صمت آخر الأولاد. البنت الطويلة المسماة شجرة، حافظت على صمتها، ولم تبالِ بتجمُّع ثقل النظرات على وجهها. صمتها اعتلى الموقف، فبدا أنه لن يكسر الصمت أحد سواها. حينها قالت:

ـ أنا لن أفعلها. هذا غباء.. لماذا أُضحي بحياتي بدلًا من أن أعيشها؟

صخر أجابها:

ـ لأن هذا العالم بحاجةٍ إلى تغيير.. تلك القرية يجب أن تتطهر.. هروبنا لن يحمل لنا خلاصًا.. سنظل نحمل تلك القرية داخلنا مهما ذهبنا.. دعونا ننهي معاناتنا، ومعاناتها.. دعونا نسعى لخلاصنا، وخلاص القرية.

شجرة صرخت:

ـ هذا جنون.. أنت مجرد مجنون!

نهضت مواصلة تصاعد انفعالها:

ـ أنت تقودنا لهلاكنا منذ ميلادنا.. بأي حق؟ ولأي سبب؟

قالتها وجرت صاعدة الدرجات إلى الطابق الثاني. سحاب نهضت لتلحقها:

ـ اتركيها.. هو قرارها.

سحاب كانت حاسمة في كلماتها:

ـ هي واحدة منَّا.. وحتى إن كانت حرة في اختيارها.. فلا يعني هذا أن نتركها في لحظة حيرة كتلك، فلا تجد أحدنا بجوارها.

سحاب قالتها وانطلقت تتبع البنت صاعدة. بعدها سيعلم الأولاد أن شجرة غادرت الفابريكة عبر النافذة، وأن سحاب تبعتها. لكن في لحظتنا تلك، صخر نهض، نظراته تترامى في كل الاتجاهات إلى نحو أعين الأولاد. وباقتضاب قال:

ـ ابدأوا العمل.

***

العمدة الآن يعلم ما عليه فعله، يُدرك قدر حماقته السابقة، كما يدرك رغبته في تصويب خطئه. هناك خطر يرعى في الفابريكة. قد يكون أكبر خطر هدد قريتنا منذ أن أنشأها الباشا. العمدة يدرك أن

الفابريكة إذا وضعت على كفة ميزان، واستقرار القرية على الكفة الأخرى، فعلى الفابريكة أن تحترق في الجحيم. لا يبالي بقدسيتها أو بالأساطير التي عاش عمره يرعاها، إذا كان ضياع سلطته هو ثمن الحفاظ عليها. ما يعطله فقط هو وجود الشرطة في القرية؛ لن يضرب ضربته في وجودهم. لذلك يمكن أن تتخيل كيف أن محاولات رئيس المباحث لإصدار قرار بالإبقاء على قوة لحفظ الأمن في القرية بعد الجرائم المتلاحقة، كانت بالنسبة لمخطط العمدة كضربة قاضية.

العمدة يعلم أن علاقته بالضابط توترت بعد هرب منصور، وفشله في الحفاظ على كلمته بإبقائه محتجزًا، وربما كانت رغبة الضابط في ترك رجاله بالقرية لا هدف لها سوى تكدير العمدة وإحراجه. لساعات لم يكُف العمدة عن إرسال وتلقي المكالمات من هاتفه. هاتَف الجميع؛ مأمور القسم، ومدير أمن المحافظة، والمحافظ، وثلاثة من نوَّاب البرلمان، حتى نجح في إقناعهم برفض طلب رئيس المباحث. بفضل هذا توترت العلاقة أكثر بين الرجلين. لحظة أن أغلق رئيس المباحث هاتفه، بعد مكالمة حملت الرفض من رئيسه المباشر، أصبح العداء بين الرجلين تامًّا، ومعلنًا في النظرات ونبرات الصوت. في وقتٍ آخر، لم يكن العمدة ليدع هذا يحدث، فهو يعلم كيف يُسيِّر أموره، ويُكيف أحاسيسه وقناعاته بعيدًا عن أي مسار يمكن أن يؤدي به إلى أضرار أو أزمات في علاقاته الرسمية. لكنه الآن ما عاد يُبالي بهذه الاعتبارات، في خضم حالة الطوارئ التي أعلنها. الآن كل

دقيقة يقضيها الضابط ورجاله في القرية قد تُفقده مواضع إستراتيجية في معركته المزعومة، والتي بدأ يُدرك أهمية الوقت في حسمها.

في النهاية، رحلت الشرطة، وبقي الخوف مسيطرًا على الناس. البيوت أُغلقت، والشوارع خلت قبل الموعد المعتاد، وما عاد من حركة في الطرقات سوى للدوريات الثنائية التي عيَّنها العمدة من خفرائه.

حالة الخمود المبكر التي عاشتها القرية، والليلة الصيفية المعتدلة، أتاحتا الأجواء الرومانسية اللازمة لعبد الشافي وأم وجيه لإتمام لقائهما الغرامي عند المقابر. لن نخوض في تفاصيل ما يحدث بينهما الآن. لن نتورَّط في المزيد من الحكايات الفرعية. سندع العاشقَين يتمتعان قليلًا بلحظات عشق ما بعد منتصف العمر، على أن نعود إليهما حين الحاجة لتدخلهما في أحداث حكايتنا.

العمدة عاد إلى الدار، بعد توديع ضيوف القرية. صعد مباشرة إلى حجرته. امرأته خلعت عنه العباءة والحذاء والشراب. سألته:

- أحضر لك العشاء؟

- ليس الآن.. لم تزل بين يدي مشاغل.

خلع الطاقية وطواها في مكانها. خلع الساعة ووضعها على الكومود بجوار الهاتف والمفاتيح. فتح باب الحجرة وخرج..

- إلى أين؟

هكذا أدركته زوجته عند عتبة الخروج. بحدة أجابها:

- لا تبالي.. نامي إن شئتِ.

العمدة هبط الدرجات الداخلية. خرج من الدار. اتجه إلى الفناء الخلفي. شحتة هناك كان ينتظره أمام باب الزريبة..

- تكلمَت؟

العمدة بادر بالسؤال، فأجاب شحتة:

- لم نستجوبها بعد.. انتظرناك.

عبر العمدة باب الزريبة.. في ركن منها - حيث يخزنون أجولة التبن ولفافات الدريس - كانت سحاب على الأرض مكبلة، وبجوارها خفير يقبض على خيزرانة طويلة.

سحاب لاقت العمدة بنظرة كراهية، فأجابها بركلة إلى وجهها أدمته:

- ماذا تفعلون في الفابريكة؟

سحاب لم ترد. لم تُصدر حتى تأوهًا، أو يبدو عليها أنها تبالي بالدماء المندفعة من شج في رأسها..

- أهكذا تجيبون الإحسان؟ أهذا هو رد الجميل للقرية يا أولاد الزواني؟

العمدة اختطف الخيزرانة من يد الخفير وانهال بها على أي موضع

تطاله من جسد سحاب الضئيل. هذه المرة صرخت سحاب ألمًا، فاستبشر العمدة خيرًا..

- ما الذي تخططون له؟

شحتة رأى أنه من العيب أن يترك لسيده مشقة العمل بالكامل وهو واقف كمتفرج، لذا صاح بلا داعٍ حقيقي سوى المشاركة:

- أجيبي الحاج يا بنت الكلب.

ثم انحنى ليصفعها على وجهها بكفه الثقيلة، صفعة أطارت سنًّا من فمها. بعدها استوى واقفًا بمشقة، ممسكًا ظهره، مطلقًا آهة خافتة! العمدة انحنى - عندما حان دوره - ليجذبها من شعرها..

- اسمعي يا بنت.. أقسم بالله إن لم تنطقي سأحرق الفابريكة وكل مَن بها.. وسأجعلكِ تشاهدين هذا بعينيكِ.. وتشمين رائحة اللحم المشوي.

سحاب بالتأكيد لم تشاهد التلفزيون في حياتها، ولا تعرف ما هي الأفلام سوى من لمحات خاطفة في تلفزيون المقهى. لذا سيكون من الظلم لها إن قلنا إنها كانت تبالغ، أو تحاكي أبطال الأفلام، حين أجابت كلام العمدة ببصقة على وجهه، لوثَّت خده الكريم بدمائها..

بحركة عفوية شرع الخفير بندقيته في وجه سحاب صارخًا:

- أقتلها يا عمدة؟

العمـدة كاد يُجيب بالموافقة، فالغضـب المتقد في صدره غلب كل احتمالات التعقل. لكن سقوط الخفير المفاجئ تحت قدميه أعاقه عن الصعود وراء منحنيات الحدث. بسـرعة بديهـة خارقة، لاحظ العمدة أن هناك سـكينًا مرشـوقًا في ظهر الخفير، وأن البندقية لم تزل مشرعة، وإن تغيـر هدفهـا، فباتت فوهتهـا تلاصق جبهته هو، كمـا تغير حاملها وصارت في يد صخر.

كيـف ومتى دخل صخـر؟! هذا السـؤال الحائر في ذهـن العمدة، أجابه شحتة بتلقائية:

- والله أنا قلتها منذ زمن.. هذا الولد مخاوٍ للجن!

عينـا صخر لم تتحولا عن عيني العمـدة. كانا يتصارعان بالنظرات وصخر يخاطب شحتة:

- فك قيودها وإلا فجَّرت رأس سيدك.

شحتة أصابته البلادة، فلم يدرِ ما يفعل..

- مـاذا تفعـل يا ولـد؟! أنـت تنتحر.. حتى لـو قتلتنـي، فقد كتبت شهادة وفاتك.

صخر كان قادرًا على مجاراة العمدة في ثباته وحِدَّته..

- مَـن قـال إننـي أريد موتـك؟ موتك لن يحل شـيئًا.. سـيأتي لك وريث.. ووريثك سيأتي له وريث.. ستتغير الأسماء.. ويبقى العفن.

- ماذا تريد إذن؟

وكأن العمدة يتوقع أن يدفع سؤاله صخر للكشف عن نواياه ومخططاته..

- أريد أن آخذ سحاب ونرحل.. لا شأن لك بنا ولا شأن لنا بك.

العمدة لحظتها هز رأسه، وجهه انشرح بنور الفهم:

- إنه أنت.. أنت القاتل!

صخر ارتبكت ملامحه لثانية:

- توقف عن الألاعيب.. وعمومًا.. إن كنت تظن حقًّا أنني القاتل، فأنت بالتأكيد ستُصدقني حين أقول إنني سأقتلك إن لم يحل خنزيرك وثاق سحاب.

العمدة كان واثقًا من استنتاجه؛ لدرجة تسلل قدر من الخوف إلى قلبه..

- نفذ طلبه.

شحتة احتاج وقتًا ليُدرك أن الأمر موجَّه إليه..

- أفك قيدها؟

شحتة تساءل للتأكد من أمر العمدة..

- ألم تسمعني يا بن الحمار.. فك قيدها.

شحتة أسرع يُلبي أمر العمدة، الذي أتاه هذه المرة بشكلٍ واضحٍ لا لبس فيه. سحاب نهضت بصعوبة، متحاملة على آلامها..

- آأنتِ بخير؟

صخر سألها، فأجابته:

- لا تقلق.. ستمر بسلام.

صخر عاد إلى العمدة:

- مر خنزيرك بأن يُقيدك.

- أتتوقع أن تغادر الدار سليمًا؟

صخر ابتسم هازئًا:

- نعم.. فأنت لم تترك في الدار خفراء لحراستها.. كلهم في الدوريات التي شكّلتها لتُقنع الناس بأنك لم تزل مسيطرًا.

وقاحة صخر أغاظت العمدة. أو ربما اقتناع العمدة بكلامه هو ما أغاظه..

- قيدني.

العمدة أمر بها شحتة..

- لا يصح يا حاج.

العمدة صرخ فيه:

- قيدني يا غبي.

شحتة قيَّد العمدة بنفس الحبل الذي كان يُقيد سحاب. عندما انتهى، تلقى على مؤخرة رأسه ضربة قوية بظهر البندقية أسقطته فاقد الوعي. صخر بعدها ألقى البندقية من يده، ثم انحنى يسحب سكينه من ظهر الخفير القتيل. قطع بالسكين قطعة طولية من رداء الخفير، واقترب بها من العمدة..

- سأكمم فمك.. لكن أولًا أريد أن أسمع صراخك.

قالها وسكينه ينال مقدارًا من وجه العمدة، راسمًا شقًا طوليًا في لحمه. العمدة صرخ كما تمنَّى صخر. بسرعة كمَّم فمه بقطعة القماش وهو يقول:

- هذا هو عدل القصاص.. ثمن الجرح في وجه زوجتي.

ثم دفعه ليسقط فوق التبن. التفت بعدها إلى سحاب ليأخذ يدها، لكنها لم تكن راضية..

- اقتله.. لا تكن أحمق وتتركه يحيا.. لو تركته سيأكلنا.

صخر اقترب من أذن سحاب ليهمس لها:

- الخواجة أنهى عمله.. خلال دقائق سيتحقق لنا ما شئنا.. وأريد أن يشهد العمدة ما سيحدث بنفسه.

***

منصور وجد نفسه للمرة الأولى في الفابريكة دون صخر أو سحاب. مرغمًا كان عليه أن يحمل شعور المسئولية عن باقي الأولاد، وإن كان تساءل أكثر من مرة عن مدى حاجة هؤلاء الأولاد لشخص مثله يحمل مسئوليتهم ولو لدقائق، فهم يبدون له أوسع حيلة، وأكثر خبرة بعراك الحياة منه. لكن الظرف الاستثنائي الذي جمعهم ألغى هذه الفروق، ووحد ما بينهم. منصور يعلم أن الأولاد مثله خائفون، رغم قسوة ما لاقوه في حياتهم، لكنهم لم يلاقوا موقفًا كهذا من قبل. هروب شجرة، ثم غياب سحاب، ثم نبأ اختطافها على يد خفر العمدة، والذي أتاهم به الولد أزرق العينين الذي أرسله صخر بحثًا عنها..

- الولد إيهاب بن رمضان البوشي.. ناداني لمَّا لمحني أمُر من أمام نافذتهم.. دلدل نصفه من النافذة وقال ليغيظني: الخفر جرجروا واحدة منكم إلى دار العمدة قبل صلاة العشاء.. وسيأخذونك إن رأوك إن شاء الله.. لأنكم تتجرأون وتخرجون بعد المغرب، يا كفار يا قليلي الدين!

منصور أعجب بأداء الولد وهو يحكي حكايته مقلدًا مُحدثه، حتى كاد يتبسم ناسيًا قسوة الموقف، لولا شلال السباب الذي انهمر من فم صخر فجأة على رأس الجميع. منصور لم يرَه في حالة كهذه من قبل، لكنه تخيَّل أن حالة كتلك هي بالتأكيد التي تسهل عليه قطع الرؤوس والتمثيل بالجثث. صخر فجأة توقف عن السباب، وكأنما حصيلته من البذاءات اللغوية قد انتهت. اتجه إلى منصور يأخذ بذراعه ويسوقه إلى ركن بعيد عن الأسماع..

- هل بقي لك الكثير من العمل؟

- مجرد دقائق إضافية كما أعتقد. بقي لي استبدال بعض الأسلاك الصدئة.. والأولاد يُبلون حسنًا في تليين التروس القديمة بالزيت.. لكن في النهاية لن نعرف إن كانت أصلحت أم لا إلا في وقت العمل.. وقت وجود البرق في السماء.

لثانية صمت منصور مفكرًا..

- كما أعتقد أني سأحتاج طائرة ورقية.

- لماذا؟!

- لجذب الصواعق.. لأن...

صخر أسكته بإشارة من يده:

- لا وقت للشرح الآن..

أشار إلى أحد الأولاد:

- نور يُجيد صنعها.. أخبره بما تحتاج وهو سيُحسن التصرف.. المهم أن تُنهي العمل سريعًا.. وإن تأخرت عليك.. ضع الأولاد في الماكينة.

صخر قالها، وبحركة حاسمة استدار مبتعدًا، وكأنما قائد عسكري أنهى ببساطة إلقاء أمر على جندي لا ينتظر منه أكثر من الطاعة. منصور أمسك بذراع صخر ليوقفه. جذبه برفق ليعيده إلى وضع المواجهة..

- أنا لا شأن لي بهذا الأمر.. لن أُدخل الأولاد إلى الماكينة إلا في وجودك.

صخر فكر قليلًا..

- انتظرني إذن.. سأعود.

قالها واستدار مبتعدًا. هذه المرة لم يشأ منصور أن يوقفه ليلقي عليه السؤال المنطقي الذي دار في عقله لحظتها: وماذا إن لم تعُد؟!

لكن صخر عاد؛ عاد مظفرًا ومعه سحاب، وقت أن كانت قتامة اليأس هي اللون المسيطر على الموجودات في الفابريكة. منصور من فرحته تقدم الأولاد لجذب الرافعة بحملها. صعدت سحاب أولًا. كانت في حالة مزرية، بكدمات وتورمات ودم متخثر على وجهها، يداري - من النظرة الأولى - ذلك القطع في جبهتها. بمجرد أن وضعت قدميها على أرض الفابريكة، انطلق نحوها ذلك الولد - الذي اشتبه منصور من قبل في أنه بنت - ودفن رأسه في صدرها باكيًا. سحاب ربتت كتفه/ كتفها..

- لا تقلقي يا قمر.. أنا بخير.

الآن تأكد منصور أنها بنت! صخر قفز عبر النافذة بغير صبر على إتمام الوعاء لرحلة الصعود به. قذف سؤاله في وجه منصور بسرعة وكأنما يخشى أن ينساه:

- ما الأخبار؟

منصور ابتسم. كان سعيدًا بعودة صخر حتى إنه لم يستطع أن يمنع نفسه عن المقدمات التي طالما اعتقد أنها عادة مزعجة في كلامنا..

- حمدًا لله على سلامتك أولًا.

- المهم ثانيًا!

- انتهيت.. أعتقد أنها ستعمل جيدًا حين يضربها البرق.

- ومتى سيضربها البرق؟

منصور أخرج هاتفه من جيبه..

- هناك صلاة كان جدي يستدعي بها البرق.. لكن يجب أن تؤدي في العراء.

صخر زفر ضيقًا..

- لا أعتقد أن الخروج من الفابريكة فكرة جيدة الآن.

- أنا لم أكن أنتوي الخروج.. أنا كنت أنتوي الصعود.

قالها وهو يُشير إلى الكوة البعيدة في سقف الفابريكة، حيث يخرج جاذب الصواعق من الماكينة منتصبًا نحو السماء..

- هل تنوي الصعود إلى السطح؟! أليس في هذا خطر عليك، إذا ضربت الصاعقة وأنت بأعلى؟

- ربما.. خاصة أني لا أنتوي الاعتماد على جاذب للصواعق صدئ ومتآكل وعمره تجاوز مئة عام.

- ماذا ستفعل إذن؟

- كما حاولت إخبارك من قبل.. طائرة ورقية مربوطة بسلك موصول بالماكينة.. بها قطعة معدنية ما.. سأطيرها من فوق سطح الفابريك.

الولد المسمى "نور" تدخل في الحوار مظهرًا فخره:

- أنا صنعت الطائرة.

منصور أضاف:

- هي طائرة صغيرة مرتجلة.. قذرة بعض الشيء لأن مكوناتها من القمامة.. لكنها ستفي بالغرض.

صخر هز رأسه:

- حسنًا.. أنا لا أريد أن أضغط عليك صدقني.. لكن الوقت مهم جدًا.. دعنا نبدأ حالًا.

***

أمام درجات السلم الصاعدة إلى سطح الفابريكة، وقف منصور يجهز طائرته. ربط مفتاحًا في وسطها، وتأكد من أن طول السلك كافٍ ليحملها بعيدًا..

- وماذا سنفعل نحن عندما تعمل الماكينة؟

هكذا سأل صخر. منصور ابتسم وهو يقول:

- لا تقلق.. سأكون بينكم ساعتها.. سأدع الطائرة في السماء واهبط سريعًا.

صخر قال على غير توقع من منصور:

- سأصعد معك.

منصور لم يفهم إن كان عرض صخر بسبب قلة ثقة في قدرته على بلوغ السطح، أم بالفعل رغبة في مساعدته. في الحالتين لم يشأ أن يعترض. هو يعرف أن صخر قلق، وأعصابه في قمة شحنها، ولن يستطيع البقاء منتظرًا. في المقدمة صعد منصور يتبعه صخر. رحلتهما استغرقت دقائق، وعندما انتصبا فوق السطح لم يمنع منصور نفسه من الانبهار..

- Une site magnifique..

صخر لم يهتم بالبحث عن الترجمة. هو كذلك أُخذ بالموضع الذي يبلغه لأول مرة، حيث كل القرية نائمة تحت قدميه. لا شيء يوازيه ارتفاعًا، ولا حتى أبراج قصر الباشا. المبني أصلًا فوق أرض مرتفعة.

منصور التفت إلى صخر عفوًا، فوجد أنظاره باتجاه القصر..

- أما زلت تريد أن تعرف ما وجدته في القصر؟

صخر التفت إليه وفي عينيه لهفة..

- بالطبع!

- وجدت الباشا نفسه.. لم يزل حيًّا.

منصور لم يتخيَّل أن شخصًا مثل صخر يمكن أن يُدهش. لكن صخر فعلها ودُهش إلى حد الجمود ذهولًا للحظات، قبل أن يقول:

- هو القصر إذن!

- ماذا تقصد؟

صخر ابتسم:

- القصر هو الهدف.. هناك سنقيم مملكتنا!

***

هل تذكرون عبد الشافي وأم وجيه اللذين تركناهما يتضاجعان عند مشارف المقابر؟ الآن جاء دورهما في الحكاية. عبد الشافي تحديدًا سيلعب دورًا مزدوجًا. أم وجيه لن تفعل سوى أن تركض خائفة حتى بيتها، محاولة ألا تصرخ أو تُصدر أي صوت يفضحها. عندما تصل ستكتشف أن الفزع أنساها لباسها الداخلي ملقى على حشيش الأرض. ستدعو الله ألا يجده أحدهم ويتعرف عليه! أما عبد الشافي فسيركض فورًا نحو دار العمدة. بالنسبة لشخص يختلي بعشيقته ليلًا عند المقابر، كان من المفترض أن يكون أكثر شجاعة. لكن ما رآه فتَّت شجاعته تمامًا. عبد الشافي بلغ دار العمدة، لحظة أن كان أحد الخفراء يمر في مسيرته المكوكية من أمام البوابة..

- إلى أين أنت ذاهب يا عبد الشافي؟

عبد الشافي كان صوته مفهومًا بالكاد من اللهاث والرجفة:

- العمدة.. يجب أن أقابل العمدة.

- في هذه الساعة؟! العمدة نائم.. انتظر للغد، أو لصلاة الفجر.

- الأمر خطير.. يجب أن أراه الآن.

حالة عبد الشافي العصبية أقنعت الخفير بسهولة بفداحة الأمر. لكن إيقاظ العمدة في هذا الوقت ليس من اختصاصه، عليه أن يضع الأمر بين يدي شيخ الخفر..

- انتظر هنا.

بحدة أصدر الخفير أمره، فأطاعه عبد الشافي. عبر الخفير البوابة، اتجه إلى كشك شحتة فوجده خاليًا. فكر أن شيخ الخفر ربما كان في الزريبة عند السجينة. اتجه إلى هناك ليكتشف العمدة المقيد، وشحتة المغشي عليه. الخفير انكب على العمدة يفك قيده، عندما انتهى قام العمدة وهو يرتجف غضبًا، أخرج منديله يمسح الدم عن وجهه. كان ثائرًا وهو يوقظ شحتة بركلة من حذائه. كان ثائرًا وهو يأمر خفيره:

- اجمع كل الخفر.. اجمع كل الجاز والبنزين من كل ركن في القرية.. سنحرق الفابريكة.

الخفير نسي كل شيء عن عبد الشافي، وعن سبب سعيه وراء العمدة، وانطلق لتنفيذ الأمر. العمدة كان ثائرًا وهو يصعد إلى

حجرة نومه ليحضر طبنجته من تحت وسادته. وينظف جرحه ببعض الكولونيا، غير عابئ بالألم الحارق. كان ثائرًا وهو يجيب زوجته، التي نهضت قلقة لتسأله عما يحدث..

- نامي ولا تتدخلي في شئوني.

وبالطبع كان ثائرًا وهو يخرج من بوابة الدار يتبعه شحتة مترنحًا. كذلك كان ثائرًا وعبد الشافي يوقفه صائحًا:

- أدركنا يا عمدة!

العمدة كان ثائرًا لم يزل وهو يمسك عبد الشافي من تلابيبه:

- ماذا تريد يا بن البومة؟!

الارتباك أجبر عبد الشافي على الحديث مباشرة، متخليًا عن كل المقدمات التشويقية التي أعدها في خياله ليُبادر بها العمدة:

- أشباح القصر تهبط إلينا.

العمدة في ظرف كهذا لم يتوقع أن يسمع تخاريف كتلك..

- ماذا تعني؟

- لقد كنت عند المقابر أضاجـ... آ.. أقرأ الفاتحة لأبي.. عندما رأيت شبحًا ضخمًا أسود اللون مثل الليل.. يسير بطريقة مخيفة.. مثل الغوريلا.. هابطًا الطريق، قادمًا من ناحية القصر.

العمدة شكّل تصورًا عن حقيقة ما يعنيه عبد الشافي. لكن تصور العمدة للواقع أخافه أكثر مما فعل تصور عبد الشافي الأسطوري.

العمدة تخلى عن تلابيب الرجل. بشكلٍ ما هدأت ثورته، وقد بات في موقف يحتاج فيه إلى عقله كاملًا دون تغييب..

- اسمع.. اذهب إلى بيتك واختبئ.. وأنا سأتصرف.

عبد الشافي هزَّ رأسه في خشوع الطاعة. لكن اللسان أبى إلا أن يُفلت التساؤل الحائر:

- ماذا حدث يا عمدة؟ مَن جرحك هكذا؟

العمدة رفع كفه وهبط بها على خد عبد الشافي، في صفعة سُمع دويها في مشارق القرية ومغاربها. دون تعليق - أو حتى مساحة للاندهاش - طار عبد الشافي من أمامه، قابضًا بيده على طرف جلبابه، حتى يُكسب انطلاقته المزيد من السرعة والسلاسة.

العمدة التفت إلى شحتة، فوجده ممتقع الوجه يرتجف خوفًا..

- اثبت يا رجل يا مخرف.

- حاضر يا عمدة.

العمدة وضع يده على كتف شحتة لتهدئته:

- تأكد من جمع كل الخفر بسلاحهم، وانتظروني عند الجامع الكبير.

***

العمدة في طريقه - بخطوات سريعة نحو المقابر - كان يعرف يقينًا ما ينتظره هناك، فلم تطاله دهشة حقيقية. فيروز كان جالسًا يستريح على الأرض الترابية، متكئًا على شجرة وحيدة، لم تزل قائمة على مشارف الطريق الصاعد نحو قصر الباشا. تربّع العمدة على الأرض أمامه. في إضاءة القمر لاحظ شحوب وجهه، وعُسر تنفسه. في البدء أشعل العمدة سيجارة:

- ماذا تفعل هنا؟

فيروز حاول أن يبتسم:

- أحاول أن أُنقذ ما بقي من حياتي.

العمدة لم يفهم:

- الباشا بخير؟

كلمات فيروز كانت تخرج خافتة، بلغة عربية كسيحة:

- بخير.. إن كان يصح أن نسمي حاله خيرًا.

العمدة زادت حيرته:

- لماذا تركت القصر إذن؟

- أريد أن أرى الدنيا قبل أن أموت.

العمدة ضحك ساخرًا:

- لقد قتلك المشوار وحده يا غبي! ستموت ولم ترَ من الدنيا غير المقابر!

فيروز حاول أن يُجاري العمدة في سخريته، محاولته للضحك خرجت أقرب إلى حشرجة الموت:

- وأنت ستموت ولن تحقق من سلطتك سوى مكان في نفس هذه المقابر.

- لا تعظني يا شيخ فيروز.. فأنت لست ملاكًا.

فيروز عبست ملامحه:

- بالعكس.. أنا شيطان! حاولت أن أُكفِّر عن ذنوبي.. ولكن لا أعلم إن كنت أخطأت أم أصبت.

- ماذا تقصد؟

فيروز هز رأسه بصعوبة:

- لا تُبالِ.. فأنا راحل الآن.

العمدة قبض على كف فيروز بقوة وكأنما يجذبه من الموت:

- أجبني قبل أن تموت.. أين منصور الآن؟

- وما يهمك؟ لقد غادر القرية.

- أواثق أنت؟

- هل تُكذبني؟

لهجة العمدة احتدت فجأة:

- العفو.. ربما فاتك شيء.. هناك شيء يحدث في الفابريكة، ويجب أن أعلمه.

- أنت تعلم أنه لا سلطان لي على الفابريك.

العمدة ترك يد فيروز ونهض واقفًا:

- سأحرقها إذن.. لتذهب إلى الجحيم.. سأخلق مئة حكاية غيرها.

كانت هذه هي اللحظة التي سُمع فيها في كل أرجاء القرية صوت الرعد، ليوقظ الناس من نومهم مباشرة إلى يقظة الذهول. العمدة رفع رأسه نحو السماء. السحب التي تجمَّعت بكثرة لتقطع طريق ضوء القمر أكدت له أن ما سمعه هو بالفعل صوت الرعد. فيروز نظر كذلك إلى السماء وابتسم فرحة:

- إن أحرقت الفابريك فلن تحصل على الدفتر.

العمدة أعاد ضبط انتباهه نحو فيروز:

- الدفتر في الفابريكة؟

- الدفتر مع منصور.. ومنصور في الفابريك.

العمدة ارتجف للحظة لعظم الانفعال:

- ماذا تقصد؟! أكنت تكذب على الباشا؟

- كما كذبت أنت عليه طوال حياتك.. أقنعته بولائك، في حين لا هم لك سوى اقتناص الدفتر لنفسك.. أما أنا فقد قررت التزام

الحياد.. لا أطماع لي.. فقط اكتشفت أن صراعات الباشا لا شأن لي بها.. مللت لعب دور الأداة.

العمدة انقضَّ عليه قابضًا على رأسه بين كفيه:

- ماذا تعرف عمّا يحدث في الفابريكة؟ أجبني..

للحظة أضاء البرق وجهيهما، فضحك فيروز:

- إنها ترعد وتُبرق في الصيف.. ألا تلاحظ هذا؟! ما تحاول منعه قد وقع بالفعل!

العمدة ترك رأس فيروز واستوى واقفًا:

- سأقتحم الفابريكة.. سأُخرج منصور وأجعله يلعق حذائي.. لن يكون الدفتر وحده ثمنًا كافيًا لرحمتي.

- الوقت لن يُسعفك!

العمدة أخرج طبنجته:

- خائن.

صاح بها وهو يُطلق ثلاث رصاصات، توزعت بشكلٍ غير عادل على صدر فيروز ورأسه.

***

إحراق الفابريكة لم يعُد حلًا يُريح نفس العمدة؛ لا بد من اقتحامها، الدفتر الآن هو الهدف، وليس مجرد التدمير انتقامًا، أو استباقًا لما يظن العمدة أنه يُحاك ضد سلطته. الأهم أن خطوة كتلك تلزمها حكاية جديدة. في طريقه إلى الجامع الكبير عرج إلى الدار، أخبر وردة بدورها الجديد. سألته مندهشة:

- لماذا؟ الناس سيتبعونك حتى وإن أخبرتهم بأن الشمس تُشرق من مغربها.. فما حاجتك لكل هذا؟!

العمدة لم يكن في مزاج يسمح حتى بتلقي الاستفسارات بدلًا من الطاعة، فصفعها وهو يصرخ:

- من أجل الحكاية.. الحكاية يا بنت العاهرة!

شحتة نادى في ميكروفون الجامع الكبير، يدعو أهل القرية للتجمُّع فورًا. الناس كانوا مستيقظين بالفعل يتابعون السماء الملبدة، في ليلة صيفية حارة. الرعد والبرق سلمهم للخوف ولمثات الهواجس، ليس أكثرها شططًا أن القيامة على وشك الوقوع. لم تمر ربع الساعة حتى كان الجامع ممتلئًا - كظهيرة يوم الجمعة - بوجوه مرتبكة متسائلة. العمدة اعتلى المنبر شامخًا. ضمادة بيضاء على خدِّه تداري جرحه. صدره منفوخ قوة وعزمًا. على هذه الحال ألقى خطبته التاريخية الأشهر:

- أيها الناس، أيها المؤمنون، أيها الطائعون المطيعون، يا أحفاد الكرام الأبرار. إني أرى غيومًا تجمَّعت، وبروقًا سطعت. وإنكم في

بيوتكم ماكثون خائفون.. لا والله يا إخواني.. ليس هذا ما أمرنا به الله ولا رسوله ولا شيخه ووليه ربيع عليه السلام.. شيخكم جاءني في المنام يحذرني.. الوعود أُسقطت.. والأشباح تتأهب لمغادرة القصر إلى قريتنا السالمة، ليقضوا على الأخضر واليابس.. ليأكلوا زرعكم، ويشربوا لبنكم، وينتهكوا حرماتكم.. فماذا أنتم فاعلون؟ تختبئون كالنساء؟ أم تشهرون السيوف، وتعاهدون الله على جهادٍ في سبيله؟

العمدة صمت منتظرًا الجواب، فزلزلت جدران الجامع بالهتاف:

- الله أكبر.

- أتدرون يا أحباب لِمَ نُقض العهد؟ أتدرون لِمَ أتاني شيخكم في المنام غاضبًا يأمرني بالجهاد؟ أتدرون لِمَ غضبت السماء عليكم، فأرعدت وأبرقت في ليالي الصيف؟ بسبب الكافر، الفاسق، حفيد الفرنجة الذي آويناه بيننا، وظننا أنه رجل كريم من صلب رجلٍ كريم. لكنه والله ما كان يومًا من صلبه. منصور بن رينار عليه من الله ما يستحق؛ دنَّس مقدساتنا.. دخل الفابريكة، وهو محرم عليه دخولها.. عصَّى علينا أبناءنا وأحباءنا أولاد القرية المقدسين.. ملأ رؤوسهم الصغيرة الفارغة بالأحقاد والأكاذيب، ليُعينوه على مؤامرته الدنيئة على قريتنا الجميلة، حسدًا من عند نفسه.. دنَّس حتى شرفكم..

عند هذا الحد أخرج العمدة منديله ليجفف دموعًا غير موجودة:

- ابنتي البريئة الصغيرة..

مدَّ العمدة يده نحو الصف الأول:

- تعالي يا وردة.. تعالي ولا تخجلي..

تقدَّمت وردة في حجابها الأسود مطرقة الرأس، تتعثر في اتساع جلبابها. صعدت المنبر بجوار والدها:

- أخبريهم يا وردة.. أخبري آباءكِ وإخوتكِ بما فعله بكِ الخنزير.

روت وردة بنبرات الخجل الحكاية التي لقَّنها لها العمدة. عيناها دمعتا، ونشيجها تعالى تمامًا في المواضع التي حدَّدها لها والدها كمخرج مسرحي بارع. حكت عن مغازلة منصور لها منذ اليوم الأول. حكت عن تحرشه بها، وعمَّا صدر منه ليلة أمس، حين تسلل إلى حجرتها. العمدة استلم منها الحكاية ليخبر الجمع كيف حاصر خفراؤه منصور، وكيف تمكن من الهرب والاختباء في الفابريكة. قبل أن يعود إلى السياق اللغوي، والصوتي لخطبته:

- مَن له؟ مَن لشرف القرية الذي كاد أن يُسفح؟ مَن لنُصرة شيخنا ربيع؟ ماذا أنتم فاعلون؟

انطلقت من الحناجر مقترحات غاضبة، تجمَّعت محدثة صخبًا عاليًا كطنين النحل؛ لم يُفهم منه شيء سوى أن الجمع بات في قمة الشحن الانفعالي، وبضع كلمات نجح أصحابها - من ذوي الحناجر القوية - في رفعها فوق الضجيج، تراوحت بين مطالب مشروعة، مثل:

- الكافر يجب أن يُقتل.

وصولًا إلى مطالب أكثر مبالغة، وأعسر على التنفيذ، مثل:

- نضاجع أمه!

في النهاية ابتسم العمدة راضيًا عن عمله. ضم وردة الباكية إلى صدره بيد، جارى بكاءها وهو يرفع اليد الأخرى إلى أعلى، في لقطة تليق برسوم فناني الثورة الفرنسية:

- سنزحف إلى الفابريكة.. الشيخ ربيع يأمركم باقتحامها، يأمركم بأسره حيًا ليُحاكمه بنفسه.. وليكُن الموت مصير كل مَن يُدافع عنه، أو ينحاز إلى جانبه، حتى وإن كان من أحبابنا، أولادنا المقدسين.

وسط التهليل والتكبير بدأت المسيرة الثائرة. الحماس والغضب جعل أصوات الجمع يعلو فوق صوت الرعد، فزادهم هذا تصميمًا وإعجابًا بقوتهم. العمدة تقدَّم المسيرة وسط خفره شاهري البنادق. بعض الناس انفضُّوا عن المسيرة للحظات حين المرور بأبواب بيوتهم لإحضار سلاح. مَن أحضر فأسًا، ومَن أحضر شومة، أو سكينًا. ومنهم مَن طلب ثواب الجهاد، وثواب الإعانة عليه، فأحضر بدل السكين، سكاكين، وبدل العصا، عصيًّا عديدة، ووزعها على رفاق الجهاد من العزل.

المسيرة بلغت باب الفابريكة، فتوقفت بإشارة من يد العمدة، وبصيحة تمثيلية مبالغ بها:

- الآن أوان الملحمة، لا أوان المرحمة!

الناس لم يفهموا حرفًا، لكنهم أدركوا أنه قول هام، فوجب التكبير. العمدة تأهب لإصدار الأمر بالهجوم، لكن باب الفابريكة فُتح من تلقاء نفسه. في حد ذاتها كانت هذه معجزة، فالباب مغلق بالقفل من الخارج، فكيف يسقط القفل هكذا دون مقدمات ويُفتح الباب؟! كيف ظهر على عتبته منصور، تتحرك أمامه ضلفتي الباب نحو تمام الانفتاح دون أن يدفعهما، أو يمد عليهما يدًا من يديه الممسكتين بهاتفه؟!

إطلالة منصور - للأمانة - فاجأت العمدة. فاجأت الجميع، فصمتوا. منصور تقدَّم خارجًا من باب الفابريكة. صاح في الناس:

- مَن عاد إلى بيته فهو آمن.

العمدة استعاد قدراته القيادية بعد ثواني الارتباك، فصرخ:

- مَن تظن نفسك لتأمر الناس الكرام؟

- أظن نفسي حريصًا على دماء الناس الكرام أكثر منك.

العمدة ضحك بأداء مسرحي، فتبعوه جميعًا:

- إنه يهددكم.. هذا الوضيع يهددكم.

ثم عاد إلى منصور:

- وماذا ستفعل إن لم نعُد إلى بيوتنا؟

الإجابة جاءتهم عبر باب الفابريكة، على شكل نمر عظيم الحجم خرج بخطى بطيئة يتباهى بقوته، حتى وقف بجوار منصور. وكأنما البرق تعمَّد لحظتها أن يضرب السماء، فقط ليلتمع ضوءه الخاطف على جسد النمر، فيسطع في العيون لمعان جلده، فيزيده مهابة. الهرج ساد بين الجموع، حتى الخفر نسوا أن البنادق في أيديهم، وحاولوا التراجع إلى الصف الثاني أو الثالث. وحده العمدة ثبت في مكانه؛ ليس شجاعة، وإنما ذهولًا. النمر زأر في وجوههم، فبدأ تشتت الجموع. العمدة صرخ محاولًا استجماع قوته:

- فليبقَ كل فيُ مكانه!

لكن صوته ضاع في صوت زئير جديد:

- اقتلوه.. اقتلوهما.

بسرعة لا تصدق، خرجت الفهود من باب الفابريكة، مُنقضَّة على الجمع، يتبعها النمر العظيم وأنثاه، يمزقون رقاب الخفر في البدء، ثم ينطلقون خلف مَن بقي في طريقهم.

العمدة حين انفضَّ الجمع من حوله لحظة انتشار الفزع في القلوب، بقي هو في مكانه. ليس شجاعة، ولا فضولًا؛ بشكل ما، يمكن أن نسمي ما أصابه شللًا مؤقتًا، أو فرط ذهول. للمرة الأولى تسقط عنه حيلته وسرعة بديهته، ويُصاب بتلك البلادة اللحظية. خفيران تمزَّقا أمامه. أحدهما التُهمت حنجرته، والثاني تدلَّت عبر

فتحـات بطنـه النازفة أجزاء مـن أمعائه. في لحظة، أدرك بصره شـحتة وهو يركض بسـرعة وخفة مستحيلتين بيولوجيًا، وكأنما جسده البدين مجـرد رداء تنكـري منفوخ يرتديه شـخص أصغر عمرًا وأكثر رشـاقة. هذه اللقطة بالنسبة للعمدة كانت ملهمة بشكلٍ ما، أو ربما غريزة البقاء التي تتسـلم القيادة في الأوقات الحاسـمة هي التي دفعته للحركة، في ذات اللحظـة التـي انقضَّ عليه فيها النمر العظيـم. العمدة ربما أراد أن يركض مبتعدًا، فانزلقت قدماه في طين الأرض، ليقع متفاديًا - بشكلٍ قدري - انقضاضة النمر. وربما هو الذي تعمَّد الانبطاح لتفادي الهجمة المفاجئة. المهم أن العمدة نهض بعدها مسـرعًا، خلع خفيه، وبحركة عشـوائية لا معنى لها ألقاهما باتجاه النمر! ثم اسـتدار هاربًا. القدمان الحافيتـان أعانتـاه على مقاومة الانزلاق. بشـكلٍ جيد كان قد استعاد قدرتـه على التدبيـر. يعرف أن النمر خلفـه، وكان نمر ثـانٍ يرفع أنيابه عـن جثة امرأة - لم يتبين العمدة شـخصيتها - ويتحرك نحوه. العمدة يعـرف أنه هالك. هو لا يطمع في مواصلة الهرب بذات الطريقة، لكنه يُـدرك فجأة معلومة هامـة عن الزقاق الصغير الـذي يقترب عن يمينه. تـكاد المعلومة تتشـكل أكثر في هيئـة فكرة عبقرية، لكـن جلبابه يتعثر في شـيءٍ ما، فيسـقط علـى الأرض. من موضعه يعـي أن النمر أدركه، وأشـبك مخالبه في ذيل الجلباب، وهو ما تسـبب في سقوطه. العمدة بات للحظة فريسـة سـهلة لنمـر يتأهب للانقضاض عليـه، وآخر يتابع عـن بُعد ما يجري. لكن العمـدة كان يعرف كيف يتصرف في لحظات كتلك. كرجل مدعوم دائمًا بإيمانٍ راسخٍ بأنه أقوى من الموت، يعرف

أنه سيخرج متصرًا. ربما لهذا تذكر فجأة المسدس في جيبه، ولهذا كانت السرعة في إخراجه وإطلاقه. النمر تراجع صارخًا. العمدة لم يُدرك ما حدث تحديدًا، لكنه عرف أنه أصابه. قبل أن يحسم النمر الثاني أمره بين الانقضاض على العمدة، وبين الاطمئنان على قرينه، كان العمدة يواصل رحلة هربه. دخل الزقاق قبل النمرين، يحاول أن يستغل فارق الثواني الذي يفصله عنهما في تنفيذ مخططه المرتجل. أطلق رصاصة على قفل باب زريبة عوض جمعة، دفع الباب ودخل إلى الزريبة، قبل أن يبلغ أول النمرين الزقاق. العمدة فكر أن الحيوانات تتبع حاسة الشم إذا ما عجز البصر، فكان رهانه للخلاص، في قدرته على إخفاء رائحته. ولهذا اختار زريبة عوض جمعة، التي تؤوي أسرة كبيرة من الحمير. في ركن الزريبة يرتفع روث الحمير مشكلًا تلة صغيرة. غاص العمدة في الروث، مسح بيدين متعجلتين كل سنتيمتر في جسده ووجهه، حتى اختفت ملامحه. رقد تحت سيقان الحمير متخفيًا. بنصف عين تابع النمرين ينسلان عبر فرجة الباب. أحدهما يعرج رافعًا ساقه اليمنى الأمامية، فأدرك العمدة أن رصاصته أصابتها. الحمير أصابها الخوف بهياج، فانتفضت ورفست في كل مكان بعشوائية. كان يمكن أن يموت العمدة تحت حافر حمار، لكن خوفه من النمرين كان أعظم، فتماسك. هياج الحمير أعاق النمرين عن التوغل داخل الزريبة، فاكتفيا - كما تمنى العمدة - بالمكوث قرب الباب وتشمُّم الهواء، قبل أن يرتدا خائبين. الحمير والعمدة هدأوا، واستقر الحال في الزريبة حتى الصباح.

قضـى العمـدة ليلته مختبئًا وسـط الروث. لا يعرف متـى نام، لكنه استيقظ والشـمس تعبر بـاب الحظيرة. نهض مفـكك الأوصال. طبع على رقاب الحمير قبلات امتنان بجميلها. أخرج رأسه بحذر عبر باب الزريبـة، الزقاق خالٍ، لكـن الهدوء وضوء الصبـاح مطمئنين. العمدة بخطـوات حـذرة توجَّه إلـى رأس الزقاق. أكثـر من جثة في الشـارع، وعلى استحياء يتنقل رجلان - بشكلٍ فردي - بينها للتعرُّف على هوية القتلى. أحد الرجلين شاهد العمدة يقترب منه فصرخ:

- بسم الله الرحمن الرحيم!

العمدة لحظتها أدرك كم أن مظهره مخيف، ورائحته أكثر إخافة!

- اخرس يا ولد.. أنا العمدة.

الجثـة أمـام العمـدة كانت لشـحتة. لا يمكـن أن أجـزم إن كان ما اختلـج له قلب العمدة لحظتها هو شـعور الحزن، أم شـعور الضعف. لكن المؤكد أن وقوفه فوق جثة شحتة قد أثقله بشعورٍ غير محبب.

قطع العمدة الطرقات ببطء، يتأمل آثار الاعتداء، محاولًا تبيُّن هوية الضحايـا. البعض خرجوا من البيوت بحثًا عـن قتلاهم أو مفقوديهم. وعلى استحياء بدأ عويل النساء يتصاعد فوق قريتنا.

في طريقه، سيتوقف العمدة أمام الفابريكة. سيتقدم منها بلا سبب. بابها مفتوح على وسعه. ولأول مرة منذ عقود يدخلها العمدة. سيقطع خطوتين حتى تلمس كفه جدار الماكينة. في ذهنه سيتشكل سؤال عن

تلك القوى الجبارة التي يضع يـده عليها، ولا يقدر على استغلالها.
حينها ستدمع عيناه في صمت. بعدها سيغادر الفابريكة متممًا رحلته
إلى الدار. عند بابه سيرى وردة تخرج ملتفة في سـوادها. لن تتعرف
عليه إلا بعد أن يصرخ فيها:

- إلى أين يا بنت الكلب؟

لحظتها سيهيأ له أن حزنًا ارتسـم على وجـه البنت عندمـا تبينت
شخصيته..

- كنت خارجة للبحث عنك.

- ولماذا لم ترسلي أحدًا من الخفر؟

- أي خفـر؟ الـدار متروكة بلا حراسـة.. وطوال الليـل نرتجف أنا
وأمي خوفًا.

العمدة سيدفعها إلى الداخل. ولأول مرة في تاريخ القرية سيُغلق
البوابة بالجنزير.

العمـدة سيُهاتف الحكومة مقدمًا بلاغه عمَّا حـدث، قبل أن يضع
جسـده القذر تحت ماء الدش. والأوسـاخ تنزاح عنه، سـيُفكر العمدة
أنه في حاجة إلى حكاية جديدة يرويها للناس عن كيفية نجاته. حكاية
عن بطولة، وشجاعة، وقوة، تدعم في قلوب الناس فخرهم بعمدتهم،
وتنسيهم مشهده المُزري بالروث الذي يُلطخه.

***

فرغت الحدوتة..

قامت الدنيا عندما أبلغ العمدة عن المذبحة التي وقعت. الشرطة والجيش انتشرا في القرية. كتيبة من الأطباء الشرعيين المتشككين تم استدعاؤهم لفحص الجثث في أماكنها، معجونة بطين بقي من ليلة شتاء استثنائي في منتصف الصيف. كلهم أكدوا أن الموت ناتج عن هجوم حيواني. لا مجال الآن لتكذيب العمدة ومئات الشهود. لا مجال للحديث عن هيستيريا جماعية. عبارة (هجمات حيوانية) كانت هي الأكثر استخدامًا وترديدًا في ذات الليلة، في كل وسائل الإعلام، ومواقع التواصل الاجتماعي، بطريقة استفزت النائب العام، فأمر بمنع النشر، وفرض التعتيم الكامل على الواقعة.

حصار قريتنا استمر لأيام، مدعم بمدرعات الجيش، وأوامر عسكرية بحظر التجوال الليلي. عمليات التفتيش المحمومة بلغت القصر، لكن دخوله كان صعبًا. الوحوش التي تسكنه شرسة، ولا تسمح لأحد بالاقتراب. ذات صباح، شوهدت دبابتان تصعدان التلة، ومروحية عسكرية تقترب من الأجواء. القائد العسكري كان يتناول الفطير المشلتت في مضيفة العمدة، حين صاح في جهاز

اللا سـلكي، الذي جعل العمدة يمسكه نيابة عنه حتى لا يتلوث بدهن السمن البلدي الذي يقطر من الفطير:

ـ اضربوا بكل قوتكم.. سووا هذا القصر بالأرض.

العمـدة لـم يتحدث طبقًا مع السـلطات عن عجـوز يبلغ من العمر قرابة القرنين يسـكن القصر. على كل حال هو شـبه واثق أن الباشـا قد تمزق لأشلاء بالفعل، وربما التهمته الوحوش في فطورها.

فـي هـذه اللحظـة جـاء التدخـل القـدري مـن علمـاء الحيوانات والجهـات المعنيـة، لمنـع العملية العسـكرية البسـيطة تلـك، التي لم يعرف أحد أن اسمها في السجلات السرية العسكرية كان (عملية الثأر الأحمر)!

مـا حـدث أن الحكايـة عبـرت حـدود الدولـة، بلغـت علمـاء الحيوانـات، والجمعيات المتخصصة في كل مـكان. أكبر المنظمات المهتمة أصدرت بيانات تعتبر أن وجود تلك الحيوانات المفترسـة في بيئة بعيدة تمامًا عن بيئتها الأصلية يُعد ظاهرة طبيعية تستحق الدراسة. رؤسـاء دول وحكومات أجروا اتصالات عالية المستوى مع الحكومة المصريـة لمنـع إيذاء تلـك الحيوانات، فـكان نتيجتها ذلـك الاتصال الـذي تلقاه القائد العسـكري، لحظة أن هـم بغمـس قطعة فطير جديدة في طبق العسـل، ليأمره بوقـف عملية الثأر الأحمـر. في وقت لاحق، سيُسـأل وزيـر الدفاع في حوار مـع قناة تلفزيونية أجنبيـة عن الدبابتين والطائرة الحربية الذين حاصروا القصر، وسيجيب مؤكدًا أن تحركات

الجيش تلك كانت بهدف حماية الحيوانات لا القضاء عليها. لكن ماذا عن الناس الخائفين؟ ماذا عن العمدة المذعور الذي صرخ في وجه القائد بلا احتراس:

ـ كيف يا باشا نعيش وتلك الوحوش فوق رؤوسنا؟

الحل الذي بلغته الحكومة بعد اجتماع عاجل، تم تنفيذه في عدة خطوات. الخطوة الأولى كانت انتزاع ملكية القصر للمنفعة العامة من ورثة نعمان باشا، وإعلانه محمية طبيعية. الخطوة الثانية تمثلت في إقامة سياج مكهرب حول المحمية لعزل الحيوانات بداخله. الخطوة الثالثة جاءت في شكل بيان رسمي تم توزيعه على وكالات الأنباء العالمية بأربع لغات، وتم إرسال نسخ منه للمنظمات والجمعيات الدولية المعنية، تتعهد فيه الحكومة بإطعام ورعاية الحيوانات، اتباعًا لقواعد إدارة المحميات الطبيعية - وإن كان الطعام المقرر لهم تتم سرقة معظمه يوميًا لحساب جهات مجهولة - على أن يتم السماح لفرق من العلماء الأجانب بزيارة المحمية، وإجراء الدراسات على الحيوانات وقتما شاؤوا. وهي الخطوة التي لم يُكتب لها النجاح بعد محاولات عدة، بسبب شراسة الحيوانات غير المعهودة، ورفضها التام لأي اتصال مع بني البشر. عدا تلك الواقعة التي حدثت بعد سنوات، عندما حضرت تلك الشابة التي تحمل رضيعًا على ذراعيها. طلبت مقابلة مدير المحمية، بكت أمام نظراته المتشككة، وترجّته أن يجعلها تدخل للحيوانات. الرجل تعامل معها كما تستحق، جزاء لجنونها؛

سبَّها، وطردها من المكان، مهددًا بأن يُدخلها مستشفى المجانين إن عادت. لكن الشابة بقيت على باب المحمية لأيام. نامت في العراء. لا تفعل شيئًا سوى البكاء، والرجاء، وإطعام رضيعها. مدير المحمية لم يجد أمامه سوى خيارين، إما تنفيذ تهديده؛ لكن الرضيع البريء كان يقف حائلًا بينه وبين اتخاذ تلك الخطوة. وإما التعاطف معها، ومع قضيتها غير المفهومة؛ وهو ما كان يعني أن يُلقيها هي وطفلها للحيوانات المفترسة. الرجل حاول البحث عن مسار ثالث، مسار التعقل. أعد وجبة غداء دسمة، ودعاها لمكتبه. تناول غداءه معها وهو يحاول إقناعها ـ باللين ـ بالعدول عن طلبها الغريب. لكنها كانت مصرة. الغريب أنها لم تكن تجيب تساؤلاته عن أسباب طلبها هذا سوى بالصمت. وكآخر ورقة يمكنه أن يستخدمها، صحب الشابة حتى السياج الداخلي، حيث يمكنها أن ترى الحيوانات في فناء القصر ويرونها. أمر رجاله بقطع الكهرباء عن السياج، وسمح للشابة أن تقترب منه قدر ما تشاء. لكنها برغم هذا وقفت على مسافة آمنة، تسعى بنظراتها في كل ركن بأمل عظيم، حتى لمحت النمر الكبير يخرج من تحت ظل شجرة، فنادته:

ـ أنا هنا.. تعالَ.. هل تراني؟

النمر نظر نحوها. وأمام العينين المتسعتين لمدير المحمية، تقدم النمر نحوها بخطوات هادئة. تقدم حتى لاصق السياج. لأول مرة يصدر عن تلك الحيوانات رد فعل هادئ بهذا الشكل تجاه البشر. بل

إن الشابة حين مدّت إصبعها عبر فتحة ضيقة بالسياج، مد النمر لسانه يلعقه بمودة.

- مستحيل.

مدير المحمية قالها مذهولًا، ثم سحب الشابة من يدها حتى باب السياج. أخرج مفاتيحه وفتح الأقفال. دخلت الشابة ورضيعها. تقدّم النمر منها، فركعت الشابة أمامه. وضع النمر رأسه على كتفها في عناقٍ هادئ. بعدها أطلق زئيرًا فخرجت بقية الحيوانات من مكامنها. تقدموا جميعًا من الشابة ورضيعها. ولدقائق تالية دمعت عينا مدير المحمية وهو يرى تلك الاحتفالية المهيبة من الحيوانات بوجود تلك الشابة الغامضة. ما بين عناقات ولعقات لها ولوليدها. حتى ما إن تماسك الرجل، وتمالك نفسه، صاح فيها:

-يكفي هذا.. لتخرجي الآن.

لدهشته أطاعته الشابة. خرجت، فأعاد إغلاق الباب بأقفاله، واستدار ليواجهها:

-ما رأيته الآن مذهل، وغير مفهوم.. أنتِ مدينة لي بتفسير؟

-بل أنا مدينة لك بالشكر.. ولا شيء غير الشكر.

الرجل ابتسم:

-أنتِ تطلبين المستحيل فأُحققه لك.. والآن تأبين أن تقدمي لي بعض التفسيرات.

الشابة ابتسمت كذلك:

ـ إن أنا تكلمت، فلن أستطيع أن أتوقف بعدها عن الحديث.. وأنت تعرف هذا.. فالكثيرون حول العالم يتوقون لسماع الحكاية.. وربما انتهى بي الأمر أسيرة أخرى مثل أصدقائي هؤلاء.. وأنا لا أريد سوى أن أُترك لحالي، لأرعى زوجي وأربي ابني.

الرجل هز رأسه متفهمًا:

ـ ربما ستحكين لابنكِ الحكاية يومًا ما.

بدا على وجهها شيء من تفكير:

ـ وربما أخاف عليه منها.. دعني أربيه أولًا.

قالتها وتحركت مبتعدة. لم يستطع مدير المحمية أن يبعد عينيه عنها طوال طريق هبوطها نحو مقابر القرية. لأول مرة ينتبه لطولها الفارع. لحظتها فكر بطريقة ساخرة، أن هذه الشابة تُشبه شجرة متحركة. وعندما غابت، عاد لمكتبه يفكر إن كان عليه أن يُخبر أحدًا بما رآه، أم لا.

***

معطيات اللعبة تغيرت، العمدة بات ممسكًا بخيوط شبه ممزقة. يحاول الحفاظ على ما كاد يُهدم، وبناء صروح حكايات جديدة. محاصر بين وحوش في القصر المرتفع، تتأهب للدم، أو لما هو أسوأ. حتى حصار الشرطة والسياج المكهرب لا يطمئنه لجانبهم. وبين

الفابريكة التي باتت تحتل مركز القرية كورم خبيث يخشاه الناس، بعد أن كانوا يقدسونه. يطالبون عمدتهم بهدم الفابريكة، لكنه لا يستطيع. كيف يتخلى عن تلك القوة الرابضة أمامه؟ حتى وإن كان عاجزًا عن استخدامها الآن، فما أدراه؟ ربما استطاع غدًا، أو بعد غد. بضعة شباب حاولوا ذات ليلٍ إحراق الفابريكة، لكن خفر العمدة تصدوا لهم. حينها فهم العمدة أن الفابريكة بحاجة لقدسية جديدة لتبقى، بحاجة لحكاية جديدة تحميها، في انتظار الانتصار الأعظم، أن يجد الخواجة الشاب الذي هرب ليلتها من قريتنا. ربما في ليل ما، والعمدة يصلي لله تهجدًا، تواتيه الجرأة، فيقرر الذهاب خلف الخواجة إلى آخر الدنيا، بحثًا عن الدفتر. بحثًا عن حكاية جديدة. حكاية تقيه خوفه من أسياد القصر الجدد. حكاية ترمم ما تصدع من إيمان ناس قريتنا بحكمته. حكاية تُحكم قبضته على الفابريكة وأسرارها، وسحرها.

العمدة وهو يصارع تلك الأفكار، لم يكن يعلم أن هناك على بُعد آلاف الأميال، شاب فرنسي أسمر اللون، يجلس في عراء ليلٍ بارد، يتأمل أشباح جبال البرانس البعيدة، يحتضن دفترًا قديمًا. ويفكر أنه ترك في بلدٍ بعيد قوة لم تُدلِ بعد بكامل أسرارها. شاب مفتون، يحلم في النوم، ويشرد في النهار، ويرتجف افتتانًا عند مرور الذكريات. يُسائل نفسه كل ساعة؛ هل من عودة إلى الفابريكة؟!

تمت



الأعمال الكاملة
t.me/kotbhm

"دفع باب الحديقة. الكشف الأول أتى مع أول خطوة يخطوها إلى الداخل، حين تعثر في جسم خفيف. حينما ضربته قدمه، تدحرج أمامه لمسافة المتر، ربما. الخفير أخرج هاتفه المحمول مشعلا كشافه الصغير، سلطه على الجسم الغريب، ليجد عيني سيده تطالعانه بذهول. الخفير تمتم بآلية غير مقصودة: لا مؤاخذة يا حاج.. فهو لم يدرك في البدء سوى أنه ضرب رأس سيده بقدمه -وهي جريمة لا تغتفر- قبل أن يدرك لاحقا أن الرأس كان بلا جسد"!

***

بين مصر وفرنسا، تدور أحداث هذه الرواية، التي يلهث خلالها القارئ لملاحقة أحداثها المتوالية، وإيقاعها الرشيق، من خلال لغة بسيطة، وأحداث تمزج الواقع بالخيال؛ الممكن بالمستحيل؛ الماضي بالحاضر.

أجاد كاتبها حبْك الأحداث بشكلٍ مُقنع، حتى في اللحظات التي تقترب فيها من الفانتازيا واللا معقول، رابطًا بين ما يجري في قرية مصرية مجهولة، وبين ما أبدعه الفراعنة من إعجاز احتكره لنفسه الخواجة سيمون رينار، وترك شفرته لحفيده منصور، الشاب الفرنسي الذي عاد إلى مصر ليؤدي رسالته في الحياة!

أحمد الملواني . ولد في الإسكندرية عام 1980، تخرج في كلية الآداب جامعة الإسكندرية، نشرت له أعمال أدبية ومقالات في عدد من الصحف والمجلات. قام بتأليف أكثر من مسرحية للبرنامج التليفزيوني الشهير تياترو مصر. حصل على العديد من الجوائز منها: جائزة أخبار الأدب للرواية مركز أول عام 2015، وجائزة صالون إحسان عبد القدوس مركز أول قصة قصيرة عام 2015. كما صدرت له العديد من الروايات والمجموعات القصصية.





9 789777 951463

الدار المصرية اللبنانية